







محلى

والقوى المضادة

تأليف

الدكتور محمد أحمد خلف الله

الناشر

مكتبة الأنجلو المصرية

تمهيد

مما لا شك فيه أن الآراء التي تدور حول الأشياء لا الأشياء ذاتها هي التي تقلق بال الرجال .

فإن الصراع الفكري ، وإن الجدل والحوار ، الذي يدور بين المفكرين حول قضية من القضايا أو مسألة من المسائل ، هو الذي يقلق بال رجال الفكر ويقض مضاجعهم .

وهذا الذي نذهب إليه ، يصدق في حال محمد بن عبد الله عليه السلام أكثر مما يصدق على غيره ، من حيث أن الدعوة التي يدعو إليها ، والمبادئ التي يطالب الناس باعتمادها ، كانت ولا تزال محل كثير من الجدل والحوار بين المؤمنين وغير المؤمنين على حد سواء .

إن الأولين إنما يجادلون في مضامينها ، وفي حكمة الله من فرضها على الناس . وإن الآخرين إنما يجادلون في حقيقتها وفي أحقيتها للإيمان بها ، وممارسة الحياة على أساس منها .

والقرآن الكريم هو الذي يرشد إلى هذا كله ، فقد سجل كل كبيرة وكل صغيرة من أمر ذلك الصراع الفكري — وبخاصة عندما يتعلق هذا الصراع بأمر محمد نفسه ، واختياره رسول الله إلى الناس .

والقرآن الكريم في تسجيله لأبعاد هذا الصراع قد اعتنى عناية خاصة بآثر ذلك الصراع في نفس محمد عليه السلام .

لقد سجل القرآن الكريم كل شيء حتى هذه الخواطر التي عمل القرآن نفسه على القضاء عليها وهي لا تزال في المهد .

فالله سبحانه وتعالى هو الذي يقول : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون » .

وهو الذى يقول : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك ، وضائق به صدرك أن يقولوا لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك ... إلى آخر الآية » .

وهو الذى يقول : « فلعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين » .

وهو الذى يقول : « فاصبر على ما يقولون وأهجرهم هرجاجيلا » .

* * *

والقرآن الكريم لم يقف بهذه التسجيلات عند الحالة الفردية التى تخص محمدا عليه السلام ، وإنما تجاوزها إلى ما يخص غيره من الرسل والأنبياء ، ووضعها فى قوالب أوفى صيغ تشتمل بأنها من النواميس النفسية ، ومن السنن الاجتماعية التى لم تتخلف فى أى زمان ، وفى أى مكان .

إنها حالة لا ينفرد بها محمد عليه السلام .

ويشير القرآن الكريم إلى أن هذا الصراع الفكرى لم يكن من جانب المعارضة صراعا يعتمد على الحق والمنطق السليم ، وإنما كان يتجاوزها إلى ماهو القذف بالباطل ، والإتهام بما يشين .

وقد كان محمد عليه السلام هو وغيره من الرسل والأنبياء فى ذلك على حد سواء .

وهذه هى الآيات التى تشير إلى ذلك كله .

يقول الله تعالى : « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات ، والزير ، والكتاب المنير . . »

ويقول : « وكم أرسلنا من نبي فى الأولين ، وما يأتهم من نبي إلا كانوا به يستهزمون » .

ويقول : « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون . أتواصوا به بل هم قوم طاغون » .

ويقول : « يا حشرة على العباد ما يأتهم من رسول إلا كانوا به يستهزمون »

ويقول : « وإن تكذبوا فقد كذب أمم من قبلكم ، وما على الرسول إلا البلاغ المبين » .

ويقول : « ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون . . » .

* * *

والقرآن الكريم حين يشر إلى هذه الحقائق إنما يشير في الوقت ذاته إلى أن القيادة الروحية ليست بالسهلة ولا اليسيرة حتى ولو كان القائد من عند الله ، ومؤيدا بروح الله .

إن القيادة معاناه ، وتحتاج إلى شيء غير قليل من الصبر ، ومن ضبط النفس .
« ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتي هي أحسن » .
ونصر الله للمخلصين من الأنبياء والمرسلين ، ومن المؤمنين ، سيكون حتماً ، ولكن بعد أن يدرك كل هؤلاء أن القيادة الحكيمة ليست إلا بالصبر على المكروه ، وإلا بالجهد والمعاناة .

فإن الله العليم الحكيم هو الذي يقول لمحمد عليه السلام : « فاصبر كما صبر أولو العزم من الرسل » .

وهو الذي يقول له : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا . . . » .

وهو الذي يقول : « حتى إذا استيأس الرسل ، وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا . . . » .

وهو الذي قطع على نفسه عهداً حين قال : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . . . » .

ولسنا نشك في أن الله القوى العزيز قادر على أن ينصر رسله إلى الناس منذ اللحظات الأولى التي اختارهم فيها أنبياء ، وبعثهم فيها مرسلين إلى الناس . ولكن

حكيمته هي التي اقتضت تأخير هذا النصر، لتسكون هذه النواميس الاجتماعية التي تمارس بها الحياة في جميع الأزمنة والأمكنة، تلك الأزمنة والأمكنة التي لن يكون فيها رسل وأنبياء.

لقد اقتضت حكيمته أن يكون محمد بن عبد الله عليه السلام خاتم النبيين وآخر المرسلين، وسيكون القادة الدينيون من بعده من عامة الناس. فيجب أن يدرك هؤلاء الناس أن القيادة مسئوليات جسام، وصبر ومعاناه.

ولنا عودة إلى هذه المسألة في الفصول المقبلة إن شاء الله.

* * *

والمشكلات التي قام بشأنها صراع فكري، ودار من حولها شيء غير قليل من الجدل والحوار، والتي تستحق من وجهة نظرنا الوقوف الطويل عندها من حيث قدرتها على إفادة الناس في عصرنا هذا وتلبية متطلبات الحياة، تكاد تنحصر في ثلاث مشكلات رئيسية:

الأولى: — تدور حول اختيار محمد بن عبد الله عليه السلام نبيا رسولا، وكيف كان هذا الاختيار على غير ما يتوقع الكثيرون من الناس — وبخاصة من هم من القيادات الدينية والقيادات المدنية في المجتمع المسكي بالذات.

إن مجافاة هذا الاختيار لما كان يعرف الناس في ذلك الوقت من أفكار هو السبب المباشر في قيام ما كان بين محمد عليه السلام وهؤلاء الناس من صراع فكري، ومن جدل أو حوار.

والثانية: — تدور حول الوحدة، ذلك لأن الدعوة الإسلامية إنما تدعو إلى التوحيد، وإلى القضاء على الفرقة — تلك الفرقة التي تمثلت في البيئة في آلهة عديدة وفي مذاهب دينية شتى.

ولم تكن البيئة العربية في ذلك الوقت لتقبل من محمد عليه السلام مثل هذه الدعوة. ومن هنا نبت الصراع الفكري، وجرى فيما بينه وبينهم شيء غير قليل من الجدل والحوار.



والثالثة : — تدور حول الحياة الآخرة ، أو حول يوم القيامة — ذلك اليوم الذى يبعث فيه الناس من قبورهم ليحاسبوا عن كل صغيرة وكبيرة من أعمالهم .

وكان الناس فى هذه البيئة يفكرون البعث والنشور ، أو يرونه على غير الصورة التى يدعو إليها محمد عليه السلام ، ومن هنا نبت هذا الصراع الفكرى ، وجرى ذلك الجدل وذاك الحوار .



ووقوفنا نحن عند هذه المشكلات الثلاث لم يكن لأنها المشكلات الرئيسية فحسب ، وإنما كان لأنها أيضاً المشكلات التى لاتزال تلح علينا فى عالمنا المعاصر ، وتتطلب منا حلا .

فالمشكلة الأولى ، وهى مشكلة إختيار محمد بن عبد الله عليه السلام نبيارسولا ، قد جرت الحوار إلى بشرية الرسل ، وإلى صلة هؤلاء الرسل بأقوامهم ، وإلى التفاف الفقراء من حولهم .

وهى التى تجرنا إلى الحديث عن القيادة الشعبية من وجهة النظر الدينية ، وتزودنا بالكثير من الأفكار الرئيسية التى يمكن أن تدون أساساً لنظرية دينية عن القيادة الشعبية .

والمشكلة الثانية ، وهى مشكلة التوحيد من بعد التعدد ، أو مشكلة الوحدة من بعد الفرقة والإنقسام ، تزودنا بالأفكار الرئيسية التى يمكن أن نعتمد عليها فى رسم صيغة للوحدة الوطنية بعد هذه التجزئات الإستعمارية ، وفى إختيار الوسائل الكفيلة والقادرة على تحقيق وحدة عربية .

والمشكلة الثالثة ، وهى التى تدور حول الحياة الآخرة تجرنا حتماً إلى الحديث عن العدالة فى أية صورة من صورها . فى صورتها القانونية ، أو فى صورتها الاجتماعية ، أو فى صور أخرى يمكن أن يراها الناس صورة من صور العدالة .

إن الحياة الآخرة هي التي تتحقق فيها العدالة — تلك العدالة التي لا يزال الناس يجتهدون في تحقيقها .

« ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً » .
وسدق الله العظيم

* * *

هذا كله إلى جانب ما يمكن أن تمدنا به هذه المشكلات ومادار حولها من صراع فكري ، من أساليب للجدل وطرق للحوار تنفعنا في هذا العصر الحديث — حين تختلف وجهات النظر في العديد من القضايا والمشكلات .
لقد كان القرآن الكريم يبصر محمداً عليه السلام بما يجب أن يكون عليه مع المخالفين له في الرأي أو في العقيدة ، وما أحرانا في عصرنا هذا بأن نتأدب بما تأدب به محمد عليه السلام .

إن هذا الكتاب يقص علينا موقف القوى المضادة من محمد عليه السلام ، وموقف محمد عليه السلام من تلك القوى المضادة . كما يقص علينا أيضاً كيف كان النصر في النهاية لمحمد عليه السلام .

إن الأساليب والوسائل التي حققت لمحمد عليه السلام النصر ليست إلا من سنن الله — تلك السنن التي لا تتبدل ، وما أحرانا بالتعرف عليها لتكون وسيلتنا إلى النصر بإذن الله .

* * *

وتبقى بعد ذلك إشارة عابرة .

هذا الكتاب هو البحث الذي قدمته لسلكية الآداب لنيل درجة الماجستير . ونلت به الدرجة المذكورة برتبة الامتياز مع مرتبة الشرف من الطبقة الأولى — وكان ذلك في عام ١٩٤٢ .

وهأنذا أقدمه للناس بعد ثلاثين عاماً من كتابته .

لقد حدث فيه تغيير طفيف .

لقد كان اسمه « جدل القرآن » وهأنذا أقدمه للناس تحت اسم جديد هو « محمد والقوى المضادة » .

إن المعنى واحد. فالقوى المضادة ليست إلا الطرف الثانى فى الجدل ، إنهم الذين كانوا يجادلون محمدا عليه السلام .

والسر فى تغيير العنوان هو أن العنوان الجديد أُلِيق لهذا العصر الذى نعيش فيه — ذلك العصر الذى يعنى بالقوى البشرية عنايته بالحقائق العلمية .

إن العنوان الأول يحقق قيمة منطقية أو فلسفية ، والعنوان الثانى يحقق قيمة اجتماعية فى عصر نعنى فيه كل العناية بالظواهر الاجتماعية والقوى البشرية .

وأحدثت أيضاً تغييرات فى مواقع فصول الكتاب من حيث التقديم والتأخير، ومن حيث العرض وأسلوب التناول .

إن ما أحدثته من تعديلات لم يكن فى الواقع كبيراً ، فإنما هو النذر اليسير وإنى لأرجو أن ينفع به الله كل قارئ وعى مافيه وتدبره .

والسلام .

دكتور

محمد أحمد خليف الله

١٩٧٢

القسم الأول

مشكلات ثلاث

المشكلة الأولى

كانت مشكلته الأولى ، أو مشكلته الكبرى ، أنه أصبح محمدا رسول الله ، بعد أن كان فردا عاديا يعرف في قومه ويين أترابه ولدانه باسم محمد بن عبد الله .

وكان الذين يعرفونه باسم محمد بن عبد الله يعرفون من حالاته ، ومن صفاته الشيء الكثير . فقد ولد فيهم ، وتربى بينهم ، وعاش أربعين سنة أو تزيد على مقربة من الكثيرين منهم . فكانوا يسمعون أقواله ، ويشاهدون أعماله ، ويرونه رأى العين في كل ما يأخذ وما يدع من الأمور .

وكونت هذه الرؤية أو تلك المشاهدة رصيذا هائلا من المعرفة به ، وبأحداث حياته ، وبكل الوقائع الاجتماعية التي شارك فيها بالقول أو بالعمل ، عند الذين عايشوه وعاصروا هذه المرحلة الأولى من مراحل حياته .

وهذا الرصيد الهائل من المعرفة لم يصلنا كله ، فالذي بلغنا من معاصريه عنه ، لم يكن إلا النذر اليسير الذي لا يشبع نهما إلى المعرفة ، ولا يشفي غليلنا في التعرف على كل وقائع حياته في السنوات الأربعين الأولى من عمره — أي قبل أن يبعث نبيا رسولا .

ولم يكن في هذا الموقف ما يشير إلى إهمالهم لشأنه أو استصغارهم لأمره — فحاشاه من ذلك . وإنه عندهم ليس إلا الصادق الأمين ، الذي يحتكمون إليه في المهمات ، وينزلون عند حكمه لما يعرفونه فيه من رجاحة العقل ، وبعد النظر ، وصواب الحكم .

لم يكن ذلك إلا جريا على سنن الحياة ، وتمشيا مع منطق التاريخ . فالتاريخ لا يعبأ أبدا بمن هم على شاكلته من أبناء الأوساط من الناس . إنه يتركهم وشأنهم ، يتوهون في زحمة الحياة في السنين الأولى من حياتهم .

إن التاريخ إنما يعنى بمولد أبناء الدين في أيديهم السلطة من الحكام والأمراء،
وأصحاب النفوذ والجاه .

إنه يزف البشرى للناس قبل المولد بأيام ، وقد يكون بأشهر .
وإن الأفراح إنما تقام ، والأعلام إنما تنصب ، عند مولد هؤلاء .
وإن التاريخ إنما يصيخ بسمعه ، ويرنو ببصره ، لكل مايفعل هؤلاء حتى
ولو كان هذا الذى يفعلون من الحماقات ، أو من السفخافات .

إن التاريخ إنما يهتم راضيا أو كارها بهؤلاء ، وبمن هم من أمثال هؤلاء .
أما أبناء الكادحين ممن يولدون في الأزقة والحارات ، أو على رمال الصحراء ،
أو في أية بيئة شعبية ، فليس من منطق التاريخ أن يعنى بهم وينظر إليهم على أنهم
أهل رعايته ، ومحل لاهتمامه .

إن التاريخ إنما يترك هؤلاء وشأنهم ، ويدعهم يضيعون في زحمة الحياة ظنا
منه بأنه لن يكون بينه وبينهم أى لقاء .

ولكن هؤلاء قد يجبرون التاريخ على العناية بهم ، ويدفعونه راضيا أو كارها
إلى تسجيل كل وقائع حياتهم .

إنهم يفعلون ذلك عندما تقوى إرادتهم ، وتشتد عزيمتهم ، وبسيطرون على
مقاليد الأمور في مجتمعاتهم .

إنهم حين يفعلون ذلك يصبحون ممن يصنعون التاريخ ، وليس من منطق
التاريخ أن يهمل شأن الذين يصنعون التاريخ .

والتاريخ هنا لا يكتفى بأمرهم منذ هذه اللحظات التى يأخذون فيها في صناعة
التاريخ ، وإنما يحاول أن يكفر عن ذنبه السابق في حقهم عند إهماله لتاريخهم ؛
فيأخذ في البحث والتنقيب عن مراحل حياتهم الأولى ، وعما كانوا يفعلون أو يفعل
بهم في هذه المراحل .

يبحث عن مرحلة الطفولة وما كان فيها من لهو ولعب .

ويبحث عن مرحلة الشباب وما كان فيها من متاعب أو عبث .
ويبحث عن مرحلة اكتمال الرجولة وما كان فيها من أعمال .
يبحث عن كل ذلك لينسج منه تاريخا يعطينا صورة صادقة وكاملة عن حياة هؤلاء الذين أبت عليهم طاقاتهم وقدراتهم أن يضيعوا في زحمة الحياة .
والتاريخ في عمله هذا قد يوفق - وإن يكن في الأعم الأغلب يعجز ،
ويصيبه حظ غير قليل من عدم التوفيق .
إنه يعجز عن أن يعطى الصورة الصادقة ، والصورة السكاملة لمراحل حياة كل أولئك الذين نبتوا نباتا شعبيا ثم انتهت إليهم مقاليد الأمور في مجتمعاتهم ، وأصبحت مصائر الأمور رهن إرادتهم أو مشيئتهم ..
وللعجز هنا أسباب .

فكثيرون من هؤلاء لا يكتبون المذكرات عن مراحل حياتهم في إبانها ووقتها المعلوم ، لأنهم هم أنفسهم ما كانوا يتصورون في ذلك الوقت أن سيكون لهم شأن أى شأن - فضلا عن أن تصبح مقاليد الأمور ومصائر الحياة في أيديهم .

وهم حين يفعلون ذلك بعد أن يصبحوا شيئا مذكورا إنما يعتمدون في ذلك على الذاكرة - والذاكرة قد تفضل وتنسى .

ثم إن وصولهم إلى هذه المرتبة العليا يحول بينهم وبين أن يكونوا صرحاء مع الناس في تسجيل وقائع حياتهم - وبخاصة عندما يكون فيها ما يشين .
إنهم يسترون هذا الشين . وبذلك يكتمون الشهادة على أنفسهم عند الناس ..

والاعتماد على غيرهم في هذا الموقف له هو الآخر أخطاؤه .

فالعاصرون قد ينافقون .

وقد يخلطون في الوقائع ويسندون ما لهذا لذاك .

وقد يصنعون التاريخ بما ينسجونهُ من أوهام ويخترعونهُ من وقائع . . .
وقد . . . وقد . . . مما يصدق معه قول القائلين : بأن فن التاريخ ليس إلا فن
الأكذوبة الكبرى .

* * *

ولكن لصاحبنا في هذا الموقف شأن آخر .
لقد ولد في أمة أمية . أمة لا تسجل وقائع الحياة فيها على جدران أو في
كتب ، وإنما يكتفى الناس فيها بما تعى الذاكرة .
والذاكرة قد تخطئ .

والذاكرة قد تنسى .
ومما تقدم ندرك أن التاريخ كثيراً ما يعجز عن إعطاء الصورة الصادقة ،
والصورة الكاملة للحياة الأولى لهؤلاء .
وهذا الذي نراه أيضاً في المراحل الأولى لحياة محمد بن عبد الله — أي قيل
أن يبعث نبياً رسولا .

إن ما بلغنا من تاريخ حياته في السنوات الأربعين الأولى لم يكن بالشيء
الكثير الذي يرضى فضولنا في التعرف على كل صغيرة وكبيرة من أمر حياته في
هذه السنوات الأربعين .

وهذا القليل الذي وصلنا يمكننا من التعرف على الخطوط الرئيسية في حياته —
وبخاصة عندما يسند القرآن الكريم هذا القليل . . .

ونقف من هذا القليل عند حدود هذه الوقائع الكبرى من مراحل
حياته الأولى .

* * *

والواقعة الأولى : أنه ولد في اليتيم وتربى في اليتيم .

فقد توفى والده وهو جنين في بطن أمه ، وذلك أبلغ اليتيم فيما يحكى عن العرب الجاهليين .

وتوفيت أمه وهو ابن أربع ، أو ابن ست ، على خلاف في ذلك بين الرواة الإخباريين .

كفله أول الأمر جده عبد المطلب ، ثم من بعده عمه أبو طالب — وقد توفى عبد المطلب ولمحمد من العمر ثمان سنوات .

ولم تكن منزلة اليتامى في المجتمع الجاهلي بالمنزلة السكرية . فقد كان الفقراء منهم يذلون ويقهرون ، وكان الأغنياء منهم يضطهدون ويظلمون .

والقرآن الكريم ، والسيرة النبوية ، شاهدان على ذلك .

فالقرآن الكريم يتحدث عن الجاهليين فيقول : « كلا بل لا تكرمون اليتيم » ويقول « فذلك الذى يدع اليتيم » .

ويتحدث إلى محمد عن محمد اليتيم ، وعن الموقف الذى يجب أن يتخذه محمد من اليتامى فيقول : « ألم يحدك يتيماً فأوى . . . » ويقول : « فأما اليتيم فلا تقهر » .

والسيرة النبوية تتحدث عن موقف المرضعات من محمد : المولود اليتيم ، فتقول على لسان حليلة بنت أبي ذؤيب السعدية التى أصبحت له مرضعة ما يلى :

« قدمنا مكة ، فوالله ما علمت منا امرأة إلا وقد عرض عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم فتأباه .

إذا قيل إنه يتيم تركناه .

قلنا : ماذا عسى أن تصنع إلينا أمه ؟ إنما نرجو المعروف من أبي الولد .
فأما أمه فإذا عسى أن تصنع إلينا ؟ .

فوالله ، مابقي من صواحي امرأة إلا أخذت رضيعاً — غيرى .
فلما لم نجد غيره ، وأجمعنا على الإنطلاق ، قلت لزوجي : والله إنى لأكره
أن أراجع من بين صواحي ليس معى رضيع . لأنطلقن إلى ذلك اليتيم
فلآخذنه .

فقال : لاعليك أن تفعل ، فمسى أن يجعل الله لنا فيه بركة .
فذهبت فأخذته . فوالله ما أخذته إلا أنى لم أجد غيره .

* * *

لم تكن منزلة اليتامى فى المجتمع الجاهلى بالمنزلة الكريمة ، يستوى فى ذلك
الأغنياء والفقراء ، والذكور والإناث .
ووقف القرآن إلى جانب اليتامى .

وقف إلى جانب الفقراء فجعل لهم حقاً فى الغنائم ، ونصيباً من أموال
الأغنياء .

ومضى القرآن فى الوصاية بهم إلى الحد الذى جعل بعض الناس يذهبون إلى
أنه كاد أن يورثهم — ، وذلك إشارة إلى قوله تعالى فى آية من آيات الميراث :
« وإذا حضر القسمة أولوا القربى واليتامى والمساكين فارزقوهم منه ، واكسوهم ،
وقولوا لهم قولاً معروفاً . وليخش الذين لو تركوا من خلفهم ذرية ضعافاً خافوا
عليهم ، فليتقوا الله ، وليقولوا قولاً سديداً » .

أما الآيات التى توصى باليتامى الفقراء فكثيرة ، نختار من بينها هذه
الآيات : —

يقول الله تعالى : « واعلموا أنما غنمتم من شئء فإن لله خمسة وللرسول ولذئ
القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ... » .

ويقول : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرئ فلله وللرسول ولذئ القربى
واليتامى والمساكين ... » .

ويقول : « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب —

ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر ، وآتى المال على حبه ، ذوى القربى واليتامى والمساكين ... »

ويقول : « يسألونك ماذا ينفقون ؟ قل : ما أنفقتم من خير فكلوا الذين والأقربين ، واليتامى والمساكين ، وابن السبيل ... »

ويقول : « ويسألونك عن اليتامى ؟ قل إصلاح لهم خير ، وإن تخالطوهم فإخوانكم ... »

ووقف إلى جانب الأغنياء من اليتامى ليرفع عنهم الظلم ، ويوقف ما ينزل بهم من الاضطهاد .

والآيات القرآنية المشيرة إلى ذلك كثيرة أيضاً ، ونختار من بينها ما يلي : -
يقول الله تعالى : « إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون في بطونهم نارا ، وسيصلون سعيراً ... »

ويقول : « وابتلوا اليتامى حتى إذا بلغوا النكاح فإن آنستم منهم رشداً فادفعوا إليهم أموالهم . ولا تأكلوها إسرافاً وبداراً أن يكبروا .
ومن كان غنياً فليستعفف .

ومن كان فقيراً فليأكل بالمعروف .

فإذا دفعتم إليهم أموالهم فأشهدوا عليهم . وكفى بالله حسيباً »

ويقول : « وآتوا اليتامى أموالهم ، ولا تبدلوا الخبيث بالطيب ، ولا تأكلوا أموالهم إلى أموالكم إنه كان حوباً كبيراً ... »

وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع ..

فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة ... »

ويقول : « ويستفتونك في النساء ، قل : الله يفتيكم فيهن .

وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب لهن،
وترغبون أن تنكحوهن ، والمستضعفين من ولدان .

وأن تقوموا لليتامى بالقسط

وما تفعلوا من خير فإن الله كان به عليماً ... »

عن عروة ابن الزبير أنه سأل خالته عائشة أم المؤمنين رضى الله عنها عن هذه
الآية فقالت ...

يا ابن أختي ، هذه اليتيمة تكون في حجر وليها يشركها في مالها ، ويعجبه
مالها وجمالها ، فيريد أن يتزوجها من غير أن يقسط في صداقها فيعطيا مثل
ما يعطيا غيره ، فنهوا أن ينكحوهن إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن
أعلى سنتهن في الصداق ، وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن .

قال عروة : قالت عائشة : ثم إن الناس استفتوا رسول الله بعد هذه الآية
فيهن فأنزل الله عز وجل : « ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن ... »

وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتوهن ما كتب
لهن وترغبون أن تنكحوهن ...

قالت عائشة : والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي
قال الله فيها « وإن خفتهم ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من
النساء ... »

قالت عائشة : وقال الله في الآية الأخرى : « وترغبون أن تنكحوهن » رغبة
أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال .

فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها إلا بالقسط من أجل رغبةهم
عنهن ...

وقال الأستاذ الإمام بعد أن أورد قول عائشة بالمعنى مختصراً ، كأنه يقول :

إذا أردتم التزوج باليتيمة وخفتم أن تسهل عليكم الزوجية أن تأكلوا أموالها فتركوا التزوج بها ، وأنكحوا ما طاب لكم من النساء الرشيدات .

ويعلم الإستاذ رشيد رضا على هذه المسألة فيقول :

وأما على الوجه الذى قالته عائشة والذى اختاره الأستاذ الإمام فى الدرس فمسألة تعدد الزوجات جاءت بالقبض ، لا بالأصالة .
إنهى .

وكون محمد بن عبد الله من اليتامى هو الذى أنبت هذه المشكلة الأولى من حيث أن السادة من العرب كانوا يضطهدون اليتامى ويقهرونهم ويذلونهم ويعاملونهم معاملة غير كريمة .

لم يكن من اللائق أبدا أن يسلموا قيادهم وزمام الأمور فى مجتمعهم إلى واحد من اليتامى مهما يكن حفظه من الفقر والغنى ، إذ الكل فى نظرهم سواء .

* * *

والواقعة الثانية : أنه عمل راعيا للغنم .

وفى السيرة النبوية أن تلك صناعة الأنبياء . وفى الآثار عن الرسول أنه قال :
ما من نبي إلا ورعى الغنم ،

واحترف محمد بن عبد الله هذه الحرفة وهو لا يزال طفلا يلهو ويلعب . فقد احترفها أول ما احترفها فى بادية بنى سعد ، وهو لا يزال فى حِجر حليمة السعدية التى أرضعته وتعهده بالراعى فى السنوات الأولى من عمره .

كان يسأل حليمة عن إخوته من الرضاع حين يفتقدهم ، وكانت حليمة تجيبه بأنهم فى البادية يرعون الغنم .

وتأقت نفس محمد إلى صحبة إخوته من الرضاع ، وكان من بينهم الشيا — تلك التى كانت تحمله وترعاه مساعدة لأُمها حليمة ، وكان محمد بن عبد الله يأنس بها ويركن إليها .

وأجابت حليلة محمد إلى طلبه ، وأذنت له في صحبة أخوته من الرضاع إلى البادية ، وفعل محمد بالغنم مثل ما يفعلون ، وتعلم محمد هذه الحرفة منذ ذلك الزمان .

وكان أبناء حليلة وبناتها الذين صحبهم محمد ، هم : عبد الله بن الحارث ، وأنيسة بنت الحارث ، وخدامه بنت الحارث .

وهذه الأخيرة هي التي عرفت فيما بعد باسم الشيا .

واحترف محمد بن عبد الله هذه الحرفة بعد أن عاد إلى مسكة ، وكان يملك عن طريق الميراث : خمسة جمال ، وقطيعا صغيرا من الغنم ، وجارية تدعى أم أيمن بركة الحبشية ، وكانت تقوم بخدمة أمه آمنة بنت وهب .

ونظر محمد بن عبد الله إلى الدنيا نظرة الراعي . فكل إنسان إنما هو راع ومستول عن رعيته . وإنه القائل :

« كلكم راع ومستول عن رعيته .

فالإمام راع ومستول عن رعيته .

والرجل راع في أهله ومستول عن رعيته .

والمرأة راعية في بيت زوجها ومستولة عن رعيته .

والخادم راع في مال سيده ومستول عن رعيته .

وكلكم راع ومستول عن رعيته »

رواه البخاري ومسلم .

والقرآن الكريم نفسه قد إهتم بالبادية والمراعى على أساس من أن حياة الناس في المجتمع الجاهلي تتصل بهما أقوى إتصال وآكده .

واتخذ القرآن الكريم من البادية والمراعى ، ومن الأنعام التي ترعى وتيسر في

البادية ، مواد محسوسة يبرهن بها على قدرة الخالق ، وعلى نعمه التي ينعم بها على عباده .

ولقد ورد في القرآن الكريم آيات كثيرة تؤكد الموازنة بين الإنسان والحيوان ، وتشير إلى أن الكافر إنما هو إنسان يشبه الحيوان من حيث أنه لم ينتفع بقواه العقلية أحسن انتفاع .

إن القرآن الكريم إنما يذهب إلى أن الكفر آفة عقلية ، وأن الإيمان صحة عقلية . والآيات القرآنية في ذلك كثيرة

يقول الله تعالى في شأن النعم التي أنعم بها على سكان البادية ما يلي : —

« والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون ، ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون ، وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم .

والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينه — ويخلق ما لا تعلمون .

وعلى الله قصد السبيل »

ويقول : « هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسميون . ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات ، إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون »

وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ، إن في ذلك لآية لقوم يعقلون »

وما ذرأ لكم في الأرض مختلفا ألوانه ، إن في ذلك لآية لقوم يذكرون . وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ، وترى الفلك مواخر فيه ، ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون »

وألقى في الأرض روامي أن تميم بكم ، وأنهارا وسبلا ، لعلكم تهتدون ...

وعلامات ، وبالنجم هم يهتدون .

أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون .

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها ، إن الله لغفور رحيم .

صدق الله العظيم .

ويقول الله تعالى من نفس سورة النحل : -

« والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لاتعلمون شيئا ، وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون »

ألم يروا إلى الطير مستخرات في جو السماء مايمسكنهن إلا الله ، إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون .

والله جعل لكم من بيوتكم سكنا ، وجعل لكم من جلود الأنعام بيوتا تستخفونها يوم ظعنكم ويوم إقامتكم . ومن أصوافها وأوبارها وأشعارها أثامنا ومتاعا إلى حين

والله جعل لكم مما خلق ظلالا ، وجعل لكم من الجبال أكتانا ، وجعل لكم سراويل تقيكم الحر وتقيكم بأسكم . كذلك يمت نعمته عليكم لعلكم تشكرون »
وصدق الله العظيم .

ويقول الله تعالى في شأن قدرته ، ودلالة هذه القدرة على البعث والنشور
ما يلي : —

« الله الذي يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه في السماء كيف يشاء ، ويجعله كسفا فترى الودق يخرج من خلاله - فإذا أصاب به من يشاء من عباده إذا هم يستبشرون .

وإن كانوا من قبل أن ينزل عليهم من قبله لمبلسين

فانظر إلى آثار رحمة الله .

كيف يحى الأرض بعد موتها .

إن ذلك لمحى الموتى .

وهو على كل شىء قدير »

صدق الله العظيم .

ويقول أيضا :

« والأرض مددناها ، وألقينا فيها رواسى ، وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج
تبصرة وذكرى لكل عبد منيب »

ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد .

والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد .

وأحيينا به بلدة ميتا

كذلك الخروج »

وصدق الله العظيم .

أما موقفه من الكفرة ، ودلالته على أن الكفر آفة عقلية ، وأن الكافر
لا يتميز عن الأنعام فى شىء ، فتدل عليه الآيات التالية :

« والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام »

« إن هم إلا كالأنعام ، بل هم أضل سبيلا »

« إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون »

« ومثل الذين كفروا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم

عمى فهم لا يعقلون » .

ويلقى الاستاذ الإمام على هذه الآية الأخيرة بقوله : ومثل الذين كفروا - أى

صفتهم فى تقليدهم لآبائهم ورؤسائهم كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء -

أى كصفة الراعى للبهائم السائمة ينطق ويصيح بها فى سوقها إلى الراعى ، ودعوتها إلى الماء ، وزجرها عن الحمى ، فتحيب دعوته وتنزجر بما ألفت من نعاقه بالتكرار شبه حالهم بحال الغنم مع الراعى .

يدعوها فتقبل ، ويزجرها فتزجر ، وهى لا تعقل مما يقول شيئا ولا تفهم له معنى ، وإنما تسمع أصواتا تقبل لبعضها وتدبر للآخر بالتمويد ، ولا تعقل سببا للاقبال ولا للادبار

وأما الكافر فهو يرى الحق ويعرض عنه ، ويصرف نفسه عن دلائله وآياته ، فلا ينظر فيها . فهو كالحيوان يرضى بأن لا يكون له فهم ولا علم ، بل يقوده غيره ويصرفه كيف شاء . فهو مع من قلدهم من الرؤساء كالغنم مع الراعى ، تقبل بدعائه وتنزجر بندائه ، مسخرة لإرادته وقضاءه ، ولا تفهم اذا دعا ولماذا زجر ، فدعوتها إلى الراعى وإلى الذبيح سواء . . . »

واشتغال محمد بن عبد الله برعاية الغنم كان من الأسباب القوية إلى رفض السادة من قريش لدعوته ، وإنكارهم لأن يكون هو النبى الذى أظله ذلك الزمان . ذلك لأن هذه الحرفة لم تكن من الحرف الشريفة فى المجتمع الجاهلى .

لقد كان أبناء السادة يتعلمون الفروسية وما يستتبعها من مهام الصيد والقتل ، وكانوا يدربون على الحرب والقتال ليحسنوا الدفاع عن أنفسهم وعن قبيلتهم ، وكانوا يدربون على أعمال المروءة من كرم للضيفان ، وحماية للاجئين ، وبقية الأعمال التى ترشح صاحبها لأن يكون سيدا فى قومه . أما الرعاية فتترك للعبيد الأرقاء ومن إليهم من الأجراء .

ولم يكن يعنى فى هذا الموقف أن هذه الحرفة حرفة الأنبياء ، وأنه مامن نبى إلا ورعى الغنم .

لقد كانت من الأسباب القوية التى أثبتت هذه المشكلة الأولى ودفعت إلى إنكار أن يكون محمد رسول الله . فالسادة من قريش لا يقبلون أبدا أن يستجيبوا لراع

من رعاة الغنم — أى لواحد من الكادحين أو الأجراء .

* * *

والواقعة الثالثة : أنه اشتغل بالتجارة .

وكانت هذه الحرفة حرفة أبيه من قبل . ففي السيرة النبوية عند الحديث عن وفاة هذا الأب ما يلى :

« حدثنا سعيد بن أبى زيد عن أيوب بن أبى صمصمة قال :

خرج عبد الله بن عبد المطلب إلى الشام — إلى غزه ، فى غير من عيران قريش يحملونه تجارات . ففرغوا من تجارتهم ، ثم إنصرفوا فروا بالمدينة — وعبد الله بن عبد المطلب يومئذ مريض .

فقال : أتخلف عند أخوالى بنى عدى ابن النجار .

فأقام عندهم ضريضا شهرا .

ومضى أصحابه فقدموا مكة . فسألهم عبد المطلب عن ابنه عبد الله فقالوا : خلفناه عند أخواله بنى عدى بن النجار ، وهو مريض .

فبعث إليه عبد المطلب أكبر ولده — الحارث . فوجده قد توفى ودفن فى دار النابغة

فرجع إلى أبيه فأخبره

ولعبد الله يوم توفى خمس وعشرون سنة «

وكانت التجارة أيضا حرفة عمه أبى طالب . . .

والتجارة مهنة شريفة يتعاطاها السادة من قريش . بل هى المهنة التى تدر على أصحابها الأرباح الطائلة .

واحتراف محمد لها لم يكن على أساس أنه من أصحاب رموس الأموال ، وإنما كان على أساس أنه من الأجراء .

نعم إن السيرة تحكى أنه قد بدأ التجارة لحسابه الخاص ، وكان في ذلك شريكاً للسائب بن أبي السائب ، وأن هذا الشريك هو الذى أطلق في الناس هذه الصفات لمحمد بن عبدالله : الصادق الأمين . . .

اشترك محمد مع السائب بن أبي السائب ، واشترى ثياباً من حباشه وعاد فباعها بمكة وربحاً فيها ، فكان السائب يقول : نعم الشريك محمد لا يدارى ولا يمارى ولا يشارى .

ولكن هذا النص فيما ترى لا يرتفع بمحمد أبداً إلى أن يكون من التجار أصحاب رؤوس الأموال . فإنا يتاجر فيه هو وشريكه لا يبدو أن يكون عملاً بسيطاً لا يدر الأرباح الطائلة وإنما يدر الكفاف من الرزق .

وأبرز من عمل عندهم محمد بالأجر خديجة بنت خويلد . . .
وعمل محمد عندهما هو الذى انتهى بأمره وأمرها إلى الزواج . . .
جاء في السيرة النبوية ما يلي : -

كانت خديجة بنت خويلد من أوفر أهل مكة مالا وشرفاً ، وكانت تستأجر رجلاً من قريش يتاجرون لها في مالها فظير شيء تجعله لهم . . .
وعلم أبو طالب يوماً أنها أخذت تستأجر الناس وتجهز للخروج تجارتها إلى الشام مع القافلة . . .

فقال لمحمد : يا ابن أخي أنا رجل لا مال لي ، وليس لنا تجارة ، وهذه خديجة بنت خويلد تبعث رجلاً من قومك فيتجرون لها في مالها ويصيبون منافع لهم ، وأنت تاجر أمين ، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لفضاتك على غيرك . . .

فقال محمد : لعلها يا عم أن ترسل هي إلى في ذلك .
وبلغ خديجة ما بلغها من صدق حديث محمد ، وعظم أمانته ، وكرم أخلاقه ، وعزة نفسه ، فبعثت إليه وعرضت عليه أن يخرج في مالها تاجراً إلى الشام .
فوافق .

ثم أمرت غلامها ميسره أن يسير معه في السفر ولا يمضي له أسراً ،
ولا يخالف له رأياً . . . » .

وانتهى عمل محمد مع خديجة إلى الزواج بها كما هو معروف .
وكون محمد من الأجراء في الميدان التجاري كان أحد العوامل التي حالت بين
الناس وبين الاعتراف به نبياً رسولاً ، ذلك لأن المجتمعات البدوية إنما تقوم الناس
على أساس من الثراء . فالأغنياء يفضلون غيرهم ويكونون أصحاب النفوذ والسلطان .
فهم الذين يسمع الناس أقوالهم ويطيعونهم .

والقرآن الكريم حدث عن هذه الظاهرة من تقويمهم لأمر محمد حين قال عن
لسانهم : « وقالوا ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق . . .

لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذيراً

أو يلقى إليه كنز

أو تكون له جنة يأكل منها . . .

.

تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك :

جنات تجري من تحتها الأنهار

ويجعل لك قصوراً .

* * *

وقبل أن نختم هذا الفصل تشير إلى أن القرآن الكريم قد اعتمد في توضيح
المفاهيم الدينية على العبارات المستخدمة في العمليات التجارية — ولم يكن ذلك
إلا لمركز التجارة في مكة بصفة خاصة ، وفي المجتمع العربي الجاهلي بصفة عامة . . .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب

اليم . تؤمنون بالله ورسوله ، وتجاهدون في سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ، ذلكم
خير لكم إن كنتم تعلمون . يغفر لكم ذنوبكم ، ويدخلكم جنات تجري من تحتها
الأنهار ، ومساكن طيبة في جنات عدن ، ذلك الفوز العظيم » .

ويقول : « إن الذين يعلون كتاب الله ، وأقاموا الصلاة ، وأنفقوا مما رزقناهم سرّاً وعلانية يرجون تجارة لن تبور . ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور » .

ويقول : « أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ، وما كانوا مهتدين » .

ويقول : « إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة — يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون ، وعدا عليه حقاً في التوراة والإنجيل والقرآن . ومن أوفى بعهده من الله ؟

فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به . وذلك هو الفوز العظيم » .

ويقول : « إن الذين يكتُمون ما أنزل الله من الكتاب ويشترون به ثمناً قليلاً أولئك ما يأكلون في بطونهم إلا النار ، ولا يكلمهم الله يوم القيامة ولا يذكهم ، ولهم عذاب أليم .

أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى ، والعذاب بالمغفرة ، فإصبرهم على النار » .
وصدق الله العظيم

٢

لم تكن له يد في خلق هذه المشكلة ، فلم يحدث أبداً أن سعى هو لأن يصبح نبياً رسولاً ، كما لم يقع أبداً أن أخذ رأيه في أن يكون نبياً رسولاً . والذي حدث بالضبط هو أن إختياراً من المولى سبحانه وتعالى قد وقع عليه ليكون النبي الرسول الذي أظله ذلك الزمان .

وفي تقديرنا أنه هو بالذات لم يكن يتوقع أن يكون هو النبي الرسول ، ولعله كان يكر على الذين يشيرون عليه ، وينصحونه أن يسعى في أن يكون النبي الرسول الذي أظله الزمان ، مشورتهم ويرد عليهم ، نصيحتهم .

والذي يدعونا إلى هذا القول ، أو هذا التقدير ، أسباب كثيرة ، تدور جميعها حول الظواهر الدينية والظواهر الاجتماعية التي نعرفها عن ذلك العصر . وأول هذه الأسباب أن القيادة المدنية في هذا المجتمع كانت بيد الرجال الأقوياء الأشداء .

ومصدر قوة هؤلاء الرجال ما بأيديهم من ثروات طائلة ، وما عقدهم من ذرية سليمة البنية كثيرة العدد . ويحكى القرآن الكريم عنهم أنهم كانوا يقولون : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذبين . وكانوا يقولون : من أشد منا قوة ؟ .

كانت قيادة البادية من إختصاص شيوخ القبائل — أولئك الذين يبلغون من العمر سنّاً متقدمة ، ولهم في قبيلتهم منزلة إجتماعية ممتازة ، بسبب ما يقومون به من خدمات ، وما يملكون من مراعى وأغنام وأنعام . وكانت قيادة الحضر أو المجتمع المكي بصفة خاصة بين التجار الكبار وأصحاب رؤوس الأموال .

ولم يكن محمد بن عبد الله عليه السلام من أولئك ، أو من هؤلاء في شيء .

ومن هنا لم يكن مرشحاً لأن يكون شيخاً لقبيلة ، أو رئيساً لفئة من فئات المجتمع .

لقد كان من أوساط الناس . من اليتامى ، ومن الرعاة ، ومن الأجراء في ميدان التجارة ، وهذا هو الذى باعد بينه وبين مركز القيادة في مجتمعات البادية ، وفي مجتمعات الحضر على حد سواء .

* * *

وثانى هذه الأشياء أن القيادة الدينية في هذا المجتمع كانت من إختصاص ومستوليات رجال بأعيانهم . رجال نذروا أنفسهم للآلهة واقطعوا إلى خدمتها . رجال أعلنوا في الناس أنهم وحدهم دون غيرهم الذين يحسنون الوساطة بين الآلهة والناس .

يتمثل هؤلاء الرجال في أصحاب الوظائف الدينية ممن نعرفهم بسيماهم . وأولئك هم الأحبار والرهبان ، والقساوسة والكهنة ، والعرافون والمنجمون ومن إليهم ممن يدعون القدرة على معرفة الغيب وما تحبثه الأقدار للناس .

لقد كان هؤلاء يستشفون عند الآلهة للخطاة والمذنبين من الناس . وكانت الآلهة تشفع أو يعلنون هم ذلك في الناس .

وكان هؤلاء يسترضون الآلهة لتبخر الخطاة والمذنبين — يسترضونهم من أجل أن تحل بركتهم في الناس ، فترضى الآلهة وتمنح هؤلاء البركة — أو هكذا يعلنون هم للناس .

وكان الناس من جانبهم يطلبون إلى أصحاب الوظائف الدينية إخبارهم بالغيب المكتوب من الأزل أو المقدر عليهم ، فيجيبون الناس إلى ما طلبوا ، ويتنبأون أو يتكهنون بالغيب ، ويصدقهم الناس .

كانوا يفعلون ذلك كله ، واكتسبوا بذلك كله منزلة عظيمة في الناس . منزلة مكنتهم من القيادة ، ومن توجيه الناس إلى القيام بذلك العمل ، أو الكف

عن ذلك العمل ، من حيث أن هذا التوجيه هو الذى يرضى الآلة .

لقد كانت مخالفة توجيهاتهم جريمة لا تغتفر إلا بما يقدمون من القرايين ومن وسائل الغفران .

ولم يكن محمد بن عبد الله عليه السلام من ذلك كله فى كثير أو فى قليل .

نعم لقد تعبد فى غار حراء ، ولكنه فى تعبد كان مخلصاً لله ولوجه الله . ومن هنا لم يفعل مثل غيره ، ولم يذهب إلى أنه قادر على معرفة الغيب وإسترضاء الله والشفاعة عنده للخطاة والمذنبين من الناس .

لم يفعل شيئاً من ذلك ، ولم يكتسب من أجل ذلك أية منزلة قائمة على هذا الأساس .

لقد عرف عليه السلام ببعض الخصائص التى اكتسبته ثقة الناس بما فيهم أصحاب رؤوس الأموال .

لقد عرف بأنه الصادق الأمين — وليست تفضل هذه الصفة صفة أخرى عند الناس .

لقد أحبه الناس ، ولكن هذا الحب لم يكن الوسيلة إلى القيادة فى المجتمع الذى وصفنا ، وإنما القيادة فيه لرجال الدين ، أو للأقوياء الأشداء .

* * *

وعلى الرغم من هذا كله .

على الرغم من أنه لم يكن من الأرياء ، أو من الأقوياء الأشداء أو من رجال الدين ، وقع عليه الاختيار ليكون النبي المرسل الذى أظله ذلك الزمان .

وكان اختياره هو بالذات ضربة لكل المعايير والموازين التى تعرفها البيئة ، وتقوم على أساس منها المعرفة بمن يصلحون ومن لا يصلحون لوظائف الرسلين من الناس .

ونستطيع أن نعرض عليك المعايير التي إستند إليها الناس في ذلك الوقت في رفض نبوة ورسالة محمد بن عبد الله عليه السلام .

* * *

فأولاً : — كان هناك الرأي الذاهب إلى أن رسول الله إلى الناس لا يمكن أن يكون من البشر ، وإنما هو روح خفية أو هو ملك من الملائكة .
وهذا الرأي واضح تماماً في عديد من الآيات القرآنية . في تلك الآيات التي تجادل في هذا الرأي ، وتكشف للناس ما فيه من ضلال .
والآيات القرآنية التالية ، وأقوال المفسرين الدائرة حولها ، هي التي تكشف لنا عن هذا الرأي وعن تزييفه في وقت واحد .
جاء في القرآن الكريم : « وما قدرُوا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء ؟ » .

وجاء فيه أيضاً هذه الآيات :

بشيء . قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى للناس ،
« وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ »

« وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحي إليهم ، فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لاتعلمون . وما جعلناهم جسداً لآيأ كلون الطعام وما كانوا خالدين » .
« ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » .
ويقول الرازي مفسراً للآية القرآنية : وما أرسلنا قبلك ...

« أقول : الظاهر أن هذه الشبهة وهي قولهم الله أعلى وأجل من أن يكون رسوله واحداً من البشر إنما تمسك بها كفار مكة .

ثم إنهم كانوا مقرين بأن اليهود والنصارى أصحاب العلوم والكتب ، فأمرهم الله بأن يرجعوا في هذه المسألة إلى اليهود والنصارى ليبين لهم ضعف هذه الشبهة وسقوطها ، فإن اليهودى أو النصرانى لا بد لهما من تزيف هذه الشبهة وبيان سقوطها »

وواضح من رأى الرازى أنه يريد أن يقول : إن هذه الشبهة بمعزل عن أن تكون أثراً من آثار اليهودية والنصرانية في الجزيرة ، وأن أهل الذكر من اليهود والنصارى لا يستطيعون التسليم بها .

والشهرستانى هو الذى يكشف لنا عن المصدر الذى تسرب منه هذا رأى إلى الجزيرة .

يقول عند حديثه عن أصحاب الروحانيات ما يلى : -

« ومذهب هؤلاء أن للعالم صانعاً ، فاطراً ، حكماً ، مقدساً عن سمات الحدثنان . والواجب علينا معرفة العجز عن الوصول إلى جلاله ، وإعما يتقرب إليه بالتوسطات المقربين إليه وهم الروحانيون .

قالوا : والأنبياء أمثالنا في النوع ، وأشكالنا في الصورة يشاركوننا في المادة : يأكلون مما نأكل ويشربون مما نشرب ويساهموننا في الصورة : أناس بشر مثلنا . فنأين لنا طاعتهم ؛ وبأية مزية لهم لزم متابعتهم .

ولئن أطلعتم بشراً مثلكم إنكم إذا لخاصرون « مقابلتهم هذا رأى فيما يرى الشهرستانى رأى الصائبة ، وتسرب إلى الجزيرة عن طريق فارس ، واعتمد عليه مشركوا مكة في أمر محمد بن عبدالله ، ومن هنا كان رفضهم له وعدم التسليم بأنه رسول الله إليهم .

* * *

ثانياً : - رأى الذهاب إلى أن رسول الله إلى الناس يكون من البشر ولكن يلزم بأن يكون مؤيداً من الله بخارق للعادة : أى بمعجزة . وهذا رأى توضحه الآيات القرآنية التالية : -

« وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم ، تشابهت قلوبهم ، قد بينا الآيات لقوم يوقنون . »

« وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعاً ؛ أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً ، أو يكون لك بيت من زخرف ، أو ترقى في السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه . »

قل : سبحان ربي ، هل كنت إلا بشراً رسولا ؟
« هل ينظرون إلا أن يأتيهم الله في ظلل من الغمام ، والملائكة ، وقضى الأمر وإلى الله ترجع الأمور . »

« يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا : أرنا الله جهرة .. »

وهذا الرأي أثر من آثار اليهودية في الجزيرة العربية ، والآية الأخيرة واضحة في أن الذين يسألونه هذه الآيات هم من نسل الذين سألوا موسى من قبل مثل ذلك ، أو أكثر من ذلك .

والمعجزات أو الخوارق التي قص القرآن الكريم أخبارها إنما جرت في الغالب على أيدي أنبياء بني إسرائيل ..

والعرب من أهل الجزيرة إنما يصنعون صنيع بني إسرائيل حين يطالبون النبي العربي بمثل هذه الخوارق أو المعجزات . والقرآن نفسه هو الذي يشير إلى هذه الحقيقة في الآية القرآنية الكريمة :

« وقال الذين لا يعلمون : لولا يكلمنا الله ، أو تأتينا آية . كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم . »

وتمسك المسلمون ، ولا يزالون يتمسكون ، بالمعجزات على أنها الدليل على صدق النبي — وإن طعن بعض المسلمين في قوة هذا الدليل .

والرازي ، المفسر المشهور ، موقف يوضحه عند تفسيره للآية القرآنية الكريمة :
« وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً ، أو من وراء حجاب ، أو يرسل
رسولاً فيوحى بإذنه ما يشاء ، إنه على حكيم » .

يقول الرازي :

« المسألة السادسة :

« ثبت أن الوحي من الله تعالى إما ألا يكون بواسطة شخص آخر ، وإما
أن يكون بواسطة شخص آخر .

ويعتنع أن يكون كل وحى حاصلاً بواسطة شخص آخر - وإلا لزم : إما
التسلسل ، وإما الدور ، وهما محالان .

فلا بد من الاعتراف بحصول وحى بلا واسطة .

ثم ها هنا أبحاث :

الأول : - أن الشخص الأول الذي سمع وحى الله لا بواسطة شخص آخر ،
كيف عرف أن الكلام الذي سمعه كلام الله ؟

فإن قلنا إنه سمع تلك الصفة القديمة المنزهة عن كونها حرفاً وصوتاً ، لم يبعد أنه
إذا سمعها علم بالضرورة كونها كلام الله تعالى ، ولم يبعد أن يقال إنه يحتاج بعد ذلك
إلى دليل زائد .

أما إن قلنا إن المسموع هو الحرف والصوت امتنع أن يقطع يكونه كلاماً لله
تعالى - إلا إذا ظهرت دلالة على أن ذلك المسموع هو كلام الله .

الثاني : - أن الرسول إذا سمعه من الملك ، كيف يعرف أن ذلك المبلغ ملك
معصوم ، لا شيطان مضل ؟

والحق أنه لا يمكنه القطع بذلك إلا بناء على معجزة تدل على أن ذلك المبلغ ملك
معصوم ، لا شيطان خبيث .

وعلى هذا ، فالوحي من الله تعالى لا يتم إلا بثلاث مراتب في ظهور المعجزات .

المرتبة الأولى : - أن الملك إذا سمع ذلك الكلام من الله تعالى فلا بد له من معجزة تدل على أن ذلك الكلام كلام الله تعالى .
المرتبة الثانية : - أن ذلك الملك إذا وصل إلى الرسول ، لا بد له أيضاً من معجزة .
والمرتبة الثالثة : - أن ذلك الرسول إذا أوصله إلى الأمة ، فلا بد له أيضاً من معجزة .

ثبت أن التكليف لا يتوجه على الخلق إلا بعد وقوع ثلاث مراتب في المعجزات ..
انتهى كلام الرازي .

أما القرآن نفسه فيدل على أن الإيمان بالرسول وبما يدعون إليه من عقائد ومبادئ لا يتوقف أبداً على المعجزات .
إن المسألة في القرآن مسألة الاستعداد النفسي والتسدر العقلية - وليست مسألة معجزات .

إن التصديق قد يتم بدون معجزة ، وقد لا يتم حتى ولو كانت هناك مجموعة من الخوارق أو المعجزات .

والآيات القرآنية التالية واضحة الدلالة على ذلك .

يقول الله تعالى : « ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ، ولكن أكثرهم يجهلون » .

يقول الله تعالى : « ولقد آتينا موسى الكتاب ، وقفينا من بعده بالرسول ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس » .

أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ؟ ففريقاً كذبتم وفريقاً تقتلون » .

يقول الله تعالى : « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها ، أفهم يؤمنون ؟ » .

ويعلق الطبري على هذه الآية بقوله :

« يقول تعالى ذكره : ما آمن قبل هؤلاء الكاذبين محمداً من مشركي قومه ، الذين قالوا : فلئاننا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله ، من أهل قرية عذبناهم بالهلاك في الدنيا إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة أنهم يؤمنون .

يقول : أفهؤلاء المكذبون محمداً ، السائلوه الآية ، يؤمنون به أن جاءتهم آية ، ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية التي أهلكناها » .

ثالثاً : - الرأي الذاهب إلى أن الرسول لا بد أن يكون من بني إسرائيل ، وأن يكون مصدقاً للتوراة .

والقرآن الكريم يصرح بأن هذا الرأي رأى أهل الكتاب . وهذه بعض الآيات التي تشير إلى هدم الحقيقة .

« ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً . أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكاً عظيماً » .

« يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعل لكم نوراً تمشون به . وينفر لكم ، والله غفور رحيم . لئلا يعلم أهل الكتاب ألا يقدرون على شيء من فضل الله وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

« ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم ، وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا ، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به ، فلعنة الله على الكافرين » .
وللرازي في تفسيره للآيات ٢٨ ، ٢٩ من سورة الحديد قول نرى من الخير إirاده في هذا المقام .

يقول : « فاعلم أنه لا بد هنا من تقديم مقدمة وهي : أن أهل الكتاب ، وهم

بنو إسرائيل ، كانوا يقولون الوحي والرسالة فينا، والكتاب والشرع ليس إلا لنا ، والله تعالى خصنا بهذه الفضيلة العظيمة من بين جميع العالمين .
إذا عرفت هذا فنقول : أنه تعالى لما أمر أهل الكتاب بالإيمان بمحمد عليه الصلاة والسلام ووعدهم بالأجر العظيم على ذلك الإيمان ، أتبعه بهذه الآية .

والغرض منها أن يزيل عن قلوبهم اعتقادهم بأن النبوة مختصة بهم ، وغير حاصلة إلا في قومهم ، فقال : إنما بلغنا في هذا البيان ، وأطبنا في الموعد والوعيد ليعلم أهل الكتاب أنهم لا يقدرون على تخصيص فضل الله بقوم معينين ، ولا يمكنهم حصر الرسالة والنبوة في قوم مخصوصين ، وأن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء ولا اعتراض عليه في ذلك أصلاً .

ويقول إسرائيل ولفنسون في كتابه تاريخ اليهود في بلاد العرب ما يلي :
« كان يهود يثرب يتشوقون لرؤية الرجل الذي ينشر دعوة دينية تتفق في جوهرها مع عقائدهم ، وكانوا يعتقدون أن ظهور رجل ، ليس من بني إسرائيل ، يدعو إلى توحيد الله وإلى تعاليم التوراة وإلى تمجيد إبراهيم وموسى ، إنما هو ظاهرة غريبة في التاريخ البشري » .

« إن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء يزعزعها عن دينها ، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل » .

* * *

رابعاً : - الرأي الذاهب إلى أن الرسول يكون من البشر - ولكن يجب أن يكون عظيماً ، ذا ثراء ، وذا جاه ...
وهذا الرأي توضحه الآيات القرآنية التالية : -

« وقالوا : ما لهذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق ؟

لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذراً .

أو يلقى إليه كنز .

أو تكون له جنة يأكل منها ..

وقال الظالمون : إن تتبعون إلا رجلاً مسحوراً .

أنظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوها فلا يستطيعون سبيلاً . تبارك الذي إن شاء جعل لك خيراً من ذلك جنات تجري من تحتها الأنهار ، ويجعل لك قصوراً .
« وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم . أ هم يقتسمون رحمة ربك ؟ »

نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خيراً مما يجمعون .
ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجلنا من ي كفر بالرحمن لبيوتهم سققاً من فضة ، ومعارج عليها يظهرون ، وليبتوتهم أبواباً ، وسرراً عليها يتكئون ، وزخرفاً .
وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا ، والآخرة عند ربك للمتقين .

ويشرح الرازي هذا الرأي فيقول : —

« أعلم أن هذا هو الرأي الرابع من كفر ياتهم التي حكاه الله عنهم في هذه السورة .
وهؤلاء المساكين قالوا : منصب الرسالة منصب شريف فلا يليق إلا برجل شريف .

وقد صدقوا في ذلك . إلا أنهم ضموا إليه مقدمة فاسدة وهي : أن الرجل الشريف هو الذي يكون كثير المال والجاه ، ومحمد ليس كذلك فلا تليق رسالة الله به .
وإنما يليق هذا المنصب لرجل عظيم الجاه كثير المال ، في إحدى القريتين : مكة والطائف .

وهم لم ينظروا هذه النظرة لنبي الإسلام وحده ، بل نظروها إلى المؤمنين أيضاً .
قال الله تعالى مصوراً موقفهم : « وإذا تولى عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للذين آمنوا : أي الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ؟ »
وأعتقد أن هذا الرأي في تقويم الناس على أساس من الثروة والجاه هو الذي

جرى عليه العمل قديماً ، ويجرى عليه العمل حديثاً حتى لسكانه الفطرة البشرية التي فطر الله الناس عليها .

إن تقويم الناس حسب الدور الاجتماعى الذين يقومون به فى الحياة ، والمهام التى يؤدونها ، نظرية حديثة لم يكن الناس يعرفونها فيما مضى ، ولا تزال الأمم المتخلفة بعيدة عن أن تؤمن بها حتى اليوم .

* * *

كانت هذه القيم أو هذه الآراء الدينية السائدة فى البيئـة المربية عند البعثة النبوية، من العقبات التى قامت فى سبيل الإعتراف بأحقية محمد بن عبد الله فى أن يكون نبياً رسولا .

ومن هنا نعود إلى القول الذى بدأنا به هذه الفقرة من أن محمد بن عبد الله لم تكن له أبداً يد فى خلق هذه المشكلة .

٣

لقد وقع عليه الإختيار ليصبح نبياً رسولاً ، وكلف بحمل الأمانة وتأدية الرسالة من غير أن يستشار أو يؤخذ رأيه في ذلك . لقد أصبح رسولاً على الرغم منه . .

ونجاء إختياره على أساس مغاير تماماً لما كانت تعرفه البيئة من أسس ، أو من معايير وموازين . ومن هنا كان الإنكار له ، وكانت المعارضة لما يدعو إليه من آراء ومعتقدات . . .

والأساس الذى قام عليه الإختيار ، يسير في فهمه ، خطير فيما ترتب عليه من آثار — لا في الحياة العربية فحسب ، وإنما في الحياة الإنسانية بكاملها ، هو يسير في فهمه لأنه يجعل حق إختيار الأنبياء والرسل لله وحده . لا يشركه في هذا الحق شريك ، ولا ينازعه فيه منازع . والآيات القرآنية الواردة في ذلك كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات البينات .

يقول الله تعالى : « الله يضطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس » .

ويقول : « ينزل الملائكة بالروح من أمره على من يشاء من عباده أن أنذروا أن لا إله إلا أنا .. » .

ويقول : « بثسما إشتروا به أنفسهم : أن يكفروا بما أنزل الله بغيا أن ينزل الله من فضله على من يشاء من عباده .. » .

ويقول : « وما كان الله ليطالعكم على النيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء . فأمنوا بالله ورسله . وإن تؤمنوا وتتقوا فلکم أجر عظيم » .

وهو خطير فيما ترتب عليه من آثار من حيث أنه : —

أولاً : — أن جعل هذا الحق لله ، ويبد الله ، يمنح الناس جميعاً الفرصة في أن يكونوا أنبياء ومرسلين . ويجعل طاقاتهم وقدراتهم الأساس الأول في الاختيار — وليس النوع والجنس ، أو الطبقة وما أشبه ...
ومساواة الناس جميعاً في هذا الحق ليس إلا الشعار الذى نادى به ونسميه تكافؤ الفرص في مجتمعاتنا المعاصرة .

وكون المولى سبحانه هو الذى يستخدم الحق في الاختيار يشير إلى تحقق قيم كثيرة في الاختيار . فالنبي الرسول إنما يختار على أساس من العدل ، ويختار على أساس من الكفاية في العمل ، والقدرة على تحمل المسئولية ، وما إلى ذلك من شروط ومواصفات تقف عليها عند حديثنا عن الوظيفة التى حددها القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله عليه السلام .

ثانياً : — أنه أبطل كل هذه المعايير السابقة ، وعمل على دحضها بالمنطق والحجة ، لا بسلطان القوة أو القانون .

فإن يكون النبي ملكاً من الملائكة ، وليس رجلاً من الرجال . أو أن يكون النبي روحاً خفية وليس واحداً من الناس ، قد دحضه القرآن الكريم في الكثير من الآيات . ومن ذلك : —

قوله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ »

قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكاً رسولا « .

وقوله : « ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون » ...

إذ الواضح من هذه الآيات أن القرآن الكريم يقرر قاعدة أو سنة إجتماعية هي أن القائد الروحي أو الزعيم الشعبي لا بد من أن يكون من جلس ونوع الذين يقودهم ، أو الذين يحمل إليهم رسالة السماء .

فلو كان في الأرض ملائكة لكان الرسول إليهم من الملائكة ليكونوا على معرفة به وبخصائصه ، فيأتسون إليه . ويقبلون منه ما يدعوهم إليه ، لأنه لو كان غريباً عنهم وعليهم لفروا منه ، وعارضوه .

ولو أنزل الله للناس ملكاً لعله في صورة من صور البشر من حيث أن بقاءه في صورته الملائكية يضر الدعوة أكثر مما يفيدها ، لأنه سيكون غريباً عليهم وعنهم . ولو أرسله ملكاً في صورة إنسان لالتبس عليهم الأمر إذ كيف يعرفون أنه ملك من ملائكة السماء ، وكيف يؤمنون برسالته وهو في صورته البشرية ماداموا ينكرون أن يكون الرسول بشراً يأكل مما يأكلون منه ويشرب مما يشربون .

« ما هذا إلا بشر مثلكم يأكل مما تأكلون منه ، ويشرب مما تشربون .
ولئن أطعتم بشراً مثلكم إنكم إذا تخلصون »

القرآن يضي على أن الرسول لابد من أن يكون من جنس ونوع المرسل إليهم ، ولا يمكن أن يكون ملكاً من الملائكة إلا إذا كان المرسل إليهم من الملائكة .

أما حين يكون المرسل إليهم من البشر ، فلا بد من أن يكون واحداً منهم . وهذه القاعدة أو السنة الإجماعية قد حررت البشر به من سلطان الأرواح الخفية ، وردت الناس إلى الإقتداء بالناس ، والإستماع إليهم .

ثالثاً : — أنه أبطل أن يكون الرسل من قوم بأعيانهم كبنى إسرائيل مثلاً ، وجعل هذا الحق مشاهداً للناس أجمعين وللأمم جميعاً .

والآيات القرآنية في ذلك كثيرة ، ونشير من بينها إلى ما يلي :-

يقول الله تعالى : « ولكل أمة رسول ، فإذا جاء رسولهم قضى بينهم بالقسط وهم لا يظلمون »

ويقول : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت » .

ويقول: « ثم أرسلنا رسلنا قترا كلما جاء أمة رسولها كذبوه ، فأتبعنا بعضهم بعضا ، وجعلناهم أحاديث » .

ويقول! « إنا أرسلناك بالحق بشير ونذيراً ، وإن من أمة إلا خلا فيها نذير » .

وكان معنى ذلك إبطال هذه الدعوة التي يدعيها اليهود من أنهم شعب الله المختار ، وأن النبوة قاصرة عليهم ومحصورة فيهم لأنهم ، أبناء الله وأحباءه .

كما كان فيها إبطال للتمييز العنصري من حيث أن كل أمة قد جاءها نذير ، وأن ذلك لم يكن خاصاً بعنصر بعينه هم بنو إسرائيل .

وإلى جانب ذلك كله قرر القرآن حقيقة واضحة هي أن موقف بني إسرائيل من نبوة إنسان من الأمة العربية قد صدر عن الحسد لا أكثر ، ولا أقل .

يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين أوتوا نصيباً من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً . أولئك الذين لعنهم الله ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً . أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً .

أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة ، وآتيناهم ملكاً عظيماً ... »

ويقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً : حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق ... »

رابعاً : — أنه لم يجعل الإيمان بالرسول نتيجة حتمية لإظهار معجزة على يديه ، أو لحيثه بأمر خارق للعادة .. وإنما جعل ذلك منوطاً بقدرة ما يدعو إليه على تحقيق الخير العام ...

لقد كانوا يطلبون إلى النبي عليه السلام أن يأتيهم بمعجزة من المعجزات ، أو بأمر من الأمور التي تكون دائماً فوق طاقة الإنسان العادي ، فكان يجيبهم بأنه

إنسان ، وأن ليست له طاقة تبلغ ما لم تبلغه طاقة الإنسان العادي الذي يرويه كل يوم في حياتهم اليومية .

يقول الله تعالى : « وقالوا : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيراً . أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلاً . أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقى في السماء — ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه .

قل : سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ؟ وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا : أبعث الله بشراً رسولا ؟ ... »

ويقول : « وقالوا : لولا أنزل عليه آية من ربه . قل : إنما الآيات عند الله ، وإنما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ...
ويذهب القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك فيوضح لنا ناموساً نفسياً هاماً هو أن الإيمان ، أو القناعة العقلية والإطمئنان النفسي ، لا يتوقفان أبداً على المعجزات والخوارق للعادات وإنما لذلك شأن آخر ...
إن المعجزات قد تستخدم للتخويف ، والذي ينتج عن التخويف هو الإستسلام حتى لا يكون هناك أذى — وليس القناعة والاقتناع .
والآيات في ذلك كثيرة أيضاً ، ونشير من بينها إلى هذه الآيات القرآنية الكريمة .

يقول الله تعالى : « وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون ، وآتينا نمود الناقة مبصرة فظلموا بها . وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً ... ! »

ويقول : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لنن جاءتهم آية ليؤمنن بها .
 قل : إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون .
 ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون .
 ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل شيء قبلا .
 ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله — ولكن أكثرهم يجهلون » .
 ويلحق صاحب تفسير المنار على هذه الآيات فيقول :
 « بين الله سبحانه : أن مقترحي الآيات السكونية على الرسول صلى الله عليه وسلم أفسموا بالله مجتهدين في إيمانهم مؤكدين قائلين : لنن جاءتنا آية لنؤمنن بها وبما تدل عليه من صدق الرسول في دعوى الرسالة ، وما جاء به عن الله تعالى .
 وأن المؤمنين كانوا يودون إجابة اقتراحهم ، ويظنون أنها تفضى إلى إيمانهم .
 فبين الله تعالى لهم خطأ ظنهم بقوله : وما يشعركم أنها إذا جاءت . . . الخ .
 تنى عنهم الشعور بسنته تعالى فيهم وفي أمثالهم من المعاندين ، وما يكون من شأنهم إذا رأوا آية تدل على خلاف ما يعتقدون وما يهوون وهي أنهم ينظرون إليها وهنكرون فيها بقصد الجحود والإنكار . . .
 وبعد بيان سنته تعالى فيهم عند مجيء الآية المقترحة صرح بما هو أبلغ من ذلك فقال : ولو أننا نزلنا . . . الخ .
 أى ما كان من شأنهم ولا مقتضى استعدادهم أن يؤمنوا . . .
 ولكن أكثرهم يجهلون سنن الله تعالى في عباده وانطباقها على الأفراد والجماعات . . .
 وليست الآيات بملزمة ولا مغيرة لطباع البشر في إختيار ما ترجع عند كل منهم بحسب نظره فيها وفي غيرها . . .
 ويلحق الطبري على آية : « ما آمنت قبلهم من قرية أهلكناها أنهم يؤمنون ؟ » بقوله : —

« يقول تعالى ذكره ما آمن قبل هؤلاء المكذبين محمداً من مشركي قومه، الذين قالوا فليأتنا محمد بآية كما جاءت به الرسل قبله من أهل قرية عند نبأهم بالهلاك في الدنيا إذ جاءهم رسولنا إليهم بآية معجزة . .
 أفهم يؤمنون ؟ أفهؤلاء المكذبون محمداً ، السائلوه الآية ، يؤمنون به أن جاءتهم آية ولم تؤمن قبلهم أسلافهم من الأمم الخالية . »
 إن المعجزات لا يمكن أن تدفع إلى التصديق، وقد تدفع إلى غيره، تدفع إلى هلاك الأمم كما سبق أن فرحنا ، وتدفع إلى هلاك الأنبياء والرسل كما توضح هذه الآية : —

« ولقد آتينا موسى الكتاب، وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس .
 أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم .
 ففريقا كذبتم .
 وفريقا تقتلون . . »

للعلاقة إذن بين الآية المعجزة والتصديق بالرسول والدعوة التي يدعو إليها الرسول .
 وتقرير هذه القاعدة قد حرر البشرية من حقيقة نفسية تقعد بالإنسان عن مركز القيادة حتى يأتي بما لا يستطيع أن يأتي به الإنسان العادي .
 « وما أنا إلا بشر مثلكم يوحى إلي » هي القاعدة القرآنية .
 فالرسول إلى الناس بشر منهم ، ولا يفضلهم إلا بما يدعو إليه من آراء ومعتقدات . .

* * *

على أن القرآن الكريم بعد جهاده في سبيل تحرير العقل البشري من أدوات التقويم التي كان الناس في المهد الجاهلي يقومون بها الرسل والأنبياء . بعد أن
 (م ٤ — محمد)

حررهم من ذلك ، أعلن فيهم حقيقة أخرى تعتبر بحق الأساس القوي المتين في تحرير الإنسان من كل ما يحول بينه وبين القيادة الروحية أو الزعامة الشعبية . .
لقد تقرر أن حق إختيار الرسل والأنبياء لله وحده ، لا يشاركه في ذلك شريك ، ولا ينازعه فيه منازع .

وتقرر أيضا أن هذا الحق لن يستخدم بعد إختيار محمد عليه السلام . ذلك لأن محمدا هو خاتم النبيين وآخر المرسلين .

لن يبعث الله نبيا بعد محمد ، ولن يرسل الله رسولا لأى شعب بعد هذه الرسالة التى بدأت بالشعب العربى وانتهت بأنها رسالة عالمية للناس كافة . .

لكن ليس معنى هذا أن لن تكون بعد وفاة محمد عليه السلام قيادة روحية وزعامة شعبية للناس . .

ليس معنى هذا أن منصب القيادة قد ألغى ، وأن الناس يستطيعون ممارسة الحياة بدون قائد .

إن معناه أن هذا الحق الذى كان بيد الله قد إنتقل إلى الشعب . وأن الناس هم الذين يختارون القادة فيما بعد . .

والذى يؤكد هذه الحقيقة أن القرآن الكريم الذى أعلن ختم النبوة ونهاية الرسالة لم يضع نظاما لمن يخلف النبي عليه السلام ويصبح أحد الخلفاء الراشدين .
والنبي عليه السلام لم يضع مثل هذا النظام .

ولا يمكن الذهاب إلى أن النسيان أو الإهمال كان السبب فى ذلك ، فحاشاه سبحانه وتعالى من أن ينسى أو يهمل أمرا خطيرا كهذا .

لقد أهمله سبحانه عمدا ليكون حقا من حقوق الناس يمارسونه على الوجه الذى يرون ويرتضوه . .

ولقد جاءت ممارسة الصحابة رضوان الله عليهم لهذا الحق مؤكدة هذه الحقيقة . .

قصة إختيار أبي بكر خليفة جاءت نتيجة ظروف معينة أهمها ، ممن يكون الخليفة .. أيكون من الأنصار أم من المهاجرين ؟

ولقد حسم عمر الموقف حين بايع أبا بكر .

وقصة إختيار عمر خليفة للمسلمين جاءت على أساس مغاير لإختيار أبي بكر لأن الظروف غير الظروف ، ولأن التجربة السابقة قد ألهمت أبا بكر حلا معيناً هو أن يختار بنفسه خليفة المسلمين حتى يجنب المسلمين ذلك الصراع الذي نشب بين المهاجرين والأنصار بعد وفاة النبي عليه السلام .

وقصة إختيار عثمان تختلف عن القصتين السابقتين . فقد حصر عمر الخلافة في ستة نفر وزك للمسلمين إختيار من يرونه أهلاً لذلك من بين هؤلاء الستة .

أما على فقد جاء بعد مقتل عثمان، وببيعة من جماعة من المسلمين ، وبطريقة مغايرة لكل طريقة من الطرق السابقة .

لم يتفق الصحابة على صيغة معينة لإختيار الخلفاء ، وإنما تركوا المسألة للظروف وهذه الظروف كان من بينها إزاحة بعض الخلفاء عن مراكزهم بالقوة . فالخليفة الأول هو الذي نجا من القتل ، أما الثلاثة الباقون فكان نصيبهم القتل في ظروف مختلفة ولأسباب مختلفة .

لقد أصبح الإختيار بعد محمد عليه السلام حقاً من حقوق الناس حقاً تنازل عنه الله للناس .

ولم يضع محمد عليه السلام لذلك نظاماً حتى لا يلتزم الناس بالنظام الذي وضعه محمد ، ويتخذونه ديناً . .

أما الصحابة فكانوا ناساً من الناس ، واختاروا من الصيغ ما يلائم أوضاعهم وظروفهم . .

ونحن اليوم نمارس هذا الحق ؛ ونمارسه في الصيغة التي نرى أنها أفضل الصيغ بالنسبة لظروفنا وأحوالنا . .

— ٥٢ —

لقد حررنا القرآن الكريم ، وحررنا الرسول الصادق الأمين ، وحررنا عمل
الصحابة رضوان الله عليهم ، من التزام صيغة بعينها يمكن أن تسمى بالصيغة الدينيه.

• وهذا هو الفرق بين المسيحيين والمسلمين

• ففي المسيحية دولة دينية يختار رئيسها من بين رجال الدين

• وفي الإسلام دولة مدنية يختار رئيسها من بين المدنيين ويطلب إليه تطبيق
أحكام الدين

• والصيغة التي يتم إختياره عليها متروكة أمرها للمسلمين

٤

ومما زاد من حدة هذه المشكلة ، وجعل الصراع الفكرى فيها يبدو قاسياً وعنيفاً ، والحوار الجدلى من حولها يدور ساخناً وملتهباً ، أن الوحى القدى كان ينزل من السماء على محمد بن عبد الله عليه السلام لم يكتف بهذه الآيات البينات التى تدور حول مشكلة النبوة والرسالة وإنما تجاوزها إلى ما هو أبعد منها أترأ فى مجالات الصراع الفكرى والحوار الجدلى .

لم يكتف القرآن الكريم بتحطيم الأدوات التى يعتمد عليها الناس فى تقييم الأنبياء والمرسلين ، وإنما عمل فى الوقت ذاته على القضاء على النفوذ والسلطان اللذين تملكهما القيادات المدنية والقيادات الدينية فى المجتمع العربى بصفة عامة وفى المجتمع المكي بصفة خاصة .

وهذا الصنيع من القرآن الكريم هو الذى زاد من أبعاد هذه المشكلة ودفع بها إلى مجال الخصومات التى تبدو شخصية ، من بعض الأطراف ، فى القوى المتصارعة .

وأرى أنه من الخير لنا فى هذا المقام أن نستعرض سويًا موقف القرآن الكريم من النفوذ والسلطان اللذين كانت تملكهما هذه القيادات .
ونبدأ بموقف القرآن الكريم من القيادات المدنية .

كانت هذه القيادات تستمد سلطانها من القوة التى تملكها ، وكانت هذه القوة تلعب من مصدين معروفين هما : كثرة الأموال وكثرة الأولاد .
وكانت هذه القوة تمكن لهذه القيادات من المجتمع وتكسيها كثرة كاثرة من الأتباع .

ونزل القرآن الكريم ليحط من شأن هذه القوة ، وليبين للناس أن القوة

لا تصلح أبداً لأن تكون قيمة إجتماعية أو سياسية يمارس الناس الحياة على أساس منها . . .

وأسلوب القرآن في هذا الموقف ، ووسيلته إلى تحقيق أهدافه من الخط من شأن القوة ، يعضى على الأساس التالى :

أولاً : نسبية القوة .

إن القوة التى لا تقهر هى قوة الله وحده ، أما ما عداها من القوى فهى قابلة للقهر وللتلبة . ومن هنا يحرص الناس على إمتلاك أسباب القوة الأكبر ، والأشد ، والأقوى .

هذا الحرص من الناس ليس فى محله لأن القوة فى حد ذاتها ليست الهدف الأفضل ، وإنما الهدف الأكل والأفضل هو العمل الصالح — العمل الذى يصلح به حال الفرد ، ويصلح به حال المجتمع ، ويحقق الخير العام .

وثانياً : زوال القوة .

فالقوة البشرية مهما يكن شأنها لا تثبت ولا تدوم ، وهى منتهية حتماً إلى زوال .

قد يطول أمر القوة بعض الشيء ، وقد يزهو بها أصحابها ويتفخخرون ، ولكنها منتهية حتماً إلى ضعف وزوال .

وثالثاً : فتنها للناس .

فالقوة قد تدفع إلى الطغيان ، وقد تصرف الناس عن سبيل الخير وتدفع بهم إلى سبيل الشر والفكر والبلاء .

إن المعدل مع القوة فى خطر من حيث أنهما لا يتعايشان إلا فى القليل النادر . . .

وإن الظلم مع القوة فى قرن لأنهما لا يفترقان إلا فى القليل النادر ، وعند من ترتفع قيمة المبادئ عندهم إلى الحد الذى يضحون فيه بمصالحهم الشخصية .

ورابعاً : لأنها لا قيمة لها عند الله .

فالله العادل القوى العزيز لا يعبأ بالقوة التي يملكها الأقوياء ، ولا تزن عنده جناح بعوضة .

إن العدل هو الذى يسود يوم الحساب . يوم نضع الموازين القسط للناس فلا تظلم نفس شيئاً .

وفى ضوء هذا الذى ذكرنا نقرأ سوياً هذه الآيات البيّنات التى استقينها منها كل ما سبق من وصف لوسيلة القرآن فى الخط من شأن القوة ، ومن شأن أسباب القوة من كثرة الأموال وكثرة الأولاد .

لنقرأ سوياً هذه الأقسام التى تصور التجربة الإنسانية للقوة فى عصور مختلفة سبقت عصر محمد عليه السلام .

يقول الله تعالى : « فأما عاد فاستكبروا فى الأرض بنير الحق ، وقالوا : من أشد منا قوة ؟ »

أو لم يروا أن الله الذى خلقهم هو أشد منهم قوة . . . »

ويقول : « أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم . . . »

كانوا أكثر منهم ، وأشد قوة وآثارا فى الأرض ، فما أغنى عنهم ما كانوا يكسبون . . . »

ويقول : « وكأين من قرية — هى أشد قوة من قريتك التى أخرجتك — أهلكتناهم ، فلا ناصر لهم . . . »

إنها واضحة الدلالة فى أن القوة نسبية ، وفى أن القوة ليست دائمة — أى ليست أبدية أو أزلية .

ولنقرأ سوياً هذه الآيات التى وردت فى شأن حرص الناس على أسباب القوة

من كثرة للأموال وكثرة للأولاد ، وكيف أن هذا الحرص ليس في محله ، وأنه قد يوردهم مورد التهلكة .

يقول الله تعالى : « المال والبنون زينة الحياة الدنيا .

والباقيات الصالحات خير عند ربك ثواباً وخير أملاً . . . »

ويقول : « اعلّموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو ، وزينة وتفاخر بينكم ، وتكاثر في الأموال والأولاد .

كمثل غيث أعجب الكفار نباته ، ثم يهيج فتراه مصفراً ، ثم يكون حطاماً . . . »

ونذكر نحن من الآيتين أن القرآن الكريم لا يرى الناية التي ليست بعدها غاية في تملك أسباب القوة من كثرة للأموال وكثرة للأولاد ، وإنما يراها في الباقيات الصالحات . .

إن الأعمال التي يصلح بها حال الفرد ، وتصلح بها حال الجماعة ، هي عند الله خير ثواباً ، وهي عند الله وعند الناس خير أملاً . . .

أما الأموال والأولاد فشأنهما شأن ذلك النبات الذي أعجب به الكفار والذي هاج ثم اصفر ثم صار حطاماً .

والذي نذكره من هذه الآيات هو الذي يشرح لنا الأسباب التي من أجلها كانت هذه التوجيهات الواردة فيما يلي من آيات :

يقول الله تعالى : « واعلموا أنما أموالكم ، وأولادكم فتنة ، وأن الله عنده أجر عظيم . . . »

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ، ولا أولادكم ، عن ذكر الله .

ومن يفعل ذلك فأولئك هم الخاسرون . »

ويقول مخاطباً النبي عليه السلام : « فلا تمجيبك أموالهم ولا أولادهم ،

إنما يريد الله ليعذبهم بها في الحياة الدنيا ، وترحق أنفسهم وهم كفرون .
ويصف المؤمنين فيقول : « رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله .. »
ويصف المشركين والمنافقين فيقول : « وإذا رأوا تجارة أو لهوا انفضوا إليها
وتركوك قائماً . . »

ويقول على لسانهم : « شغلنا أموالنا وأهلونا » .

جاء في تفسير المنار عند توضيح معنى الفتنة في الأموال وفي الأولاد ما يلي :
« وقتنة الأموال والأولاد عظيمة لا تحفى على ذى فهم — إلا أن الأفهام تتفاوت
في وجوها وطرقها . . »

فأموال الإنسان عليها مدار معيشتة ، وتحصيل رغائبه وشهواته ، ودفع كثير
من المكروه عنه . .

إنه يتكلف في كسبها المشاق ويركب الصعاب ...

ويكلفه الشرع فيها التزام الحلال واجتناب الحرام ، ويرغبه في القصد
والاعتدال ...

وهذا أصل عظيم في تربية المؤمن نفسه على التزام الحق ، وكسب الحلال
واجتناب الحرام ، واتقاء الطمع والدناءة في سبيل جمع المال ، والإدخار ،
للأولاد ... »

ويعضى القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من كل ذلك أثراً في حياة هذه
القيادات المدنية ...

إن أسباب القوة لن تغنى شيئاً عند الله ، ولا يكسب أصحابها أى امتياز في
الحياة الآخرة — يوم يقوم الناس ليروا أعمالهم ...

إن الفضل والامتياز في الحياة الآخرة إنما يكون بالإيمان والعمل . الإيمان
بالله الواحد الأحد ، والعمل في سبيل الصالح العام وتحقيق الخير للناس .

يقول الله تعالى : « وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعزيين .. »

قل : إن ربى ييسط الرزق لمن يشاء ، ولكن أكثر الناس
لا يعلمون

وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى — إلا من آمن وعمل
صالحا .

فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا

أما الازدياد فى حدة المشكلة ، والعنف فى الصراع الفكرى ، والسخونة فى
الحوار الجدلى ، فتمثل لها بالآيات التالية :

يقول الله تعالى : « ويل لكل همزة لمزة ، الذى جمع مالا وعدده ، يحسب
أن ماله أخذه .

كلا : لينبذن فى الحطمة ، وما أدراك ما الحطمة ، نار الله الموقدة

ويقول : « ذرنى ومن خلقت وحيداً ، وجعلت له مالا ممدوداً ، وبين شهوداً
ومهدت له تمهيداً ، ثم يطمع أن أزيده .

كلا : إنه كان لآياتنا عنيداً . سأرهقه صعوداً

ويقول : « أن كان ذا مال وبنين إذا تتلى عليه آياتنا . قال : أساطير الأولين .
سدسه على الخراطوم . »

ويقول : تبّت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى
ناراً ذات لهب . وامراته حمالة الحطب . فى جيدها حبل من مسد

* * *

وننتقل الآن إلى القيادات الدينية .

وتتملك هذه القيادات من السلطان أكثر مما تتملك القيادات المدنية ،

وذلك لأن سلطان الدين في المهود القديمة والعصور النابرة لا يدانيه أى سلطان آخر •

وينبع هذا السلطان من مصادر عديدة أهمها من وجهة نظرنا ثلاثة •
المصدر الأول : إيمان الناس فى ذلك الوقت بأن القيادات الدينية قادرة بذاتها على معرفة للغيب ، وأنها بهذه القدرة تقدم خدمات جليلة للناس ، من حيث أنها قادرة على اخبارهم بغيبيهم ، وبالمقدر لهم ، وبالمكروه قبل أن ينزل بهم •
ويترتب على ذلك أنها الوسيلة إلى الله ، وتطالب الناس بالقربات التى يتقربون بها إلى الله ليكشف عنهم الضرر ، ويزيل عنهم المكروه •

المصدر الثانى : إيمان الناس فى ذلك الوقت بأن للقيادات الدينية منزلة خاصة عند الله • منزلة تجعل من حقهم الاستشفاع عند الله للناس ، ومن حقهم على الله قبول شفاعتهم •

وكان الناس — وبخاصة الخطاة والعصاة — يرون فى ذلك مصلحة لهم من حيث أن هذا الإستشفاع ينجيهم من العذاب فى الدنيا وفى الآخرة •

أما المصدر الثالث والأخير — وهو الأهم من وجهة نظرنا — هو أنهم قادرون على توجيه حياة الناس فى كل صغيرة وكبيرة باعتبارهم قيادات دينية •

لقد كانت قيادات ذاك الزمان تملك حق التحليل وحق التحريم ، وكان الناس يستجيبون لها بدون مجادلة فى حلال أو فى حرام • إن عليهم أن يسمعوا وأن يطيعوا •

وعمل القرآن الكريم على القضاء على هذه الحقوق منذ اللحظات الأولى ، وحدد القرآن الكريم الوسيلة إلى التعرف على النيب بحيث تصبح كل وسيلة غيرها غير صحيحة • وحدد القرآن الكريم مواطن الشفاعة والأشخاص الذين يشفعون أو يشفع لهم بحيث يعتبر كل ما عداها باطل الأباطيل ، وأسقط

القرآن الكريم كل حق للقيادات الدينية في التحليل أو في التحريم ، وجعل ذلك حقاً لله وحده . لا ينازعه فيه منازع ، ولا يشاركه فيه شريك .
ونرى من الأوفق أن نستعرض سوياً موقف القرآن الكريم من كل مصدر من مصادر هذه القوة .

ونتجه أول ما نتجه إلى موقفه من مسألة علم الغيب .
لقد كان العرب في الجاهلية يعتقدون أن الأرواح الخفية — الجن والشياطين — تستطيع الصعود إلى السماء والإطلاع على الغيب ، وأنها حين تنزل من السماء تخبر القيادات الدينية بهذا الغيب الذي يخبر به هذه القيادات الناس .

وكانت هذه العقيدة سبباً قوياً من الأسباب التي دفعت بالعرب إلى إنكار نبوة النبي عليه السلام ، ذلك لأنهم اتهموه بأنه على صلة بهذه الأرواح الخفية ، وأنها التي تنزل عليه بما يتلوه عليهم من آيات .

وحارب القرآن هذه العقيدة — لا دفاعاً عن النبي عليه السلام فحسب ، وإنما لأن معرفة الغيب في ذاتها من الأمور التي لا تكون إلا لله ، فهو وحده الذي يعرف الغيب ، وهو وحده القادر على أن يخبر بالغيب من يراه أهلاً لذلك .

والآيات التي يحارب فيها القرآن هذه العقيدة ، ويدافع في الوقت ذاته عن محمد عليه السلام عديده ، ونقف منها عند هذه الآيات البينات .

يقول الله تعالى على لسان هذه الأرواح الخفية — الجن — : «وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً ، وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً »

ويقول دفاعاً عن القرآن الكريم : « وما تنزلت به الشياطين ، وما ينبغي لهم وما يستطيعون . إنهم عن السمع لمعزولون » .

ويقول : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب ، وحفظاً من كل شيطان

مارد . لا يسمعون إلى الملائكة الأعلى ، ويقذفون من كل جانب دحوراً ، ولهم عذاب واصب . »

أما الآيات التي يثبت فيها القرآن الكريم أن علم الغيب وقف على الله تعالى ، وعلى من يرتضيه الله تعالى ليعلم الغيب ويعلمه الناس ، فكثيرة هي الأخرى . ونقف منها عند هذه الآيات :

يقول الله تعالى : « قل : لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله . »
ويقول : « وعنده مفاتيح الغيب لا يعلمها إلا هو . »

ويقول : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول »
ويقول : « ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب ، وما كان الله ليطلعكم على الغيب ، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء . »

وكان محمد عليه السلام يتلو على الناس من الآيات ما يقطع بأنه لا يعرف الغيب إلا بالقدر الذي يعلمه الله به ، ويطلع عليه .

يقول الله تعالى معرفاً محمداً عليه السلام بما يجب أن يقوله للناس
« قل : لا أقول لكم عندي خزائن الله ، ولا أعلم الغيب ، ولا أقول إني ملك .
إن اتبع إلا ما يوحى إليّ ... »

« قل : لا أملك لنفسي نفعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب
لا استكثر من الخير وما مسني السوء — إن أنا إلا نذير مبين . »

جاء في تفسير المنار .

الغيب قسمان : —

غيب حقيقي مطلق ، وهو ما غاب عنه عن جميع الخلق حتى الملائكة . وفيه
يقول الله عز وجل : « قل لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله . »
وغيب إضافي ، وهو ما غاب عنه عن بعض المخلوقات دون بعض ، كالذي
يعلمه الملائكة من أمر عالمهم وغيره ، ولا يعلمه البشر مثلاً .

وأما ما يعلمه بعض البشر بتمكينهم من أسبابه ، واستعمالهم لها ، ولا يعلمه غيرهم لجهلهم بتلك الأسباب أو عجزهم عن استعمالها ، فلا يدخل في عمومه معنى الغيب الوارد في كتاب الله .

وهذه الأسباب :

منها ما هو علمي : كالدلائل العقلية والعلمية . فإن بعض العلماء في الرياضيات وغيرها يستخرجون من دقائق المجهولات ما يعجز عنه أكثر الناس ، ويضبطون ما يقع من الخسوف والكسوف بالدقائق والثواني قبل وقوعه بالآلاف من الأعوام . ومنها ما هو عملي : كالتلغراف اللاسلكي الذي يعلم به الإنسان ما يقع في البلاد الأخرى .

ومنها ما قد يصل إلى حد العلم من الإدراكات النفسية الخفية كالفراسة والإلهام . وجاء فيه أيضاً : —

ولكن علم الغيب من موضوع الرسالة . فإن أصل موضوعها رؤية الملائكة ، والتلقى عنهم . وذلك من عالم الغيب الذي أمرنا بالإيمان به — اتباعاً للرسول الذي رأى بعينه وسمع بأذنه ، ووعى بقلبه .

وقد أثبت سبحانه وتعالى علم الغيب المتعلق بالرسالة للرسول عليهم السلام . قال تعالى في آخر سورة الجن : « عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول . »

فكيف أمر رسوله أن يتنصل من ادعاء علم الغيب ؟

تقول : —

أولاً : — أن ما يظهر الله عليه الرسل هو الغيب الإضافي — لا الحقيقي المطلق الذي لم يؤت أحداً من خلقه الاستعداد له .

ثانياً : — إن إظهاره تعالى إياهم على شيء خاص من هذا النيب لا يجعل ذلك داخلًا في علومهم الكسبية .

إن الوحي ضرب من العلم الضروري يجده النبي في نفسه عندما يظهره تعالى عليه ، فإذا حبس عنه لم يكن له قدرة ولا وسيلة كسبية إليه ..
إن الرسل عليهم السلام لم يعطوا علم الغيب بحيث يكون إدراكه من علومهم الكسبية .

أما موقف القرآن من الشفاعة والشفعاء فنتركه إلى الفصل التالي الخاص بمشكلة التوحيد من حيث أن ظاهرة الشفاعة مرتبطة إلى حد كبير بتعدد الآلهة ، وبالشرك .

إن من الآلهة عند المشركين نوما يعتبر الوسيلة إلى الله ويملك حق الشفاعة . وإن من الأنبياء عند أهل الكتاب من يملك حق الشفاعة ، ومن يستطيع إنقاذ الأهل والعشيرة من سوء المصير ومن العذاب .
وكل ذلك مما يتصل بفكرة التوحيد الخالص ، وبفكرة التعدد ، وبفكرة الأمرة الآلهية ووجود أبناء وبنات لله .

هذه الاعتبارات هي التي جعلتنا نؤثر جعل الحديث عن الشفاعة والشفعاء في الفصل الخاص بمشكلة التوحيد — وهو الفصل التالي إن شاء الله .

* * *

أما موقف القرآن الكريم من حق التحليل والتحريم فيمكن أن نستعرضه سوياً على الوجه التالي : —

يشير القرآن الكريم في بعض الآيات إلى أن المشركين كانوا يعترفون بحق التحليل والتحريم للشركاء ، ولأن يقوم على خدمة الشركاء من السدنة ، والكهنة ، ومن إليهم .

ويشير القرآن أيضاً إلى أن أهل الكتاب كانوا يعترفون بهذا الحق لرجال الدين عندهم من الأحبار والرهبان ومن إليهم .
والذي يترتب على الاعتراف بهذه الحقوق هو أن كلا من المشركين وأهل

الكتاب يقومون بتنفيذ الأوامر والنواهي التي توجه إليهم من هذه السلطات والإلعدوا من الخارجين على أوامر الدين ونواهيهم .

ووقف القرآن الكريم من هذه المسألة موقف المنكر لها ، وموقف المؤكد لأن هذا الحق ليس إلا لله وحده .

يقول الله تعالى في شأن المشركين : — « أم لهم شركاء شرعوا لهم من الدين ما لم يأذن به الله »

ويقول : « قد خسر الذين قتلوا أولادهم سفها بغير علم ، وحرموا ما رزقهم الله افتراء على الله »

ويقول : « وكذلك زين لكثير من المشركين قتل أولادهم شركاؤهم — ليردوهم ، وليلبسوا عليهم دينهم »

ويقول : « وإذا فعلوا فاحشة قالوا وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها . قل إن الله لا يأمر بالفسخ . أتقولون على الله مالا تعلمون »

ويقول الله تعالى في شأن أهل الكتاب : — « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله »

والأكثر من المفسرين يقولون : ليس المراد من الأرباب أنهم اعتقدوا أنهم آلهة العالم ، بل المراد أنهم أطاعوهم في أوامرهم ونواهيهم .

نقل أن عدى بن حاتم كان نصرانيا فأنهى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ سورة براءة ، فوصل إلى هذه الآية .

قال : فقلت لسنا نعبدهم .

فقال : أليس يحرمون ما أحل الله فتحرمونه ؟ ويستحلون ما حرم الله . فتستحلونه ؟

قلت : بلى

قال : فتلك عبادتهم .

وقال الربيع : قلت لأبي العالية كيف كانت تلك الربوبية في بني إسرائيل ؟
فقال : أنهم ربما وجدوا في كتاب الله ما يخالف أقوال الأخبار والرهبان
فكانوا يأخذون بأقوالهم .

أما الآيات التي تنكر على الشركاء ، وعلى الأخبار والرهبان ، هذا الحق وتثبته
لله وحده فكثيرة . ونكتفي هنا ببعض الآيات .

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام ، ومعاتباً إياه في الوقت ذاته : « يا أيها
النبي لم تحرم ما أحل الله لك »

ويقول الله تعالى في توجيه النبي عليه السلام إلى الحديث عن قضايا التحريم :
« قل : تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم »

ويقول : « قل : لا أجد فيما أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن
يكون ... »

وهذا النوعان من آيات يشعران بما لا يدع مجالاً للشك أن حق التحليل
والتحريم ليس إلا لله وحده ، وأنه لا يثبت للنبي من الأنبياء ... »

وهناك نوع ثالث من الآيات القرآنية يطلب إلى المسلمين ألا يستجيبوا في
التحليل والتحريم إلا لما نزل من عند الله ، وأن يمتنعوا عن الاستجابة لما هو من
عند غير الله لأنه في الحقيقة ليس إلا الإفتراء على الله .

يقول الله تعالى : « إتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ، ولا تتبعوا من دونه
أولياء »

ويقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ،
ولا تعتدوا ، إن الله لا يحب المعتدين »

ويقول : « قل إما أنزل الله لكم من رزق فجعلتم منه حراماً وحلالاً ، قل :
آله أذن لكم أم على الله تفترون ؟ »

ويقول : « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب : هذا حلال وهذا حرام ،
لتفتروا على الله الكذب ... »

ويلقى صاحب المنار على الآية الأولى من هذه الآيات بقوله : —

« والمتبادر هنا من النهى عن إتباع الأولياء من دونه تعالى هو : النهى عن طاعة أحد من الخلق في أمر الدين غير ما أنزله من وحيه ، كما فعل أهل الكتاب في طاعة أحبارهم ورهبانهم فيما أحلوا لهم وزادوا على الوحي من العبادات ، وما حرموا عليهم من المباحثات . . »

وكل من أطاع أحداً إطاعة دينية في حكم شرعى لم ينزله ربه إليه فقد اتخذ ربا ...

والآية نص في عدم جواز طاعة أحد من العلماء ، ولا الأمراء ، في اجتهاده في أمور العقائد ، والعبادات ، والحلال والحرام تديناً ...

وعن القرمزى أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : — الحلال ما أحل الله في كتابه . والحرام ما حرم الله في كتابه . وما سكت عنه فهو مما عفا عنه . »

* * *

هذه المسائل وكثير غيرها ، هي التي زادت من حدة هذه المشكلة وجعلت الصراع من حولها يبدو قاسياً عنيفاً .

ولعله أن يكون من الخير لهذا الكتاب ولقارائه أن ننهي هذا الفصل بهذه الفقرة الهامة من تفسير المنار .

جاء في ص ٢١٩ من الجزء الحادى عشر تحت عنوان « بيان ما جهل البشر من أمر النبوة والرسالة ووظائف الرسل » ما يلى :

كانت العرب تنكر الوحي والرسالة الا أفراداً من بقايا الحنفاء في الحجاز وغيره ، ومن دخل في اليهودية والنصرانية لمجاورته لأهلها ، وقليل ما هم .

وكانت شبهة مشركي العرب وغيرهم على الوحي استبعاد اختصاص الله تعالى بعض البشر بهذا التفضيل على سائرهم ، وهم متساوون في الصفات البشرية بزعمهم .
ويقرب منهم اليهود الذين أنكروا أن يختص الله تعالى بهذه الرحمة والمِنَّة من يشاء من عباده ، وأوجبوا عليه أن يحصر النبوة في شعب إسرائيل وحده — كأن بقية للبشر ليسوا من عباده الذين يستحقون من رحمته وفضله ما أعطاه اليهود من هداية النبوة .

على أنهم وصفوا الأنبياء بالكذب والخداع والاحتيال على الله .
ووافقهم النصارى على حصر النبوة فيهم ، وأثبتوا قداسة غير الأنبياء من رسل المسيح عليه السلام وغيرهم ...

واتخذ كل من الفريقين أحبارهم ورهائنهم أرباباً من دون الله تعالى ، بأن نحلوهم حق التشريع الديني من : وضع العبادات ، والتحليل ، والتحرير .
وكل ذلك من الكفر بالله وإنكار عدله ، وعموم رحمته وفضله . ومن مفسدات نوع الإنسان ، وجعل السواد الأعظم منه مستعبداً لأفراد من أبناء جنسه .

أبطل الله تعالى كل ذلك بما أنزله من كتابه على خاتم النبيين ، وأثبت بعثة الرسل والمندرين لجميع شعوبه .

فقال تعالى : « ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن أعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت . فمنهم من هدى الله ، ومنهم من حقت عليه الضلالة » .

وقال : « إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً . وإن من أمة إلا خلا فيها نذير »
وكرم الإنسان يجعل التشريع الديني من حقوق الله وحده . وإنما النبيون والرسل مبلغون عنه ، وليسوا بمسيطرين على الأقوام ، وطاعتهم تابعة لطاعته .
لقد أبطل ما يحلهم الناس من ربوبية التشريع .

كما أبطل عبادتهم وعبادة من دونهم من القديسين .
وبذلك تحرر الإنسان من الرق الروحي والعقلي الذي منيت به الأمم .

المشكلة الثانية التوحيد

١

كانت مشكلته الثانية أنه يدعو الناس إلى إله واحد ، ويقول لهم ، إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد .
وكان يتلو عليهم ما ينزل عليه به الوحي من آيات تقرر الوجدانية وترفض التعدد والشرك .

كان يتلو عليهم الآيات القرآنية التالية ، وأمثالها : —
« قل : هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد » .

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم .
هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون .
هو الله الخالق البارئ المصور ، له الأسماء الحسنى ، يسبح له ما السموات والأرض ، وهو العزيز الحكيم » .

« وجعلوا لله شركاء الجن ، وخلقهم ، وخرقوا له بدين وبنات بغير علم —
سبحانه وتعالى عما يصفون . بديع السموات والأرض أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبه ، وخلق كل شيء وهو بكل شيء عليم .

ذلكم الله ربكم لا إله إلا هو ، خالق كل شيء فاعبدوه ، وهو على كل شيء وكيل .

لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » .
إن هذا هو القصص الحق ، وما من إله إلا الله ، وإن الله لهو العزيز الحكيم » .

كانت هذه الآيات وأمثالها مما تدعو إلى التوحيد الخالص تثير ثائرة المشركين ، أولئك الذين يؤمنون بالتعدد ، ويرون في القضاء عليه كارثة يجب أن تدفع قبل أن تسفحل .

ويسجل القرآن عليهم كثيراً من الاتفعالات التي كانت تلم بهم حين يسمعون هذه الآيات الكريمة التي تدعو إلى التوحيد الخالص الذي لا تشوبه أية شائبة من شرك أو تعدد .

جاء في القرآن الكريم على لسانهم : —

« قالوا : أجبثنا لنعبد الله وحده ، ونذر ما كان يعبد آباؤنا . . » .

وجاء : « أجعل الآلهة إليها واحداً ؟ إن هذا الشيء عجاب . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة ، إن هذا إلا اختلاق » .

وجاء فيه أيضاً تصوير لحالتهم الذهنية ، وحالتهم النفسية ، حين يسمعون آيات التوحيد ما يلي : —

« وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

« وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أدبارهم نفوراً » .

« ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتهم ، وإن يشرك به تؤمنوا » .

ومضى القرآن إلى ما هو أبعد من الدعوة إلى التوحيد ، ذلك لأنه تناول معبوداتهم بالحديث ، وبين لهم حقيقة أمر هذه المعبودات من أنها لا تستحق العبادة . إنها عاجزة عجزاً تاماً عن أن يكون لها أمر أى أمر في الخلق والإبداع ، وفي التدبير .

والآيات التي تظهر هذا العجز ، وتكشف أمام البصر والبصيرة حقيقة
أمر هذه المعبودات كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات البينات .

يقول الله تعالى : « ذلكم الله ربكم له الملك ، والذين تدعون من دونه
ما يملكونه من قطمير .

إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ، ولو سمعوا ما استجابوا لكم ، ويوم القيامة
يكفرون بشرككم ، ولا ينبئك مثل خبير . . . » .

ويقول : « قل : أرايتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله .
أروني ماذا خلقوا من الأرض ، أم لهم شرك في السموات ، أم آتيهم
كتاباً فهم على بينة منه . . . »

ويقول : « قل : ادعوا الذين زعمتم من دون الله ، لا يملكون مثقال ذرة
في السموات ولا في الأرض ، وما لهم فيهما من شرك ، وما له منهم من ظهير . . . » .
ويقول : « هذا خلق الله فأروني ماذا خلق الذين من دونه » .

وأقوى الآيات في الدلالة على عجز الآلهة التي كانوا يعبدونها هي الآية
القرآنية التالية .

يقول الله تعالى : « يا أيها الناس ، ضرب مثل فاستمعوا له :
إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له . وإن يسلبهم
الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه .

ضعف الطالب والمطلوب .

ما قدروا الله حق قدره . إن الله لقوى عزيز . . . »

ولأن هذا شأن آلهتهم ، وهو شأن منابر تماماً للخالق الباريء المصور . قال
الله فيهم ! « ذلك بأن الله هو الحق . وأن ما يدعون من دونه هو الباطل . وأن
الله هو العلي الكبير . . . »
وصدق الله العظيم .

لم يكن من شأن العربي أن يرضى بمثل هذه الأقوال التي تقال في آلهته —
ومن هنا راح يدافع عنها ، ويمادى ذلك الذي ينطق في حقها بمثل هذه الأقوال .
وأقوى الدوافع التي كانت تدفع العربي الجاهل إلى هذا الموقف المعادى للنبى
عليه السلام ، وللقرآن ، دافعان :

أولهما : — أن هذه الآيات القرآنية كانت تنحدر بآلهتهم من مواطن الغز
والفخار إلى مواطن الذل والمهانة ، وذلك أمر لا يليق أبداً بآلهتهم التي
يعبدونها .

لقد كان هؤلاء الناس يرون عزتهم وكرامتهم من عزة الآلهة وكرامتها .

إن القبيلة إنما تكون قوية لأن الإله الذي تعبده قوى وينصرها وينتصر لها .
وإن القبيلة إنما تكون ضعيفة حين يضعف إلهها عن الإنتصار لها ، أو يصبح تابعاً
لإله آخر أقوى منه وأشد .

والتنادى الذي تنادى به المشركون في غزوة أحد من قولهم حين انتصروا
أول الأمر : اعل هبل ، يدل على ذلك .

وقول المسلمين في ذلك اليوم : الله أعلى وأجل ، في سبيل الرد عليهم ،
دليل آخر .

ولم يكن من اليسير أبداً على القبائل العربية أن تضحي بالآلهة التي تعبدوها
في سبيل إله محمد من دون أن ينتصر عليها محمد .

لقد كان محمد في نظرهم داعية يدعو إلى إحداث تغييرات جذرية في معتقداتهم
الدينية المبنية على التعدد — وذلك أمر يرفضونه ويصرون على البقاء على معتقداتهم
ويدافعون عن التعدد .

وثانى الدافعين : — أن هذه الآيات القرآنية تدعو إلى إحداث تغييرات

جذرية في الكيانات الاجتماعية التي يقوم عليها أساساً النظام العشائري أو القبلي .

إن القبيلة هي الوحدة الأساسية في المجتمع الجاهلي . ولقد تعددت الكيانات الاجتماعية بتعدد الوحدات الأساسية أو تعدد القبائل .

وكانت العلاقات بين هذه الوحدات علاقة عداوة في الغالب — وهذا الذي يفسر لنا كثرة الحروب أو كثرة الوقائع والأيام في هذا المجتمع .

وكان انتصار القبائل بعضها على البعض الآخر ينتهي بما كان يسمى في عرفهم بالتبعية أو بالولاء .

ولم يكن من اليسير أبداً أن تضعي قبيلة بكيانها ، وأن تذوب قبيلة في كيان قبيلة أخرى من دون هزيمة تضعفها أو تقضي عليها .

ولقد كانت دعوة التوحيد التي جاء بها القرآن الكريم ، ودعا إليها محمد عليه السلام ، قادرة على أن تجر هذه القبائل جميعها إلى الذوبان في كيان واحد جديد — وهذا هو الأمر الذي ترفضه القبائل ، وترى فيه ذلة ومهانة .

إن الإيمان بإله واحد يؤدي حتماً إلى وحدة فكرية ، وإلى تماسك اجتماعي قوي . وهذا هو الهدف الأساسي الذي استهدفه القرآن الكريم من الدعوة إلى التوحيد .

لقد رمى القرآن الكريم إلى القضاء على :

التعدد في الألوهية .

والفرقة والانقسام في الكيانات الاجتماعية .

والقرآن الكريم هو الذي يسجل كل هذا .

يقول الله تعالى : « ص ، والقرآن ذى الذكر — بل الذين كفروا في عزة وشقاق .

وعجبوا أن جاءهم منذر منهم ، وقال الكافرون : هذا ساحر كذاب .
أجعل الآلهة إلهاً واحداً ؟
إن هذا الشيء عجاب .

وانطلق الملا منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا الشيء يراد .
ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . . . » .
ويقول الله تعالى : « واتخذوا من دون الله آلهة ليكونوا لهم عزاً .
كلا .

سيكفرون بعبادتهم ، ويكونون عليهم ضداً . . . » .
وامتن الله على العرب الذين أسلموا وتحققت لهم الوحدة ، فقال لهم :
« واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا .
واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبهم وأصبحتم بنعمته
إخواناً . . . » .

كما قال النبي عليه السلام : « إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شعيماً لست منهم
في شيء . . . » .

وحذر المسلمين من العودة إلى الفرقة والإقسام فقال : « ولا تكونوا
كالذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات .
وأولئك لهم عذاب عظيم . . . » .
وصدق الله العظيم

* * *

والذين عارضوا محمداً عليه السلام ، وناصروه العداوة ، وسلكوا كل سبيل
في دحض دعوته والتغلب عليه ، لم يكونوا ملة واحدة ، وإنما كانوا مللاً مختلفة
من حيث صيغ الوحدانية والتعدد .

والذين أُرِخ القرآن لمعتقداتهم أنواع من الناس : —

النوع الأول : — هم أولئك الذين استجابوا لدعوة الأنبياء والمرسلين ،
وآمنوا بإله واحد وأنكروا كل ماعداه .

والقرآن الكريم يصرح في كثير من الآيات بأن الأنبياء جميعاً قد آمنوا
بالتوحيد ، ودعوا إلى التوحيد .

وتاريخ الأنبياء الذي يقصه القرآن الكريم — وبخاصة ما ورد من قصص في
سورتي الأعراف وهود يشهد بذلك :

والآية القرآنية التالية نص واضح صريح في ذلك .

يقول الله تعالى مخاطباً محمداً عليه السلام : « وما أرسلنا من قبلك من رسول
إلا نوحي إليه : أنه لا إله إلا أنا فاعبدون . »

ونستطيع أن نقول إن تلك هي عقيدة الأنبياء ، فما من نبي إلا ودعا إليها .
والنوع الثاني : — هم أولئك الذين يؤمنون بالتعدد من أصحاب المعتقدات
الوثنية .

أو هم أولئك الذين يؤمنون بالتوحيد ، ولكن توحيدهم يماثل في بعض صيغة
معتقدات الوثنية .

والنوع الثالث : — أولئك الذين لا يؤمنون بالله على الإطلاق . وهم الذين
يعرفون في كتب الملل والنحل بالمعطلة .

ويذكر الشهرستاني في كتابه الملل والنحل أنهم أصناف عديدة .

وهؤلاء هم الذين يتحدث عنهم القرآن الكريم فيقول : « وقالوا : ما هي إلا
حياتنا الدنيا نموت ونحيا . وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم ، إن هم إلا
يفلنون »

والنوع الثانى من هذه الأنواع الثلاثة هو الذى يهمنأ أكثر من غيره فى هذا المقام .

والشرك أو التعدد عند هذا النوع الثانى له صور عديدة تذكر من بينها : -
أولاً : - الصورة التى يكون فيها لله أنداد .

والند فى اللغة هو المشارك فى الجوهر . فنديد الشئ مشاركة فى جوهره -
وذلك ضرب من الماثلة فيما يذكر الراغب الأصفهاني فى كتابه « الغريب فى مفردات القرآن » .

ويرى بعض المفسرين وبعض اللغويين أن اللفظ يقتضى إلى جانب معنى الماثلة معنى المخالفة - وذلك لأن الند والأنداد إنما تجبىء من الندود ، وهو المخالفة .
فالشركون الذين يجعلون لله أنداداً إنما يعتبرون أندادهم أكفاء مماثلين لله ، ومناظرين له .

وإستخدام الكلمة فى القرآن يشعر بهذا .

يقول الله تعالى : « وجعلوا الله أنداداً ليضلوا عن سبيله .. »

ويقول : « ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله ، والذين آمنوا أشد حبا لله .. »

وفى القرآن الكريم صورة حوار يجرى يوم القيامة بين المستضعفين والمستكبرين يدل على هذه الحقيقة .

يقول الله تعالى : « وقال الذين كفروا : لن تؤمن بهذا القرآن ، ولا بالذى بين يديه .

ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول .

يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا : لولا أنتم لكنا مؤمنين .

قال الذين استكبروا للذين استضعفوا : أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم . بل كنتم مجرمين .

وقال الذين استضعفوا : للذين استكبروا : بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً .. »

كما تدل على هذه الحقيقة الآية القرآنية التالية :

يقول الله تعالى : « قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين ، وتجعلون له أنداداً . ذلك رب العالمين .. »

والعلاقة بين الأنداد في الآيات القرآنية ليست علاقة ود وإنما يحتمل اللفظ فيها معنى المخالفة أيضاً .

والآيات القرآنية التي يشير فيها القرآن إلى فساد معنى التعدد توحي بذلك . يقول الله تعالى : « قل لو كان معه آلهة كما يقولون إذا لا بتغوا إلى ذي العرش سبيلاً »

ويقول : « لو كان فيها آلهة إلا الله لفسدنا .. »

ويقول : « ما اتخذ الله من ولد ، وما كان معه من إله إذا لذهب كل إله بما خلق ، ولعلا بعضهم على بعض . سبحانه الله عما يصفون .. »

ويلحق الطبري على هذه الآية الأخيرة بقوله : يقول لا عزل كل إله منهم بما خلق من شيء فأفرد به ، ولتغالبا ، ولعلا بعضهم على بعض وغلب القوى منهم الضعيف لأن القوى لا يرضى أن يعالوه ضعيف ، والضعيف لا يصلح أن يكون إلهاً .

ويقول صاحب الكشف معلقاً على نفس الآية : « لا تفرد كل واحد من الآلهة بخلق الذي خلقه واستبد به ، ولرايتهم ملك كل واحد منهم متميزاً من ملكه ،

الآخرين ، ولقلب بعضهم بعضاً كما ترون حال ملوك الدنيا . ممالكهم مميزة وهم متغالبون .

وحين لم تروا أثراً لتمايز الممالك ، وللتغالب ، فأعلموا أنما هو إله واحد بيده ملكوت كل شيء . »

وهذا النوع من التعدد هو الذي يلائم البيئة الطبيعية والاجتماعية للبلاد العربية .
فحياة القوم حياة قبلية . ولكل قبيلة إلهها الذي تعتر به ، ويقودها إلى النصر .
والشاعر العربي يقول :

وسارت بنا يغوث إلى مردان
فناجزناهم قبل الصباح

وقصة أبي سفيان مع المسلمين يوم أحد تقرر هذه الحقيقة . فقد ظن أبوسفيان أن هبل قد اقتصر على إله محمد ، وطلب إلى القوم أن يتنادوا : أعل هبل . ورد المسلمون عليه بأن الله أعلى وأجل .

والصورة الثانية من هذا الشرك هي التي يتصور فيها المشركون آلهة صغرى وآلهة كبرى . فهناك أرباب ، وهناك رب الأرباب . وهناك الإله الأب والآلهة الأبناء والبنات .

والمشركون هنا يؤمنون بالله ، ولكنهم يؤمنون إلى جانبه بآلهة صغرى يتخذون منها الوسيلة إلى الله ، أو الشفاعة عند الله .

وهذه الآلهة الصغرى من جنس الملائكة في الغالب ، أو هي الأوثان والأصنام التي تحتلها أرواح الآلهة .

والآيات القرآنية في هذه العقيدة كثيرة جداً ، ونختار من بينها هذه الآيات .
يقول الله تعالى : « قل من يرزقكم من السماء والأرض ، أم من يملك السمع والأبصار ، ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ، ومن يدبر الأمر ، فسيقولون الله . »

قل : أفلا تتقون ؟

ويقول : « والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى . »
ويقول : « ويوم يحشرهم جميعاً ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ؟
قالوا : سبحانك أنت ولينا من دونهم ، بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم
بهم مؤمنون . . . »

ويقول : « وقالوا : اتخذ الرحمن ولداً .

سبحانه ، بل عباد مكرمون لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعلمون . يعلم ما بين
أيديهم وما خلفهم ، ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ، وهم من خشيته مشفقون .
ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم .
كذلك نجزي الظالمين . . . »

ويقول : « أفرأيتم اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى ، ألكم الذكر وله
الأنثى ؟

تلك إذا قسمة ضيرى .

إن هي إلا أسماء سميتوهما أنتم وآبأؤكم ما أنزل الله بها من سلطان . إن يتبعون
إلا الظن وماتهورى الأتس

ولقد جاءكم من ربكم الهدى ... »

ويقول : « ويعبدون من دون الله ما لا بضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء
شفعاؤنا عند الله ... »

قل : أتنبثون الله بما لا يعلم فى السموات ولا فى الأرض ، سبحانه وتعالى
عما يشركون ... »

إلى غير ذلك من أمثال هذه الآيات

ويرى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده أن هذا الآله الخالق الرازق الذى يظنه هذا الفريق من المشركين رب الأرياب ، والذى يلجأون إليه حين يغالهم المكروه أو يصيبهم الشر إنما هو إله آخر غير الإله الذى يدعو إليه محمد عليه السلام .

يقول رحمه الله تعالى عند تفسيره للآية القرآنية الكريمة : « قل : يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون ... »

ما يلى : أى أن الإله الذى تزعمون أنكم تعبدونه ليس هو الذى أعبد ، لأنكم إنما تعبدون ذلك الذى يتخذ الشفعاء ، أو الولد ، أو الذى يظهر فى شخص أو يتجلى فى صورة معينة ، أو نحو ذلك مما يزعمون . وإنما أعبد إلهاً منزهاً عن جميع ما تصفون به إلهكم »

* * *

أما الصورة الثالثة فتلك التى يذكرها القرآن الكريم على أنها التشليث . الأب ، والإبن ، وروح القدس

وتختلف هذه الصورة عن الصور السابقة فى أمرين هامين : —

أولهما : — أن عدد الآلهة هنا محصور جداً . إنه ثلاثة ينتهون إلى واحد ، حتى لكانه التوحيد . أما فى الصور السابقة فالعدد كبير إذ لكل قبيلة إله تقريباً . إله يعتبر نداً لله . ولبعض آلهة القبائل بنات هم الملائكة

ثانيهما : — أن بعض أجزاء الثلاث فى هذه الصورة يتمثل للناس بشراً سويّاً . أما الآلهة فى الصور السابقة فلا تظهر إلا فى الصورة البشرية ولا فى غيرها . إنها أرواح خفية تحل فى الأوثان والأصنام وما أشبه .

ذلك المذهب يتبين فى وضوح من الآيات التالية .

يقول الله تعالى : « يا أهل الكتاب ، لا تنلوا في دينكم ، ولا تقولوا على الله إلا الحق . إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم ، وروح منه .

فآمنوا بالله ورسوله ، ولا تقولوا ثلاثة . انتهوا خيراً لكم . إنما الله إله واحد . سبحانه أن يكون له ولد له ما في السموات وما في الأرض ، وكفى بالله وكيلاً . . . »

ويقول : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله ثالث ثلاثة ، وما من إله إلا الله . واحد . . . »

ويقول : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم قل : فمن يملك من الله شيئاً إن أراد أن يهلك المسيح بن مريم وأمه ومن في الأرض جميعاً . . . »

ويقول : « لقد كفر الذين قالوا : إن الله هو المسيح بن مريم وقال المسيح : يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ، ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . . . »

* * *

ويشير القرآن فيما يشير من مسائل التعدد إلى مسألة يعتبر فيها التعدد مجازياً ، تلك هي اتخاذ أهل الكتاب الأقباط والرهبان أرباباً من دون الله .

لقد كان مركز الأقباط والرهبان من حيث التشريع مركز من يحللون ويحرمون . أي مركز من يشرع ابتداء معتدياً في ذلك على حقوق الله التشريعية ، إذ التحليل والتحرير الديني حق من حقوق الله وحده . . .

يقول الله تعالى في هذه الصورة من صور التعدد : « قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ، ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأننا مسلمون ٠٠٠ »
ويقول : « اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ، والمسيح بن مريم ،
وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون ٠٠٠ » .

* * *

وإلى جانب ماتقدم صور خاصة بعبادة الكواكب والنجوم ، وعبادة إلهين
أحدهما للخير والثاني للشر ، وما إلى ذلك مما جاء إلى الجزيرة العربية نقلا عن الديانة
الفارسية القديمة .

وجاء محمد بما يهدم ذلك كله ويقضى عليه من الأساس . جاء يدعو الناس
إلى إله واحد ، ويجعل من المؤمنين بدعوته أمة واحدة مهما تختلف أجناسهم
ولغاتهم وأديانهم السابقة ٠٠٠

ولم يكن من السهل أبداً أن يقضى محمد على كل ذلك في حياته القصيرة
الأمدة . إن ذلك يحتاج إلى أزمان متطاولة تعد بالقرون لا بالسنوات ٠٠٠
والذين آمنوا بدعوة محمد مكلفون من بعده بالعمل من أجل تحقيق هذين
الهدفين . إيمان بالله وحده ، وأمة واحدة تدعو إلى الخير ، وتأمر بالمعروف ،
وتنهي عن المنكر .

وحين تقوم هذه الأمة التي يدعو الإسلام المسلمين إلى إقامتها يتحقق
الخير العام ، ويقضى على الفرقة والانقسام ، ويسود الأمن ، ويطمئن الناس
في معاشهم ٠٠

إنها دعوته إنسانية

وما أوحى الناس إلى تحقيق هذه الدعوة اليوم قبل الغد

« وإن هذه أمتكم أمة واحدة .

وأنا ربكم فاعبدون ٠٠٠ »

وصدق الله العظيم

٢

وهناك مشكلة أخرى ترتبط بالمشكلة السابقة ارتباطاً قوياً، وتتصل بها اتصالاً مباشراً، وتلك هي مشكلة الشفاعة .

لقد دعا القرآن الكريم الى التوحيد ، مستهدفاً بذلك القضاء على الشرك وعلى تعدد الآلهة . وفي القضاء على الشرك وعلى تعدد الآلهة قضاء على تلك الفكرة التي يؤمن بها المشركون وأهل الكتاب على حد سواء، وهي فكرة الشفاعة .

لقد كان المشركون يعتقدون أن من وظائف بعض آلهتهم الاستشفاع لهم عند الآلهة الأكبر أو عند رب الأرباب . وحين استهدف القرآن القضاء على هذه الآلهة التي تشفع، فإنه قد استهدف في الوقت ذاته القضاء على الشفاعة في حد ذاتها .

والقضاء على الشفاعة أو إحداث تغييرات جذرية في مضمونها مطلب أصيل من مطالب القرآن الكريم ، وليس ذلك إلا لأن الشفاعة في حد ذاتها أكبر خطورة على المجتمع من تعدد الآلهة .

إن خطر التعدد يكاد ينحصر في الفرقة والانقسام ومن هنا كان التوحيد هو العلاج الوحيد من حيث إن التوحيد يؤدي حتماً إلى الوحدة الفكرية وهي الأساس القوى المتين في التماسك الاجتماعي .

وإن خطر الشفاعة يمتد إلى القضاء على القيم الأصيلة لأي مجتمع من المجتمعات قيم الحق والعدل والخير العام .

إن الشفاعة إنما تعني استمرار الظلم ، واستمرار البنى والعدوان ، واستمرار السخرة واستغلال الإنسان لأخيه الإنسان .

إن خطر الشفاعة أقوى، وأشد فتكاً بالمجتمعات ، من خطر الشرك والتعدد.

وفكرة الشفاعة قد نبتت عند المشركين من قياسهم أمور الدين على أمور الدنيا .

إنهم يرون أن الإنسان العادى فى هذه الحياة الدنيا لا يحق له الاتصال المباشر بالحكام ورؤساء الدول من الملوك والباطرة ، وإنما يتصل عن طريق فريق من الناس يعتبره الوسيلة أو الوسيلة لهؤلاء .

وإنهم ليرون نفس الرأى فى الدين ، فليس من حق أحدهم الاتصال المباشر بالله وإنما لابد من الاعتماد فى ذلك على الآلهة الصغرى ، أو على الملائكة ، أو على المقربين من الأولياء ورجال الدين .

وتثبت فكرة الشفاعة عند أهل الكتاب من أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأن الله لن يعذب أبناءه وأحباؤه ، وأنه يقبل منهم الفدية والعدل ، ويقبل فيهم شفاعة الأنبياء والقديسين .

واستهدف القرآن الكريم منذ اللحظات الأولى إحداث تغييرات جذرية فى هذا الذى يراه المشركون وأهل الكتاب من أمر الشفاعة . وموقف القرآن الكريم فى ذلك واضح كل الوضوح . فالشفاعة لله وحده ، ولا يملكها كائن غيره مهما يكن أمره :

يقول الله تعالى : « الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما فى ستة أيام ، ثم استوى على العرش ، ما لكم من دونه من ولى ولا شفيع ... »

ويقول : « أم آخذوا من دون الله شفعاء قل أو لو كانوا لا يملكون شيئاً ولا يعقلون . قل : لله الشفاعة جميعاً ، له ملك السموات والأرض ثم إليه ترجعون ... »

والله الذى يملك الشفاعة قد يأذن بها لمن يشاء . يأذن فى الاستشفاع عنده بشروط تتوفر فى المشفوع لهم .

وهؤلاء الذين يأذن الله لهم في الاستشفاع للناس عنده هم فيما يظهر من الآيات
القرآنية من الملائكة .

يقول الله تعالى : « لا يملكون الشفاعة إلا من أخذ عند الرحمن عهداً .

ويقول : « يومئذ لا تنفع الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضى له قولاً »

ويقول : « وقالوا اتخذ الرحمن ولداً . سبحانه ، بل عباد مكرمون ، لا يسبقونه
بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى ،
وهم من خشيته مشفقون . . »

ويقول : « من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه . . »

والقرآن ينص على أن هناك من لا تقبل الشفاعة فيهم على الإطلاق ، وذلك
هم الكفرة والظالمون .

يقول الله تعالى : « وكنا نكذب بيوم الدين حتى أتانا اليقين . فما تنفعهم
شفاعة الشافعين . . »

ويقول : « وأنذرهم يوم الآزفة إذ القلوب لدى الحناجر كاظمين ، مالم الظالمين من
جيم ولا شفيع يطاع . . »

وحتى غير الكفرة وغير الظالمين لا تقبل فيه الشفاعة إلا بإذن من الله
سبحانه وتعالى .

يقول الله تعالى : « وكم من ملك في السموات لا تنفع شفاعتهم شيئاً إلا من
بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى ، » .

والشفاعة في صيغتها هذه لا تعارض تحقيق العدالة أبداً . فالعدالة لا بد من أن
تتحقق — وهذا هو الذى تنص عليه الآيات القرآنية التى يخاطب بها المولى سبحانه
وتعالى كلا من بنى إسرائيل ، والذين آمنوا .

يقول الله تعالى : « يا بني اسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأني فضلتكم على العالمين .

واتقوا يوما لا تجزي نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعة . . »

ويقول : — « يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتي يوم لا بيع فيه ، ولا خلة ، ولا شفاعة . . »

إن الشفاعاة التي تناهى العدالة إنما هي تلك التي كان يتصورها المشركون ويتصورها أهل الكتاب ، وهي الشفاعاة التي تنجى من العذاب مها تكن الذنوب والآثام .

جاء في ص ٥٤٥ وما بعدها من الجزء السابع من تفسير المنار ما يلي : —

وأما قاعدة وثنية العرب وغيرهم فهي : اتخاذ أولياء من العباد يزعمون أنهم وسطاء بين الله وبين عباده في شئون الخلق والإيجاد ، والإشقاء والإسعاد ، . .

قياسا على ما يعبدون عن الأقربين والمقربين عند الملوك المستبدين .
فهم لذلك يدعونهم مع الله ، أو من دون الله .

« ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . . »

وقد هدم القرآن جميع قواعد مشركي العرب وغيرهم من الوثنيين وأهل الكتاب الذين جعلوا مدار السعادة والنجاة على شفاعاة أنبيائهم وأوليائهم — لا على اتباعهم في العمل والإيمان وفضل الله تعالى .

ولما كان إبراهيم عليه السلام أعلى البشر مقاما في أنفس العرب ، ومقامه الأعلى في الرسل عند أهل الكتاب مقامه ، كثر الله تعالى في كتابه ذكر كرم والده ، واجتهاده هو في هوايته ، وعنايته بالاستغفار له . وأن ذلك كله لم يفده شيئا . .

ليعلم الناس أن مدار النجاة في الآخرة على الإيمان الصحيح المستلزم للعمل بما جاء به الرسل — لا بأشخاص الرسل وتأثيرهم الشخصي عند الله كتأثير الأفرين والمقربين عند الملوك المستبدين . إذ يحملونهم بالشفاعة أو الإقناع على عفو عن مذنب ، أو إحسان إلى غير مستحق .

وهذه هي نظرية الوثنيين في الشفاعة التي نفاها القرآن المجيد .
وأثبت القرآن الكريم أن الشفاعة لله جميعا ، ولا يشفع عنده أحد إلا من بعد إذنه للشافع ورضاه عن المشفوع له . . . »

* * *

ومن الواضح عند الجميع أن هذه الأوثان التي لا تملك من أمر نفسها شيئا . والتي لا تستطيع أن تنفع أو تضر ، تملك حقا مثل حق الشفاعة ، وتستطيع به أن تستشفع للظلمة والخطيئة فيقبل الله شفاعتها ، ويعفو عن هؤلاء وينجيهم من العذاب .

إن في هذا إزهاقا للحق ، وتقويضا للعدل ، وحاشا للمولى سبحانه أن يستجيب لمثل هذه الأوهام .

المشكلة الثالثة

البعث ثم الحساب

أو

حتمية العدالة

١

أما المشكلة الثالثة فتدور حول حتمية العدالة ، أو حول ذلك اليوم الذى يبعث فيه الناس من قبورهم للمجازاة على أعمالهم — وهو اليوم الذى يعرف بيوم البعث أو يوم الحساب .

وارتباط العدالة بيوم الحساب ظاهرة واضحة تماماً فى الآيات القرآنية الكريمة ، ذلك لأن هذا اليوم هو اليوم الذى يحاسب فيه الناس على ما قاموا به من أعمال — فمن كان عمله للصالح العام أئيب وأدخل الجنة ، ومن كان عمله سيئاً وضاراً بالمجتمع ، وبالصالح العام ، عوقب وأدخل النار .

يقول الله تعالى : « إن إلينا إيابهم ، ثم إن علينا حسابهم »
ويقول : « اليوم تجزى كل نفس بما كسبت ، لا ظلم اليوم إن الله سريع الحساب » .

ويقول : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون ، وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون . ألا يظن أولئك أنهم مبعوثون ليوم عظيم . يوم يقوم الناس لرب العالمين » .

ويقول : « وترى كل أمة جاثية . كل أمة تدعى إلى كتابها ، اليوم تجزون ما كنتم تعملون »

ويقول : « وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً . اقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيباً »

ويقول : « ونفخ فى الصور فإذا هم من الأحداث إلى ربهم ينسلون . قالوا : يا ويلنا من بعثنا من مرقدنا ؟

هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون . إن كانت إلا صيحة واحدة فإذا هم

جميع لدينا محضرون . فالיום لا تظلم نفس شيئا ، ولا تجزون إلا ما كنتم تعملون » . .

وحتمية العدالة من الأمور التي أكدها القرآن الكريم ، ودعا الناس إليها في مثالية يعز تحقيقها إلا على من هم في منزلة الأنبياء والقديسين .

وهذه المثالية هي التي جعلت تحقيق العدالة في أكل صورها من اختصاص أعدل الحاكمين — وهو المولى سبحانه وتعالى — في ذلك اليوم الذي يعرف بيوم الحساب .

والآيات القرآنية التي تشير إلى حتمية العدالة كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات البينات : —

يقول الله تعالى : « ياداوود ، إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق ، ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله . إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب »

ويقول : « يأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجر منكم شتان قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون »

ويقول : « ومن خلقنا أمة يهدون بالحق وبه يعدلون »

ويقول : « إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها ، وإذا حكمتم بين الناس أن تحكموا بالعدل ، إن الله نعماء يعضكم به . إن الله كان سميعا بصيرا »

والمشكلة المتعلقة بيوم الحساب إنما تدور حول أمرين :

الأول : — أن صيغة العدالة التي تكون في يوم الحساب أو يوم الجزاء تختلف عن هذه الصيغة التي يجرى عليها العمل في هذه الحياة الدنيا — وبخاصة تلك التي كان يجرى عليها العمل في الجاهلية .

لقد كانت العدالة في هاتيك الأيام غير حتمية فقد كان هناك أصحاب الامتيازات الذين لا يقبلون المساواة في الحقوق مع غيرهم : ممن يشعرون أنهم دونهم في المستوى الطبقي .

وكان هناك إلى جانب هؤلاء من يدعون أنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنهم من أجل ذلك في مقام أعلى من مقامات بقية الناس .

وكان هناك إلى جانب هذين قوم يذهبون إلى أن عندهم من يشفع لهم عند الآلهة ، أو أنهم قادرون على دفع العدل الذي ينجيهم من طائلة العقاب .

كانت هذه الصور من الحياة موجودة في المجتمع الجاهلي ، وجاء القرآن الكريم يفضي عليها جميعها ويحل محلها هذه الصورة التي رأيناها في الآيات السابقة التي تدور حول حتمية العدل ، وحول إقامته على أساس من الحق بدون النظر إلى أى شىء آخرى .

والآيات التي تعطينا الصيغة الجديدة للعدل كثيرة ، ونختار من بينها هذه الآيات .

ويقول الله تعالى : « واتقوا يوما لا تجزى نفس عن نفس شيئا ، ولا يقبل منها عدل ، ولا تنفعها شفاعاة ، ولا هم ينصرون » .

ويقول : « يأيها الناس اتقوا ربكم واخشوا يوما لا يجزى والد عن ولده ، ولا مولود هو جاز عن والده شيئا ، إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ، ولا يفرنكم بالله الغرور . . »

ويقول : « وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه . قل : فلم يعذبكم بذنوبكم ؟

بل أنتم بشر من خلق ينفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ، والله ملك السموات والأرض وما بينهما ، وإليه المصير . . »

ويقول : « ويعبدون من دون الله مالا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون : هؤلاء شفعاؤنا عند الله »

قل : أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض ، سبحانه وتعالى عما يشركون . . »

وفي سورة إبراهيم وسورة غافر حوار يقع في الحياة الآخرة ويكشف عن العلاقة بين الأتباع الذين يظنون أن العلاقة فيما بينهم كفيلة بأن تنجي فريق المستضعفين من النار .

جاء في السورة الأولى : « وبرزوا لله جميعا

فقال الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟

قالوا : لو هدانا الله لهديناكم . سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص .

وقال الشيطان لما قضى الأمر : إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتموني من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم »

وجاء في السورة الثانية : « وإذا يتحاجون في النار

فيقول الضعفاء للذين استكبروا : إنا كنا لكم تبعاً فهل أنتم مغنون عنا نصيباً من النار . . . »

قال الذين استكبروا : إنا كل فيها ، إن الله قد حكم بين العباد .

وقال الذين في النار لحزنة جهنم : ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب قالوا : أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات ؟

قالوا : بلى

قالوا : فادعوا . وما دعاء الكافرين إلا في ضلال . . .

إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم . . .

* * *

الأمر الثانى إمكانية البعث . ذلك لأن المعاصرين للنبي عليه السلام كانوا لا يتصورون إعادة الحياة مرة ثانية إلى الموتى . فهم ينكرون عملية البعث في ذاتها — فضلا عن حتمية العدالة والصينة التي تمارس بها قيمة العدالة .

والمعاصرون للنبي عليه السلام لم يكونوا على رأى واحد في هذه المسألة ، وإنما كانت لهم آراء مختلفة نشير إليها فيما يلي :

أولا : الذين ينكرون البعث إنكاراً تاماً .

وهؤلاء تقف على مذهبهم من الآيات التالية :

قال الله تعالى : « ق والقرآن المجيد ، بل عجبوا أن جاءهم منذر منهم ، فقال الكافرون : هذا شيء عجيب ، أئذا متنا وكنا ترابا ذلك رجع بعيد ؟ » .

وقال : « وقال الذين كفروا : أئذا كنا ترابا وآبأؤنا أننا لخرجون ؟ لقد وعدنا هذا نحن وآبأؤنا من قبل إن هذا إلا أساطير الأولين » .

وقال : « وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل ينبشكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لفي خلق جديد ؟ » .

افترى على الله كذباً أم به جنة ؟

بل الذين لا يؤمنون بالآخرة في العذاب والضلال البعيد .

وقال : « إن هؤلاء ليقولون : إن هي إلا موتتنا الأولى وما نحن بمنشرين . فأتوا بآبائنا إن كنتم صادقين . . »

وقال : « وقالوا : ما هي إلا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا إلا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون : . .
وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجّتهم إلا أن قالوا : ائتوا بآبائنا إن كنتم صادقين ...

قل : الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » .

وقال : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لا يبعث الله من يموت . بل وعداً عليه حقاً ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » . . .

وقال : « وقالوا : أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقاً جديداً ؟
قل : كونوا حجارة أو حديداً أو خلقاً مما يكبر في صدوركم ، فسيقولون : من يبعثنا ؟ .

قل : الذي فطركم أول مرة فسينفضون إليك رؤوسهم ويقولون : من هو ؟ .
قل : « عسى أن يكون قريباً » .

ثانياً : الذين يتشككون في البعث ويحارون في أمره .
وهؤلاء تقف على وجهة نظرهم من الآيات القرآنية التالية :
قال الله تعالى : « وإذا قيل إن وعد الله حق والساعة لا ريب فيها ، قلتم : ما ندرى ما الساعة ؟ .

إن نظن إلا ظناً وما نحن بمستيقنين » .
وقال : « زعم الذين كفروا أن لن يبعثوا . . .

قل : بل ربّي لتبعثن ثم لتلبثن بما عملتم — وذلك على الله يسير » .
وقال : قل : لا يعلم من في السموات والأرض الغيب إلا الله ، وما يشعرون

أيان يبعثون . بل إدارك علمهم في الآخرة ، بل هم في شك منها ، بل هم منها عمون » .

قال : « ألا إنهم في مرية من لقاء ربهم ، ألا إنه بكل شيء محيط » .

ثالثاً : — الذين يؤمنون بالحياة الآخرة وبالبعث .

وهؤلاء هم الذين يعتقدون في الشفاعات ، وهم أصحاب الامتيازات الطبقية ممن أشرنا إليهم سابقاً . .

ويضاف إليهم أولئك الذين تمثلهم الآيات القرآنية التالية : —

قال الله تعالى : « وقالوا : لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى — تلك أمانتهم .

قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . . . » .

قال : « قل : إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر آل سنة ، وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون . . . » .

وقال : « وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودة .

قل : اتخذتم عند الله عهداً أم تقولون الله ما لا تعلمون . بلى من كسب سيئة وأحاطت به خطيئته فأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون . . . » .

وقال : « ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ماخولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم وضل عنكم ما كنتم ترعمون » .

وقال : « إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون » .

لقد نبئت هذه المشكلة الثالثة من الفوضى الفكرية الدائرة حول إمكانية البعث وحول حتمية العدالة . وكان تعدد الآراء ومخالفتها لما جاء به محمد عليه السلام هو السبب المباشر في نشأة هذه المشكلة ، وهو السبب أيضاً في هذه المعارضة القوية التي نراها ممثلة في الآيات القرآنية الكريمة .

وفي كتب المفسرين آراء كثيرة حول إمكانية البعث . آراء أقرب إلى الفلسفة منها إلى أسلوب القرآن الكريم في الإقناع وتوضيح الأفكار .

وقد اعتمد القرآن الكريم على القصة في إقناع الناس بإمكانية البعث ، إلى جانب هذه النشأة الأولى التي كان يلفت إليها أذهان الناس .

وإذا كنا سنعرض لهذه المسألة مرة ثانية عند حديثنا عن الأساليب التي اعتمد عليها القرآن الكريم في إحداث التغييرات الجذرية في أفكار الناس ومعتقداتهم حول البعث فإننا نترك هذه المسألة إلى هناك .

وتبقى بعد ذلك إشارة إلى الدور الاجتماعي الذي يتمكن أن تلعبه فكرة الحياة الآخرة في أعمال الناس وفي سلوكهم .

جاء في ص ٣٦٨ وما بعدها من الجزء السابع من تفسير المنار عند حديثه عن تفسير الآية القرآنية الكريمة : « وقالوا إن هي إلا حياتنا الدنيا وما نحن بمبعوثين » ما يلي : —

إن الكفر بالبعث والجزاء ، واعتقاد أنه لا حياة بعد الحياة ، يجعل هم الكافر محصوراً في الاستمتاع بلذات الدنيا وشهواتها البدنية والنفسية كالجاء ، والرياسة ، والعلو في الأرض ولو بالباطل . . .

ومن كان كذلك يكون في اتباع هواه ولذاته الشهوانية أسفل من البهائم . وفي اتباعه لهواه في لذته الغضبية أضرى ، وأشد أذى ، من الوحوش الضارية المفترسة . . .

وفي اتباعه لهواه ولذته النفسية شراً من الشياطين يكيد بعضهم لبعض ،

ويفترس بعضهم بعضاً. لا يصدم عن باطل ولا شر يهونه إلا العجز ، ولا يرجعون إلى حكم يفصل بينهم إلا القوة التي جعلوها فوق الحق .

وطالما غشوا أنفسهم ، وقتنوا غيرهم ، في هذا الزمان بما كان من تأثير التوازن في القوى من منع كثير من البنى والعدوان، الذي كان يصول به قوى الأمم على ضعيفها ، والحكومات الجائرة على رعيتهما، فزعموا أن الحضارة المادية والعلوم والفنون البشرية ، هي التي تقيض روح الكمال على الإنسان — إذا لم يؤمن بالبعث والجزاء ولا بالإله الديان . . .

واستدلوا على ذلك بما أجمعت عليه أممهم ودولهم من ذم الحرب ، والتفاخر ببناء سياستهم على أمتن قواعد السلم . وزعموا أن الباعث لهم على ذلك حب الإنسانية ، والرغبة في العروج بجميع البشر إلى قمة السعادة المدنية .

فإن قيل : فما بالكم تسابقون إلى استذلال الأمم الضعيفة في الشرق ، وتسخرونها لمنافعكم وتوفير ثروتكم بغير حق ؟ .

قالوا : كلا ، إنما نريد أن نخرجها من ظلمات الهمجية والجهل . لتشاركنا فيما نحن فيه من نور الحضارة والعلم .

فإن قيل : فما بالنال لا تراها لم تنل من علومكم إلا بعض القشور ؛ ولم تستفد من مدنييتكم إلا الفسق والفجور ؟

قالوا : إنما ذلك لضعف الاستعداد ، وما تمكن في نفوس هذه الشعوب من الفساد — على أننا خير لها من حكمائها الأولين ، بما قنا به من حفظ الأمن ، وتوفير أسباب النعيم للعاملين .

ذلك شأنهم ، لا تقام عليهم حجة إلا ويقابلونها بشبهة تؤيدها القوة .

وقد قوضت الحروب جميع ما بنيت عليه هذه الشبهات من المزاعم والأوهام ، إذ رأينا فيها أهل الأرض في الحضارة والعلوم والفلسفة يستعينون بكل ما ارتقوا إليه من العلوم والفنون والصناعات والحسكة والنظام لإهلاك الحرث والنسل

- ١٠٢ -

وتخريب العمران ، بمنتهى القسوة والشدة التى لا تشوبها عاطفة رأفة ولا رحمة . . .

ولو كان من بأيديهم أزمة الأمور يؤمنون بالله واليوم الآخر ، وما فيه من الحساب والجزاء بالحق ، لما انتهوا فى الطغیان إلى هذا الحد .

نعم إن هذه الشعوب كانت تتقاتل انصر المذهب أو الدين ، فى القرون التى كانت تعمل كل شىء فيها باسم الدين ، ولكنها لم تصل فى التقتيل والتخريب فى ذلك الزمان إلى عشر معشار ما هى عليه الآن .

على أن الرؤساء كانوا يتخذون اسم الدين وسيلة لأهوائهم التى ليست من الدين فى شىء . . .

إنما الحرب الدينية الصحيحة هى التى تكون دفاعاً عن النفس ، وتقريباً للحق والعدل ، والمساواة فى الحقوق بين أصناف الحق .

القسم الثاني

الفرقاء في الجدل والحوار

لم يكن يتوقع أبداً أن تقوم في سبيل دعونه كل هذه المشكلات التي قامت في شأنه ، وفي شأن الوجدانية ، وفي شأن البعث أو الحياة الآخرة ، وإنما كان يتوقع التفاف الناس من حوله والاستجابة لدعوته .

وكان يبني توقعاته على أمور كثيرة نجدها مسطورة في كتاب الله الكريم ، فقد نزلت في شأنها آيات ساعدتنا في التعرف عليها .

وهذه الأمور هي : —

أولاً : — أن البيئة التي ولد فيها ، والمجتمع الذي كان يعيش فيه ، قد صدرت عنهم رغبات مؤداها أنهم كانوا يتطلعون إلى نبي يبعث فيهم وكتاب من السماء ينزل عليهم .

والقرآن الكريم يسجل هذه الرغبات في الآيات التالية : —

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ... » .

ويقول : « وإن كانوا ليقولون : لو أن عندنا ذكر من الأولين لكنا عباد الله المخلصين ... » .

لقد كان يقدر أنه وقد جاء تلبية لمتطلبات الحياة الدينية عندهم سيكونون أحسن الناس استقبالا له ، وأكثرهم إيمانا به ، وأقدرهم على ممارسة الحياة بما يدعو إليه من معتقدات وآراء ، ومن مبادئ ، ومن قيم .

ثانياً : — إن الله سبحانه وتعالى هو الذي اختاره نبياً رسولا ، والذي يختاره الله له حق على الناس أجمعين : أن يطيعوه فيما يأمر به ، وفيما ينهى عنه . وإلا عدوا من الخارجين على طاعة الله .

والقرآن الكريم هو الذى يسجل ذلك أيضاً .

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله » .

ويقول : « من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيفاً ... » .

ويقول : « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول ، واحذروا . فإن توليتم فاعلموا أنما على رسولنا البلاغ المبين ... » .

ويقول : « إنما كان قول المؤمنين إذا دعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم أن يقولوا : سمعنا وأطعنا . وأولئك هم المفلحون ... » .

ثالثاً : أنه ما جاء إلا ليظهر الحق ويدحض الباطل . جاء ليقتضى على هذه الفوضى الفكرية النابتة من الاختلاف في وجهات النظر — ذلك الاختلاف الذى يخلخل التماسك الاجتماعى ، ويؤدى حتماً إلى الفرقة والانقسام . جاء ليضع بأيديهم ميزان الحق والعدل الذى لا يضل من استمسك به ، ويذهب عن عقولهم ميزان الهوى والشهوات — ذلك الميزان الذى يضل من استمسك به ، وينحرف عن الطريق القويم أو الصراط المستقيم .

والذى يكون هذا موقعه من قومه ، ومن الذين أرسل إليهم يتقبل قبولاً حسناً ، ولا تقام في سبيله العقبات .

والقرآن الكريم هو الذى يدل على هذه المهمة من أمر محمد عليه السلام ، وأمر غيره من الرسل والأنبياء .

يقول الله تعالى : « وما أنزلنا عليك الكتاب إلا لتبين لهم الذى اختلفوا فيه ، وهدى ورحمة لقوم يؤمنون ... » .

ويقول : « إن هذا القرآن يقص على بني إسرائيل أكثر الذى هم فيه يختلفون » .

ويقول : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . »

وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات — بغياً بينهم .
فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء صراط مستقيم . . . »

رابعاً : — وهو الأهم من كل ما تقدم ، أنه ما جاء إلا ليرفع من مستواهم الحضارى ، ويجعل منهم الأمة الرائدة التى تقود الإنسانية إلى الخير العام . الأمة التى تحقق من الإصلاحات الاجتماعية ما يجعلها الأمة النموذج أو الأمة المثال .
لقد جاء ليخرجهم من الظلمات إلى النور — من ظلمات الجهل إلى نور المعرفة واليقين .

يقول الله تعالى : « أَلَمْ نَكُتَابِ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ لِتُخْرِجَ النَّاسَ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ . يَإِذْ ذَرَبَهُمْ — إِلَى صِرَاطٍ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ . . . »

ويقول : « هو الذى بعث فى الأمين رسولا منهم يتلو عليهم آياته ، ويزكيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لى ضلال مبين . »

ويقول : « كما أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا ، وَيُزَكِّيكُمْ ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ ، وَيُعَلِّمُكُمُ مَا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ »

وجاء ليجعل منهم خير أمة أخرجت للناس بما يأمرون بالذى تتعارف الجماعة على أنه من مصلحتها ، وبما ينهون عن الذى ترى الجماعة أنه ضار بمصلحتها ، من حيث إن السكوت عن هذه الأشياء هو الذى يقضى على الأمة بما يشيع فيها من فساد .

يقول الله تعالى : « كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر ، وتؤمنون بالله . ولو آمن أهل الكتاب لكان خيرا لهم — منهم المؤمنون وأكثرتهم المفسقون . . . »

ويقول منددا بموقف أهل الكتاب . وكيف أنهم وصلوا إلى ماوصلوا إليه من ظلم وفساد بسكوتهم على دواعي الشر والنكر والفساد .

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داوود وعيسى بن مريم ، ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون .

كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه — لبئس ما كانوا يفعلون .

ومن أجل ذلك كله حرص القرآن الكريم على الدعوة إلى وجود جماعة يكون من مسؤولياتها الدعوة إلى الخير ، والأمر بالمعروف ، والنهي عن المنكر ، وذلك وقوله تعالى : « ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ، ويأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وأولئك هم المفلحون »

ومن أجل أنهم خير أمة أخرجت للناس يكونون أداة من أدوات التقويم في الحياة الآخرة . وأنهم الشهداء على الناس — أى أنهم الذين يشهدون بأعمالهم وسلوكهم على صحة أو فساد أعمال غيرهم من الأمم .

يقول الله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا »

جاء ليحقق ذلك كله ، ومن أجل هذا الذى كان يفعل توقع منهم الاستجابة لدعوته ، والالتفاف من حوله .

* * *

وكان يتطلع إلى العناية الإلهية يريد منها أن تدفع الناس إلى الإيمان به كنبى رسول ، والالتفاف من حوله كصلح دينى واجتماعى — تدفع الناس ولو عن طريق المعجزات وخوارق العادات .

كان يتطلع إلى هذا كما كان يتوقع ذاك .

وجرت الأمور على غير ما كان يتوقع ، ومضت الحياة على غير ما كان يتطلع إليه .

لقد وقف منه الكثيرون موقف المعارضه ، وأخذوا في الجدل والحوار ، وفي رميه بالكذب ، وبالسحر ، وبالكهانة .

ولم يقف بهم الأمر عند هذا الحد وإنما مضوا في الاستهزاء به والسخرية منه .

وضاقت نفسه بما رأى ، وبما سمع ، وسجل لنا القرآن كل ما ألم بنفسه من خواطر .

ووقف القرآن إلى جانبه . وقف ليعلمه أن الله سبحانه وتعالى يعلم من أمره كل شيء . يعلم حتى الخواطر التي لاتزال في المهد والتي قد تكلفه الكثير إن هي تحولت إلى فكر وإلى عمل — أى إلى موقف يتخذ .

ووقف القرآن ليبصره بالنواميس النفسية والسنن الاجتماعية في مثل هذه الحالات .

وكان مما بصره به القرآن — مما يليق بهذا المقام — أمران جديران بالوقوف عندهما .

أول الأمرين : — أن هذا الموقف منهم ليس خاصا به ولا بهم . إنه الأمر الذى يحدث في كل زمان ، وفي كل مكان .

والثانى : — أن وظيفته لاتتصل بهداية الناس وإنما عليه البلاغ ، والبيان ، وتقديم المثال الذى يحتذى .

ونستطيع أن نستعرض سويا الآيات القرآنية المسجلة لكل خواطره ، والمبينة لحقيقة الموقف من الناحيتين النفسية والاجتماعية .

يقول الله تعالى في شأن هذه الخواطر التي كانت تمر به ، وتدور في رأسه :
« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين . إنا كفيئناك المستهزين . الذين يجعلون مع الله إلها آخر فسوف يعلمون .

ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون »

ويقول: « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن يقولوا :
لولا أنزل عليه كثر أو جاء معه ملك .

إنما أنت نذير ، والله على كل شيء وكيل . . . »

ويقول: « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب
من قبلك، قد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين . . . »
أما الآيات الدالة على أن هذا الموقف ليس خاصا به وحده فيمكن أن تثبت
من بينها الآيات التالية :

يقول الله تعالى : « يا حصرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا
به يستهزءون . . . »

ويقول: « كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا : ساحر
أو مجنون .

أتواصوا به بل هم قوم طاعون . . . »

ويقول: « ثم أرسلنا رسلنا تترى ، كلما جاء أمة رسولها كذوبه . . . »

ويقول: « فإن كذبوك فقد كذب رسل من قبلك جاءوا بالبينات ، والزبر ،
والكتاب المنير . . . »

* * *

أما وظيفته والحدود التي تنتهى عندها فقد بين القرآن الكريم أن هذه
الوظيفة تقف عند حدود بيان ما أنزل الله وتوضيحه للناس — بيانه بالأقوال ، وبيانه
بالأعمال . ثم ممارسة الحياة على أساس مما يدعو إليه حتى يعتبر المثل الصالح الذى
يحتذيه كل الناس .

فالله سبحانه وتعالى هو الذى يقول : « فذكر إنما أنت مذكر لست
عليهم بمسيطر . . . »

وهو الذى يقول : « إنما أنت مدثر ولكل قوم هاد »

وهذه الوظائف التي يحدد بها القرآن الكريم للنبي عليه السلام هي الوظائف التي يقوم بها كل قائد يتخذ من العمل الثورى وسيلته إلى تحقيق الإصلاح بأبعاده المختلفة .

إن التأثير إنسان لا يرضى أبداً عن الأوضاع السائدة في مجتمعه ، ويرى بين البصر والبصيرة أن الاستمرار في ممارسة الحياة على أساس من هذه الأوضاع ضار أبلغ الضرر بالمجتمع الذى يعيش فيه وينتمى إليه — ومن هنا يأخذ في تبصرة الناس بما يمكن أن تنتهى إليه هذه الأوضاع من شر ، ومن نكر وبلاء .

ومن هذا الذى يفعل يستحق أن يسمى بالناذر ، من حيث إنه إنما ينذر الناس بغلبة السير في ممارسة الحياة على أساس من هذه الأوضاع التي يراها فاسدة .

وهو حين يشعر بهذا الفساد إنما يشعر به لدقة في حسه ، ووعى في عقله ، وإدراك تام لكل ما في المجتمع من عوامل الضعف والانهلال .

وهذا الذى يشعر به قد لا يشعر به الآخرون من مواطنيه ، بل قد يعجزون عن الوعى به وإدراكه ، ومن هنا يقفون منه موقف المعارضة . وهذا هو الذى تشرحه الآية القرآنية الكريمة : —

« وإذا قيل لهم : لا تفسدوا في الأرض

قالوا : إنما نحن مصلحون .

ألا إنهم هم المفسدون ، ولكن لا يشعرون ...

وإذا قيل لهم : آمنوا كما آمن الناس ...

قالوا : أنؤمن كما آمن السفهاء ...

ألا إنهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون ... »

والتأثير إنسان لا يقف عند حدود عدم الرضا وإنما عليه أن يتصور البديل الذى يرضى عنه الناس وتحسن به أحوالهم . . .

هذه الصورة الجديدة لمجتمع المستقبل هي الصورة التي يأخذ الثائر في دعوة الناس إليها والعمل على تحقيقها : مستقبلاً باسمًا سعيداً .

وهذا الذي يفعله الثائر هو الذي من أجله سمي بالبشير .

إنه يبشر الناس بأمل جديد ، وحياة جديدة ، يتحقق بهما الأمن والطمانينة .

إنه يبشرهم بالفضل الكبير من الله .

ولا يقف أمر الثائر عند البشارة والإنذار ، وإنما يتعداه إلى ما هو أهم من ذلك وهو الشهادة .

أن الشاهد هو الثائر الذي يلتزم بما يدعو إليه من إصلاحات ، وإنه الذي يمارس الحياة على أساس من القيم التي يأخذ الناس بها ، فهو بعمله هذا يشهد بصحة ما يدعو إليه من مبدأ أو عقيدة . إنه الذي يضرب للناس المثال ، ويضع أمام أبصارهم وبصائرهم النموذج الذي يجب أن يحتذى .

وهذا المعنى للشاهد الثائر هو الذي تحدث عنه القرآن الكريم عند حديثه عن الأمة العربية التي تتكون بالإسلام ، فقد جعل القرآن هذه الأمة شاهدة — أى جعلها أداة تقويم لغيرها من الأمم ، وميزاناً تعرف به أقدار الأمم الأخرى . والآية القرآنية المشار إليها هي قوله تعالى : « وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس ، ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

جاء في تفسير المنار عند حديثه عن هذه الآية القرآنية الكريمة ما يلي : — « أى أن الرسول عليه الصلاة والسلام هو المثال الأكمل لمرتبة الوسط . . .

وإنما تكون هذه الأمة وسطاً باتباعها له في سيرته وشريعته ، وهو القاضي بين الناس فيمن اتبع سنته ، ومن ابتدع لنفسه تقاليد أخرى أو حداذو المبتدعين .

فكما تشهد هذه الأمة على الناس بسيرتها وارتقاؤها الجسدى والروحى بأنهم

قد ضلوا عن القصد ، يشهد لها الرسول بما وافقت فيه سنته، وما كان لها من الأسوة الحسنة فيه ، بأنها استقامت على صراط الهداية المستقيم . . . »
أما إنه الداعى إلى الله بإذنه فذلك هو مضمون الرسالة أو موضوع الدعوى .
إن عليه أن يقرر فى الحياة شعبية القيادة، وذلك هو الأمر الذى أكدته القرآن الكريم لا بالنسبة لمحمد عليه السلام وإنما بالنسبة لغيره من الأنبياء .
والقرآن الكريم يعنى على أن الرسول يكون دائماً من القوم المرسل إليهم .
والتعبيرات القرآنية فى ذلك واضحة .

« ولقد أرسلنا نوحا إلى قومه إنى لكم نذير مبين »

« وإلى عاد أخاهم هودا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »

« وإلى مدين أخاهم شعيباً قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره »

ويعنى القرآن إلى أبعد من هذا فيؤكد العلاقة بين الرسول وقومه على أساس من اللغة باعتبارها الوعاء الثقافى . فيقول سبحانه وتعالى : « وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم »

وشعبية القيادة فى القرآن الكريم إنما تنمى كد من شئ آخر أهم من كل ما سبق هو أن القرآن الكريم قد صرح بأن اختيار القائد من الشعب لن يكون بعد محمد عليه السلام لله سبحانه وتعالى وإنما سيكون للناس .

إن هذا إنما يعنى أن القائد الشعبى ينبثق نباتاً شعبياً ، ويختار اختياراً شعبياً ، ولا دخل للسماء فى هذا الاختيار بعد محمد عليه السلام .

وإن عليه أن يقرر فى الحياة تخطى القبلية والطائفية والارتفاع الى المستوى القومى أو المستوى العالمى .

إن محمدًا عليه السلام إنما أرسل من أجل هداية الناس أجمعين إلى الصراط المستقيم . فدعوته دعوة عالمية تتخطى الحدود والقيود إن ميدانها العالم أجمع .

وإن على محمد عليه السلام أن يتخطى أولا القبلية والطائفية إلى القومية . ثم
إن عليه أن يتخطى فيما بعد القومية إلى العالمية

« وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً »

« تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً »

« وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين »

« وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون :
إنه لمجنون .

وما هو الا ذكر للعالمين »

وهذا الذى تقول هو الذى جعل التوحيد الأساس الذى يقوم عليه بناء
الدعوة الإسلامية .

إن هذه الدعوة تقوم على التوحيد وعياً منها بأن التوحيد موصل حتماً إلى الوحدة
الفكرية والتماسك الاجتماعى وهما الأساس فى تكوين الأمة .

وإن على محمد أن يقرر حتمية العدالة ، وهى حتمية متكون ، كما سبق أن
ذكرنا ، فى حياة غير هذه الحياة الآخرة ، وسيؤولها من بيده ملكوت السموات
والأرض وهو على كل شىء قدير .

والقدرة على تحقيق العدالة ضرورية وإلا ساد الظلم وعجز العدل عن أن
يتحقق ، وهذا هو السبب الذى من أجله كانت حتمية العدالة فى الحياة الآخرة ،
وبيد أقوى الأقوياء .

إن القوة بدون عدل ظلم

وإن العدل بدون قوة عجز

ولا بد من العمل على أن يصبح العادل قوياً والقوى عادلاً . . .

— ١١٧ —

إن مانراه فى حىاتنا الدنيا لىس إلا القوة التى تفوق حاجة العدل ، وإلا العدل
الذى لا يزال دون القوة المستعمرة فى ممارسة الحياة .

وأما إنه السراج المنير فلأنه الذى يهذى الناس بأقواله وأعماله الى الطريق
المستقيم . إنه كالضوء الذى يهتدى الناس به فى ظلمات الحياة .

لقد جاء ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وهذا يكفى فى الحديث عنه
على أنه السراج المنير .

المنافقون
والمشركون
وأهل الكتاب

١

أحدث هذا الذي دعا إليه محمد بن عبد الله عليه السلام من : إيمان بالله وحده ، وإيمان بالبعث والحساب ، وممارسة الحياة على أساس من القيم الروحية والخلقية والاجتماعية التي تحقق السعادة أو الحياة الأفضل — أحدث هذا ما كان ينتظر منه وهو انقسام الناس إلى فريقين : فريق يؤمن بمحمد عليه السلام وبالكتاب ، وفريق يعارض محمداً عليه السلام وينكر الوحي الذي ينزل من السماء والكتاب . وقالوا : « اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

كان المنكرون لمحمد عليه السلام وللكتاب كثرة كاثرة أول الأمر — وبخاصة في العهد المكي ، لكنهم لم يلبثوا أن أخذوا في التناقص حتى أصبحوا قلة قليلة عند وفاة محمد عليه السلام .

وهذا الذي حدث هو الظاهرة الاجتماعية التي لا تتخلف في أي زمان وفي أي مكان .

إن الدعوة الجديدة التي تستهدف تغييرات جذرية في حياة المجتمع وفي معتقداته تقابل بالنفور وبالمعارضة أول الأمر ، ثم يأخذ الناس في اكتشاف ما فيها من نفع ، وما تقدمه لهم من خير . وعند ذلك يرتبطون بها ، ويقبلونها أساساً ثقافياً يمارسون الحياة على ما فيه من آراء ومعتقدات ، وما فيه من قيم عملية .

إن الدعوة الجديدة التي تلبى متطلبات الحياة في مجتمع ما ، تستقطب الناس من حولها ، وتنتجج في نهاية الأمر النجاح الذي يحقق أهدافها .

أما الدعوة التي تسقط فهي التي تكون أبداً من ممل المهرجين . والتي لا تكون أبداً من عمل الصادقين ، ومن مسئوليات الأنبياء والمرسلين .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه الظواهر على أنها سنة الله في خلقه . سنة الله التي لا تبدل ولا تتحول .

وإشارات القرآن لهذه الظاهرة تكون غالباً عند حديثه عن التجربة التاريخية التي مرت بها الإنسانية من قبل ، والتي وقف فيها معظم الناس من الأنبياء والمرسلين موقف الكذابين .

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم : لئن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفوراً .

استكباراً في الأرض ، ومكر السيئ — ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . فهل ينظرون إلا سنة الأولين ؟

فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .. »

ويقول الله تعالى : « طسم ، تلك آيات الكتاب المبين . تتلو عليك من نبأ موسى وفرعون بالحق لقوم يؤمنون .

إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم : يذبح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين .

وزيد أن نحن على الذين استضعفوا في الأرض ونجعلهم أئمة ، ونجعلهم الوارثين ، ونمكن لهم في الأرض ، ونرى فرعون وهامان وجنودهما منهم ما كانوا يحذرون . »

ويقول : « وإن كادوا ليستفرونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً .

سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ، ولا تجد لسنةنا تحويلاً . » .
ويقول : « لئن لم يلته المنافقون ، والذين في قلوبهم مرض ، والمرجفون في المدينة ، لنغرينك بهم ثم لا يجاورنك فيها إلا قليلاً »
ملعونين . أينا تقتلوا ، وقتلوا تقتيلاً .

سنة الله في الدين خلوا من قبل ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .
ويقول : « إنا لننصر رسلا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم
الأشهاد » .
وصدق الله العظيم .

* * *

والنكرون للدعوة الجديدة ، والمعارضون للنبي عليه السلام كانوا فرقاء . فمنهم
المشركون ، ومنهم أهل الكتاب : اليهود والنصارى .
وإلى جانب هؤلاء ، أو من هؤلاء ، فريق يكيد للدعوة في السر ، وفي الخفاء —
وأولئك هم المنافقون .
وقد تناول القرآن الكريم كل هؤلاء بالحديث ، تناول حجم العداوة ، وتناول
أساليب الكيد ووسائله .
ونحن هنا إنما نقف معهم لنكشف عن مبلغ عداوتهم ، ونرتبهم حسب
حجم عداوتهم .

أما الحديث عن أساليب الكيد ووسائله ، وعن الدوافع التي دفعت بهم إلى
اتخاذ مواقفهم من النبي عليه السلام فله موضعه من الفصول المقبلة من هذا الكتاب .

* * *

والدرجة الأولى في العداوة هي الدرجة التي يحتلها المنافقون — أولئك الذين نزل في
شأنهم سورة تسمى باسمهم — المنافقون .
وهذا إلى جانب الآيات الكثيرة الواردة في السور الطوال من أمثال سورتي :
النساء والثوبة .

والذي يدفعنا إلى القول بأنهم الذين يحتلون المنزلة الأولى هو حديث القرآن
عنهم ، وعن أنهم العدو الخطر الذي يجب أن يحذره النبي عليه السلام ، وعن هذا
العذاب الذي أعده الله لهم .

يقول الله فيهم : « إذا جاءك المنافقون قالوا : تشهد إنك لرسول الله . والله يعلم إنك لرسوله ، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون .

اتخذوا أيمانهم جفة فصدوا عن سبيل الله . إنهم ساء ما كانوا يعملون — ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون

وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم كأنهم خشب مسندة يحسبون كل صيحة عليهم .

هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون » .

يقول الله تعالى : « ومن حولكم من الأعراب منافقون ، ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم ..

سنعذبهم مرتين ، ثم يردون إلى عذاب عظيم .. »

ويقول : « إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ، ولن تجد لهم نصيراً » .

ويقول : « وعد الله المنافقين والمنافقات ، والكفار ، نار جهنم خالدين فيها .

هي حسبهم ، ولعنهم الله ، ولهم عذاب مقيم » .

ويقول : « يا أيها النبي : جاهد الكفار والمنافقين ، واغلظ عليهم ، ومأواهم جهنم ، وبئس المصير .. »

* * *

ولمفسرى القرآن الكريم مواقف مختلفة من ظاهرة النفاق أو من المنافقين ، نرى من الخير تلخيصها في هذا المقام .

والنفاق عندهم خلق رديء ، ووصف خبيث ، تتلوث به الأنفس الدنيئة الفاسدة الفطره ، فلا يرى أهلها وسيلة إلى مطامعهم في المال ومطامعهم إلى الجاه إلا الكذب والرياء ، ولقاء الناس بالوجوه المختلفة والتصنع ، والخداع ولين القول .

« وإذا رأيتهم تعجبك أجسامهم ، وإن يقولوا تسمع لقولهم » .

وهم يوجدون في كل شعب ، وفي كل قبيلة ، ولئن تخلوا منهم بادية
ولا حاضرة .

* * *

والنفاق قسبان : خاص وعام .

فالخاص هو النفاق الذي يحاول صاحبه لقاء كل أحد بما يرضيه عنه ويحبه
إليه — ولا سيما الحكام وأصحاب الجاه الذين يرجى الاتفاف منهم أو يخشى ضررهم .
وهذا اللون من النفاق أهون النفاقين .

أما النفاق العام : فهو ما يكون في الدين والدولة ، وخيانة الأمة والملة .
وما وجد النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا بعد الهجرة — لما
صار للإسلام قوة ودولة .

لقد آمن بعض الأوس والخزرج أولا بلقاء النبي عليه السلام في موسم الحج
ودعوا قومهم إلى الإسلام بعد عودتهم إلى المدينة .

صادفت الدعوة رواجاً لقوة المقتضى وهو التوحيد وفضائل الإسلام .

ولما كثرت عدد المسلمين هاجر النبي عليه السلام إليهم .

ومن المسلم به أن نور الإسلام لم يظهر لكل فرد منهم على سواء ، وأن يكون
منهم من اضطر إلى الدخول فيما دخل فيه قومهم من معتقد مواتة لهم ، فكان
منافقو المدينة من هؤلاء ، ومن حولهم من قبائل الأعراب الذين لم يعقلوا الإسلام
كأسد وغطفان .

وكان هناك يهود كثيرون يقيمون في حصون لهم بالقرب من المدينة كبنى
قريظة وبنى النضير ، وقد عاهدهم النبي عليه السلام على حريتهم في دينهم وأقسهم
وأموالهم — ولكنهم كانوا يدقضون عهده ويظاهرون عليه المشركين كلما جاءوا لقتاله ،
فسكانوا في إظهار الوفاء بعهده منافقين .

وكان لهم أحلاف من عرب المدينة لحافظ على مودتهم منافقوها .

* * *

كانت سياسة الإسلام أن من أظهر الإسلام يعامل كما يعامل سائر المسلمين لأن القاعدة : أن الحكم على الظواهر ، وأن الله تعالى وحده هو الذى يحاسب ويعاقب على السرار .

ورتب على ذلك أن من حافظ على الوفاء بعهده من أهل الكتاب يوفى له .
كان اليهود ينقضون عهدهم مع النبي سرّاً ، فإذا ظهر شيء من خيانتهم وغدرهم اعتذروا عنه ، حتى إذا ما افتضح أمرهم حاربهم وأجلاهم عن البلاد .
وقد قص الله علينا فى سورة الحشر ما كان بين اليهود والمنافقين من الإخاء والولاء ، وأنه لا خير فيه لأحد منهما .

قال الله تعالى : « ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب : لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً ، وأن قوتكم لننصرنكم .

والله يشهد إنهم لكاذبون

لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ، ولئن قاتلوا لا ينصرونهم ، ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون .. »

* * *

فإن قيل : إن القرآن قد فضح بعض المنافقين وحكم بكفرهم ، ولم ينفذ النبي عليه السلام أحكام المرتدين عن الإسلام ، بل بقى يعاملهم هو وأصحابه معاملة المسلمين .

قلنا : إن ما بينه الله تعالى من حال المنافقين إنما كان وصفاً لأناس غير معينين بأشخاصهم إنذاراً وزجراً لهم ، ليعرفوا حقيقة حالتهم ويخشوا سوء ما لهم عسى أن يتوب المستعدون للتوبة منهم .

وقد تاب الكثيرون منهم بما ظهر لهم من إخبار القرآن عنهم مما لا يعلمه إلا الله تعالى من أمرهم .

٢

والدرجة الثانية في العداوة هي التي يحتلها اليهود .

والدرجة الثالثة هي التي يحتلها المشركون . . .

أما الدرجة الرابعة ، وهي الأخف وزناً من حيث العداوة فهي التي يحتلها
النصارى .

والآية القرآنية التالية هي التي توضح لنا الترتيب التنازلي لهذه العداوات .
يقول الله تعالى : « لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين
أشركوا . . . »

ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا : الذين قالوا إنا نصارى — ذلك بأن منهم
قسيسين ورهباناً وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى
أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمننا فاكتملنا مع
الشاهدين . . . »

والمفسرين رأى واضح في هذه العداوة ، وفي ترتيبها هذا الترتيب التنازلي ،
لا نرى بأساً في إيراد بعض فقراتهم التي كتبوها .
العداوة بنضاء يظهر أثرها في القول والعمل .
والمودة محبة يظهر أثرها في القول وفي العمل .
وفي كلمة لتجدن تأكيد كيدان : لام القسم في أول الكلمة ، ونون التوكيد في
آخرها . . .

وأشد ما لاقى النبي صلى الله عليه وسلم من العداوة والإيذاء كان من يهود
الحجاز في المدينة وما حولها ، ومن مشركي العرب — ولا سيما مكة وما قرب
منها . . .

ولم ير من النصارى مثل تلك العداوة والإيذاء . . .

بل رأى من نصارى الحبشة أحسن المودة بحماية المهاجرين الذين أرسلهم صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام من مكة إلى الحبشة خوفاً عليهم من مشركيها الذين كانوا يؤذونهم أشد الإيذاء ليفتنوهم عن دينهم . . .

وحين أرسل النبي عليه السلام رسله يكتب الدعوة الإسلامية إلى الملوك ورؤساء الشعوب كان النصارى منهم أحسن رداً

وجملة القول أن النبي صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به رأوا في عصره من مودة النصارى وقربهم من الإسلام بقدر ما رأوا من عداوة اليهود والمشركين في مكة والمدينة معاً . . .

والعلة الصحيحة في عداوة المعادين ومودة الوادين هي الحالة الروحية التي هي أثر تقاليدهم الدينية ، والعادية ، وتربيتهم الأدبية والاجتماعية . . .

وقد نبه القرآن الكريم إلى ذلك في حديثه عن سبب مودة النصارى من هذه الآية . . .

ولقد ترك القرآن الكريم بيان عداوة اليهود والمشركين في هذه الآية لأن حالتهم الروحية مبينة في القرآن الكريم أتم البيان ، وفي عدة سور . . .

ومن أوسع السور بياناً لأحوال اليهود سورة المائدة وما قبلها من السور الطوال . . .

ومن أوسعها بياناً لأحوال المشركين سورة الأنعام وهي من السور الطوال المكية . . .

واليهود والمشركون يشتركون في بعض الصفات والأخلاق التي اقتضت شدة العداوة للمؤمنين .

فنها ، الكبر والعتو والبنى وحب العلو .

ومنها ، العصبية الجنسية والجامعة القومية .

ومنها ، غاية الحياة المادية التي ينبت منها الأثرة والقسوة وضعف عاطفة
الحنان والرحمة . . .

وكان مشركو العرب على جاهليتهم أرق من اليهود قلوباً ، وأكثر سخاء وإيثاراً ،
وأشد حرية في الفكر والاستقلال . . .

وما قدم الله ذكر اليهود في الآية إلا لإفادة أصالتهم وتمسكهم فيما وصفوا به ،
وتبريزهم على مشركي العرب فيه . . .

هذا إلى جانب ما وصفوا به مما سبق لهم من الأفعال من مثل قتل بعض الأنبياء
وإيذاء بعض ، واستحلال كل أموال غيرهم بالباطل . . .

وهذا الذي ذكر من كون النصارى أقرب مودة للذين آمنوا إنما كان بسبب
أن منهم قسيسين ورهبانا . . .

قسيسين يتولون تعليمهم وتريتهم الدينية . . .

ورهبانا يمثلون فيهم الزهد ، وترك نعيم الدنيا ، والخوف من الله عز وجل ،
والانقطاع بعبادته ، وأنهم لا يستكبرون عن الإذعان للحق إذا ظهر لهم أنه الحق
لأن من أشهر آداب دينهم التواضع . . .

وقد عهد من النصارى قبول سلطة المخالف لهم طوعاً واختياراً ، والرضا بها
سراً وجهاراً . . .

أما اليهود فإذا أظهروا الرضا بذلك اضطراً أو أسروا الكيد إسراراً ، ومكروا
مكراً كباراً . . .

فتلك كانت صفات الفريقين الغالبة . . .

* * *

فإن قيل : إن اليهود أقرب إلى الإسلام من النصرانية لأنها ديانة توحيد ،
والنصرانية ديانة تثليث ، والتوحيد هو أساس دين الله على السنة جميع

رسله ، وهو منتهى السكّال في العقائد ، ولذلك يجوز أن ينفّر الله كل الذنوب
إلا الشرك . . . ؟

قيل في الجواب : إن عقيدة التثليث دخيلة في المسيحية إذ الأصل فيها التوحيد .
وإنه لما كانت هذه العقيدة الدخيلة لا تفهم ، ولا تعقل ، لم يكن لها تأثير في أنفس
أهلها بعدهم عن الإسلام . . .

بل ربما كانت من أسباب قبول دعوة الإسلام .

إن التأثير الأعظم في تقريب الناس بعضهم من بعض ، أو نفور الناس بعضهم
من بعض ، إنما يكون للأخلاق والآداب . . .

ثم إننا نرى في كل عصر من المودة بين المسلمين والنصارى مالا نرى مثله بين
غيرهما من المختلفين في الدين . . .

وما ضعفت المودة بين المسلمين والنصارى إلا بفتن أهل السياسة ، وعصبية
أهل الرياسة . . .

ولعنة الله على مثيري العداوة والبغضاء بين عباد الله اتباعاً لأهوائهم ، أو
إرضاء لرؤسائهم

وسبق الله العظيم حين يقول فيهم : « وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى
أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق . يقولون : ربنا آمنا فاكتملنا مع الشاهدين .

الدوافع
أو
البواعث

لم تكن الدوافع التي دفعت بكل من المنافقين واليهود والمشركين والنصارى إلى اتخاذهم مواقفهم من محمد عليه السلام واحدة ، وإنما كانت عديدة ومختلفة .

ولم تكن هذه الدوافع فكرية خالصة تستمد مقوماتها من القيم العقلية ، والحقائق التاريخية ، والظواهر الاجتماعية ، وإنما كانت دوافع شخصية تلعب فيها الرغبات والمصالح ، وتلعب فيها الأهواء والشهوات الدور الأكبر . . .

ولقد عرض القرآن الكريم لكل هذه الأشياء ، وتحدث عن الاختلاف في الرأي . تحدث عن طبيعته ، وتحدث عن العوامل التي تلعب دورها فيه ، فتذكيه جدلاً أو حواراً عنيفاً .

ونحن في هذا الموقف إنما نعرض عليك موقف القرآن من كل ، وتصوير القرآن لكل .

والاختلاف في الرأي ظاهرة إنسانية لا تتخلف — وبخاصة عند ما تكون التنغيمات جذرية ، والقضايا هامة ، والمسائل كبرى . . .

والقرآن الكريم يتناول هذه الظاهرة الإنسانية على الوجه التالي : —

أولاً : الاختلاف في الرأي ظاهرة لا يمكن تخلفها أو تلافيها : فالاختلاف من الأمور التي تقع حتماً ، ومن الأمور التي لا يمكن تلافيها إلا في أضيق الحدود ، وفي القضايا الكبرى من قضايا الوجود .

والآيات القرآنية في ذلك كثيرة ، ومنها :

يقول الله تعالى : « ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ، ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم . . . »

ويقول : « وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ، ولولا كلمة سبقت من ربك لقضى بينهم فيما فيه يختلفون » . . .

وتشير الآية التالية إلى أن من المهام الكبرى للرسول والأنبياء توضيق شقة الخلاف بقدر الإمكان .

يقول الله تعالى : « كان الناس أمة واحدة فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين ، وأُنزل معهم الكتاب بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه . »

وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه من بعد ما جاءتهم البينات بنياً بينهم ، فهدى الله الذين آمنوا لما اختلفوا فيه من الحق بإذنه ، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم » ...

وللمفسرين موقف من هذه الآية الأخيرة يحسن بنا عرضه في هذا المقام شرحاً للآية ، واستفادة منها .

خلق الله الإنسان أمة واحدة — أى مرتبطاً ببعضه ببعض في المعاش ، لا يسهل على أفرادها أن يعيشوا في هذه الحياة الدنيا إلى الأجل الذي قدره لهم إلا مجتمعين ، يعاون بعضهم بعضاً . ولا يمكن أن يستغنى بعضهم عن بعض . فكل واحد منهم يعيش ويحيا بشيء من عمله — ولكن قواه النفسية والبدنية قاصرة عن توفيقه جميع ما يحتاج إليه ، فلا بد من انضمام قوى الآخرين إلى قوته فيستعين بهم في بعض شأنه ، كما يستعينون به في بعض شأنهم ...

فلما كان الناس أمة واحدة ولا يمكن أن يكونوا بمقتضى فطرتهم إلا كذلك ، وهم إنما يعملون بمقتضى آرائهم ، وينحون في أعمالهم نحو المنافع التي يرونها لازمة لقوام معيشتهم ، ولم يمنحوا من قوة الإلهام ما يعرف كلا منهم وجه المصلحة في حفظ حق غيره ، لتوفير المفعة في ذلك لنفسه — لما كانوا كذلك كان لابد لهم من الاختلاف ، وكان من رحمة الله بهم أن يرسل رسلاً مبشرين ومنذرين ...

وترتيب بعثة الرسل على وحدة الأمة هو :

أن الناس أمة واحدة ، ولابد لهم أن يعيشوا تحت نظام واحد يكفل لهم ما يحتاجون إليه مدة بقائهم في هذه الحياة الدنيا ، ويضمن لهم مآبه يسعدون في الحياة الأخرى ...

ولا يمكن في هذه الوحدة ومع تلك الوصلة اللازمة بمقتضى الضرورة، الاتفاق على تحديد ذلك النظام مع اختلاف الفطر، وتفاوت العقول، وحرمانهم من الإلهام الهادى لكل منهم إلى ما يجب عليه لصاحبه .
لما كانوا كذلك كان من لطف الله بهم أن يرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين :

ييسرونهم بالخير والسعادة في الدنيا والآخرة إذا أزم كل واحد منهم ما حدد له واكتفى بما له من الحق ، ولم يمتد على حق غيره .
وينذرونهم بخيبة الأمل وحبوط العمل وعذاب الآخرة إذا اتبعوا شهواتهم الحاضرة ، ولم ينظروا في العاقبة .
والضمير في قوله تعالى : « وما اختلف فيه إلا الذين أوتوه » يعود إلى الكتاب .

وهو استدراك على ما عساه يقال : إذا كان الناس في جماعتهم مستعدين للتخالف بمقتضى فطرتهم إذا تركت وحدها ، ولاغنى لهم عن هداية تعليمية تأتيهم من الله تعالى ، ولهذا بعث الأنبياء ليكونوا قوادا للفطرة إلى ما هو خير الدنيا والآخرة، فما بال الناس بعد إزال الكتب لا يزالون مختلفين ، ولا يرتفع من بينهم ذلك الخلاف الذى كان يخشى منه إفساد جماعتهم وهلاك خاصتهم ؟

فقد كانوا يختلفون على جلب المنافع والتوسع في مطالب الشهوات ، ولم تكن لديهم آلة يستعملها كل منهم في نيل مطالبه من صاحبه سوى القوة أو الحيلة

وبعد إزال الكتب السبوية ، انضم إلى الآلات السابقة آلة أخرى ربما كانت أقوى من سواها وهي آلة الإقناع بالكتاب ، فيتخذ الواحد منهم كلمة من الكتاب أو أثرا مما جاء به ، وسيلة إلى تسخير غيره لما يريد — وذلك بقطع الكلمة أو الأثر عن بقية ماجاء بالكتاب ، ولّى اللسان به وتأويله بغير ما قصد منه . وما هم

المؤول أن يعمل بالكتاب ، وإنما كل ما يقصد هو أن يصل إلى مطالب لشهوته ، أو غضد لسطوته — سواء عليه هدمت أحكام الله أم قامت ، واعوجت السبل أم استقامت .

ثم يأتي ضال آخر يريد أن ينال من هذا مانال هذا من غيره ، فيحرف ويؤول حتى يجد المخدوعين بقوله ، ويتخذهم عرونا على ذلك الخادع الأول . فيقع الخلاف والاضطراب .

وآلة المختلفين في ذلك هي الكتاب .

وقد شوهه ذلك في الأزمان الغابرة بين اليهود وبين من سبقهم وبين النصارى ، ولا يزال الأمر على ما كان عليه عند هاتين الطائفتين إلى اليوم .

وكم حروب وقعت بين المسلمين أنفسهم حتى قصمت ظهورهم ، ودمرت ما كان من قوامهم . وما كان آلة المبطلين في تلك المشاغب إلا دعوى الدين ، وحمل الناس على الحق المبين — والله يعلم إنهم لكاذبون فيما يقولون ، وإنهم لخاطئون فيما يفعلون . وما كلمة الدين ودعوى تأييد الكتاب إلا وسائل لإرضاء الشهوة ، وتمكين الظالم من السطوة . .

ثم هناك داع آخر للخلاف وهو : —

اختلاف القوم في فهم ما جاء في الكتاب ، فكل يذهب إلى أن الواجب أن يعتقد كذا وربما كان حسن النية فيما يقول ، ويعبد المخالف مخطئا فيما يزعم .

وقد يعرض لكل منهم التعصب لرأيه فيذهب حسن النية ولا يبقى إلا الميل إلى تأييد المذهب وتقرير المشرب بدون رعاية للدليل ولا نظر إلى البرهان . . . فلم يستفد النوع الإنساني من إرسال الرسل ونزول الكتب إلا حدوث سبب جديد للخلاف لم يكن ، وإلا موضوعا للشقاق كان العالم في سلامة منه .

فما فائدة إرسال الرسل ؟

وكيف يمن الله على الناس بأمر لم يزدحم إلا شقاء ، ولم يكسب بصائرهم إلا عماء ؟

أراد الله جل شأنه أن يستدرك على هذا الظن ، ويبين وجه الخطأ فيه
فقال : « وما اختلف فيه . . . الخ »

وحاصل الاستدرك :

أن غرائز البشر وحدها ليست كافية في توجيه أعمالهم إلى مافيه صلاحهم ،
فلا بد لهم من هداية أخرى تعليمية تتفق مع القوة المميزة لنوعهم وهي قوة الفكر
والنظر — تلك الهداية التعليمية هي هداية الرسل منهم ، والكتب التي ينزلها الله
عليهم . مع الأدلة القائمة على عصمة الرسل من الكذب ، وعصمة الكتب
من الخطأ .

فعلى الناس أن يستعملوا عقولهم في فهم الأدلة على الرسالة والعصمة أولاً .
وسطوع الأدلة يحمل المستعدين منهم على التصديق حتماً . فإذا عقلوا ما جاءت
به الرسل وجب عليهم أن يقوموا عليه ولا يعدلوا بعمل من أعمالهم عنه .
ذلك كما وهب لهم السمع والبصر ليهتدوا بهما إلى ما يوفر لهم الفوائد ، ويدفع
عنهم الفوائض ، ويتقوا بهما الوقوع في المكاره .

وكما وهب لهم العقل ليهتدوا به فيما يتبع الأعمال من العواقب ..
ماذا يقول القائل في أولئك الذين يؤتيهم الله العقل ثم لا يستعملونه فيما أوتى لأجله؟.
هل تنقص حالهم هذه من منزلة العقل ، وتدل على أن العقل ليس من نعم الله
على الإنسان؟.

ماذا يقول القائل في أولئك الذين لهم أبصار وأسماع ولكن يخطئ الواحد
منهم في سيره فلا يستعمل بصره في معرفة الطريق التي يسير فيها ، أو في وقاية
رجليه من الشوك الواقع عليها ، أو التبعاد من حفرة يتردى فيها ، وربما كانت
نظرة واحدة تقيه من التهلكة لو وجهها نحوها . وقد يسمع من الأصوات التي
تنذره بالخطر انقريب منه ثم لا يبالي بما يسمع حتى يصيبه ما ليس له مدفع .

فهل تحط حال هؤلاء الناس من قيمة السمع والبصر ؟

* * *

ثانياً : أن هذا الخلاف الختمى إنما يقع في القرآن الكريم بعيداً عن القضايا التي يعدها القرآن الكريم عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين .

ففي القرآن الكريم آيات تشير إلى وحدة العقيدة ، وفيه آيات أخرى تشير إلى اختلافات تكون بين الدعوة والدعوة ، لصالح المجتمعات البشرية المتعاقبة .

ومن النوع الأول قوله تعالى : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحاً والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا به ، كبر على المشركين ما تدعوهم إليه ، الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من يليب ... »

وقوله حين يطلب إلى الذين آمنوا بمحمد عليه السلام الإيمان بغيره من الرسل والأنبياء : « قولوا آمنا بالله ، وما أنزل إلينا ، وما أنزل إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، لا نفرق بين أحد منهم ونحن له مسلمون ... »

وقوله في حق الذين كفروا بمحمد عليه السلام : « إن الذين يكفرون بالله ورسله ، ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون تؤمن ببعض ونكفر ببعض ، ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلاً .

أولئك هم الكافرون حقاً ، وأعتدنا للكافرين عذاباً مهيناً .

والذين آمنوا بالله ورسله ولم يفرقوا بين أحد منهم أولئك سوف يؤتيهم أجورهم ، وكان الله غفوراً رحيماً ... »

ويلحق الرازي على الآية الأولى من هذه الآيات بقوله : « شرع لكم من الدين ديناً تطابقت الأنبياء على صحته .

وأقول . يجب أن يكون المراد من هذا الدين شيئاً مغايراً للتكاليف والأحكام ، وذلك لأنها مختلفة متفاوتة .. »

والقضايا الكبرى التي يعدها القرآن الكريم عقيدة جميع الأنبياء والمرسلين هي الثلاث التالية :

الوحدانية ، وجميع الأنبياء والمرسلين يدعون أقوامهم إلى الإيمان بالله وحده ، وعبادة الله وحده .

الحياة الآخرة، حيث تتحقق العدالة حتماً ، ويحاسب الناس على ما قدمت أيديهم . العمل الصالح ، الذي يتحقق به الخير العام لجميع الناس ، والذي يتخذ أساساً للثواب في الحياتين الأولى والثانية .

والآية القرآنية الكريمة التالية تدل على ما نذهب إليه من قول في بيان واضح لا يحتاج إلى تأويل .

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا ، والذين هادوا ، والنصارى ، والصابئين من آمن بالله ، واليوم الآخر ، وعمل صالحاً ، فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون .. »

ويلحق صاحب تفسير المنار على الآية بقوله : فالآية بيان لسنة الله تعالى في معاملة الأمم تقدمت أو تأخرت ، فهو على حد قوله تعالى : « ليس بأمانيك ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءاً يجز به ، ولا يجدر له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون شيئاً »

فالله يقرر أن الفوز لا يسكون بالجنسيات الدينية وإنما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس ، وعمل يصلح به حال النفس ، ولذلك نفى كون الأمر عند الله بحسب أمانى المسلمين أو أمانى أهل الكتاب .

وأثبت كونه بالعمل الصالح مع الإيمان الصحيح .. »

ومن النوع الثانى الدال على وقوع الاختلافات بين دعوة نبي ودعوة نبي آخر ، في غير قضايا الإيمان الصحيح والعمل الصالح — الآيات القرآنية التالية :

يقول الله تعالى : « وأنزلنا إليك الكتاب بالحق مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق . لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً . ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم فاستبقوا الخيرات . إلى الله مرجعكم جميعاً فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون » .
ويقول : « ولكل أمة جعلنا منسكاً هم ناسكوه فلا ينازعنك في الأمر ، وادع إلى ربك إنك على هدى مستقيم » .

ولإخوان الصفا تعليل مقبول في مثل هذه الاختلافات ، من حيث إنهم يردونه إلى عوامل صحية في تاريخ المجتمعات البشرية ، وفي التفاوت الذي يكون بين المجتمعات بعضها والبعض الآخر ، وبين مرحلة ومرحلة في حياة المجتمع الواحد . يقولون : « ثم اعلم أنه لما كانت طباع الناس مختلفة ، وأخلاقها متفارية ، والنفوس تعرض لها أمراض مختلفة بحسب الزمان والأمكنة والطباع والأمزجة والعادات .

وكان واضعو النواميس هم أطباء النفوس ومنجموها ، كقول النبي عليه السلام : « ان مثل أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهديتم » وغرض كلهم اكتساب الصحة وحفظ السلامة من الآفات العارضة ..

فمن أجل هذا اختلفت مفروضاتهم ، وتفاوتت سننهم حسب ما يليق بأمة أمة ، وطائفة طائفة من الناس والأمم من المداواة لنفوسهم والحماية لها من المحرمات عليهم ، كما يفعل أطباء الأجسام في العلاجات المختلفة بالبلدان المختلفة لأجل الأمراض المختلفة في الأزمان المختلفة : تغيير الأشرية ، وتبديل الأدوية ، وتقليل الأوزان وتكثيرها بحسب اختلاف الأزمنة والأمكنة . .

فكذلك أفعال الأطباء من أصحاب النواميس واختلاف سننهم ، وترتيب أوضاعهم وأمرهم وإجازتهم في شيء ، ونهيهم وتحريمهم عن شيء ، تشبه بعينها أفعال أطباء الأجسام ومداواتهم تماماً » .

وما يشرحه إخوان الصفا هو الذي انتهى إليه فقهاء المسلمين من وضعهم للقاعدة الشرعية الذاهبة إلى تبدل الأحكام بتبدل الأزمان .

إن الاختلاف إنما يدور حول ماهو خارج عن الإيمان بالله وملائكته وكتبه
ورسله واليوم الآخر .

إنه يقع فيما هو خارج عن دائرة الاعتقادات .
أما ماهو من ميدان الاعتقادات فيجب التسليم به .
وماهو من ميدان المبادئ يختلف في دين عنه في دين آخر بحكم اختلاف
العصور ، واختلاف الظروف والمناسبات .

أما ما يكون في ميدان التعامل الذى يقع بين الناس فيصح أن يقع فيه
الاختلاف بين مجتمع ومجتمع يعيشون في عصر واحد ، كما يصح أن يقع هذا
الاختلاف في المجتمع الواحد بين مرحلة تاريخية ومرحلة تاريخية أخرى .

* * *

ثالثاً : إذا كانت القضايا الكبرى الدائرة حول الوحدانية ، وحول الحياة
الآخرة التى تتحقق فيها العدالة حتماً ، وحول العمل الصالح الذى يصلح به حال الناس
ويتحقق به الخير العام ، مما لا يصح أن يقع فيه خلاف أو يدور حوله الجدل .
وإذا كان الذى يقع فعلاً ، ويحدث في حياة الناس ، أن هذه القضايا قد وقع
فيها الاختلاف ودار حولها الجدل ، فإن القرآن الكريم قد علل لهذه الظاهرة
الاجتماعية ، وتحدث عن العوامل المؤدية إلى الاختلاف أو الدافعة إلى الجدل .
وهذه العوامل ، فيما تحدث القرآن ، كثيرة ، ويمكن عرضها على القارىء على
الوجه التالى :

١ — الثروة الطائلة والغنى الفاحش .

وموقف القرآن من هذا العامل واضح صريح .
يقول الله تعالى في سورة الزخرف : « بل تمتع هؤلاء وآباءهم حتى جاءهم الحق
ورسول مبين » .

ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر وإنابته كافرون .
وقالوا : لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم .

أهم يقسمون رحمة بك ؟

نحن قسمنا بينهم معيشتهم في الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضاً سخرياً ، ورحمة ربك خير مما يجمعون .

ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن : لبيوتهم سقفاً من فضة ، ومعارج عليها يظهرون . ولبيوتهم أبواباً وسرراً عليها يتكئون وزخرفاً . وإن كل ذلك لما متاع الحياة الدنيا .

والآخرة عند ربك للمتقين .

ويقول سبحانه وتعالى في سورة الفرقان : « ويوم يحشرهم وما يعبدون من دون الله ، فيقول : أنتم أضللتم عبادى هؤلاء أم هم ضلوا السبيل .

قالوا : سبحانه ما كان ينبغي لنا أن نتخذ من دونك من أولياء ، ولكن متعتهم وآباءهم حتى نسوا الذكر ، وكانوا قوماً بوراً » .

ويمضى القرآن الكريم إلى أبعد من هذا فيجمل هذا الموقف ظاهرة اجتماعية لا تخص قوم محمد عليه السلام وحدهم ، وإنما تتحقق في كل مجتمع ، ومع كل داعية إلى نظام جديد وتغييرات اجتماعية جذرية ،

يقول الله تعالى : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا بما أرسلتم به كافرون .

وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعزيين .

قل : إن ربى ييسر الرزق لمن يشاء ويقدر ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

وما أموالكم ولا أولادكم بالتي تقرّبكم عندنا زلفى ، إلا من آمن وعمل صالحاً فأولئك لهم جزاء الضعف بما عملوا ، وهم فى النرفات آمنون .. »

وواضح من هذه الآيات جميعها أن الموقف يتلخص فى : —

(١) أن الاطمئنان وعدم القلق يصرفان الإنسان عن التفكير فى التغيير ،

ويدفعان به إلى مقاومة التغيير مادامت الحال الحاضرة تحقق الأمن والطمأنينة .
(ب) أن الثروة الطائلة ، والغنى الفاحش ، والقوة القادرة ، تصرف الإنسان
عن التفكير في الخالق .

إن الإنسان الذى يقدر على قضاء حاجاته ، وتحقيق رغباته ، لا يتوجه في
الكثير الغالب إلى الخالق بالعبادة والدعاء .

إنه يعتمد على نفسه أكثر من اعتماده على خالقه ، ويلسى الله الأعم الأغلب .
ولعله من هنا نبئت الفكرة القائلة بأن الغنى الشاكر خير من الفقر الصابر .
إن الغنى الشاكر إنسان يذكر الله دائماً ، وذكر الله من الننى هو الأمر
القليل الحدوث .

٢ — قلة المنذرين ، وندرة القادة المصلحين .

وهذا الأمر يلفت القرآن الكريم إليه الذهن دائماً ، ذلك لأن الاستجابة إلى
الجديد تتوقف على الحالات النفسية والعقلية لمن يطلب منهم إحداث التغيير
استجابة للجديد .

يقول الله تعالى : « أم يقولون : افتراه .

بل هو الحق من ربك لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون » .
ويقول : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك لتنذر
قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »

ويقول : « يس ، والقرآن الحكيم . إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم » .
تنزيل العزيز الرحيم .

لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون .

لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون . إنا جعلنا في أعناقهم أغلالاً فهم
إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم
فهم لا يبصرون .

وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم ننذرهم لا يؤمنون .. »
 إن الاستجابة للجديد تقوِّف دائماً وأبداً على الحالات النفسية والحالات
 الذهنية والعقلية لأولئك الذين يدعون إلى الجديد ، ويطالبون بإحداث التغييرات
 الاجتماعية التي تتجاوب والجديد ، وتؤكد
 إن الإنذار إنما يجدي مع من يتجاوب مع الدعوة . مع من يتبع الذكر
 ويخشى الرحمن .

٣ — سلطان العادات والتقاليد .

وهذا الأمر مترتب على سابقه ، ذلك لأن هذا السلطان إنما يستمد قوته من ندره
 القادة وقلة النذرين .

إن المجتمع الذي يكثر فيه القادة المصلحون لا تقوى فيه العادات والتقاليد إلى
 الحد الذي يجعلها عقبة كبرى في سبيل الإصلاح والتجديد .
 واهتمام القرآن الكريم بهذه الظاهرة واضح جداً من كثير من الآيات الكريمة .
 يقول الله تعالى تعالى : « وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله .
 قالوا : بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا .. »
 ويقول : « وإذا قيل لهم : تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول .
 قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا .

أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ولا يهتدون .. »

ويعضى القرآن الكريم إلى ما هو أبعد من ذلك فيصور هذه العادة على أنها
 من الظواهر التي لا تتخلف . إنها من الظواهر التي توجد في كل زمان وكل مكان
 وتلازم الثرف أو الغنى أو الثروة .

يقول الله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال
 مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون . »

— ١٤٥ —

وتنتهى من هذه الفقرة بالإشارة إلى ما يلى :

إن الاختلاف فى الآراء ظاهرة إنسانية لا تتخلف .

إن القادة إنما تنحصر مهمتهم فى القضاء على هذا الاختلاف فيما يخص القضايا الكبرى التى تستوجب الوحدة الفكرية والتماسك الاجتماعى ..

إن نجاح القادة فى تأدية مهمتهم متوقف إلى حد كبير على الحالات الاقتصادية ، والحالات الثقافية ، لمن يطلب منهم الاستجابة إلى الدعوة الجديدة ، وممارسة الحياة على أساس منها :

إن القرآن الكريم قد وقف عند هذه الحالات واهتم بها اهتماماً خاصاً وجعلها من الظواهر الاجتماعية التى لا تتخلف .

٢

وإلى جانب هذه الظواهر الاجتماعية المؤثرة في عوامل التنمية قبولاً ورفضاً ،
توجد ظواهر أخرى فردية أو عوامل أخرى شخصية تؤثر في عوامل
التنمية قبولاً ورفضاً .

والقرآن الكريم قد اهتم بهذه العوامل الشخصية اهتمامه بالظواهر الاجتماعية
لأنها في كثير من الأحيان تكون العوامل القوية الفعالة في عمليات التنمية ،
وفي المواقف التي توضع في طريقها .

واهتمام القرآن بهذه العوامل واضح من هذه الآيات الكثيرة التي تعرض
فيها القرآن لهذه العوامل وزادها شرحاً وتفسيراً .

ونستطيع أن نستعرض سوياً هذه العوامل التي يمكن تسميتها بالعوامل
النفسية من حيث إنها إنما تنبع من خفايا النفس البشرية .

وأول هذه العوامل : — الحرص على المصلحة الشخصية .

والحرص على المصلحة الشخصية والجري وراءها ، والتضحية بالمصلحة العامة
في سبيلها ، أمر نشاهده في حياتنا كل يوم تقريباً .

لقد تعود الكثيرون — وبخاصة أولئك الذين ليست لديهم مبادئ
أو قيم تسد خطاهم وتحول بينهم وبين الانحراف أثناء السير — على أن يلتفتوا
حول الأشخاص أو حول الأفكار التي تحقق لهم منفعة ، ويدافعون عن كل
ذلك دفاع السعتميت من حيث إنه في الحقيقة دفاع عن أنفسهم .

وتعود الناس كذلك النفور من الأشخاص أو من الأفكار التي تدعوهم
إلى التضحية بالمصلحة الشخصية في سبيل المصلحة العامة ، وينكرونها ويعملون
على دحضها بقدر المستطاع .

وسجل القرآن الكريم على بعض خصوم النبي عليه السلام أنهم كانوا يقفون هذا الموقف الأخير . كانوا ينفرون مما يدعوهم إليه ذهاباً منهم إلى أن ما يدعوهم إليه يفوت عليهم مصالح كثيرة قد استقرت لهم وأصبحت جزءاً من نظام حياتهم .

والقرآن عند تسجيله لهذه الحقيقة يرد عليهم في الوقت ذاته ويبين لهم ما في موقفهم هذا من تناقض .

يقول الله تعالى : « قالوا : إن تتبع الهدى معك تتخطف من أرضنا » .

كما يقول في سبيل الرد عليهم : « أو لم نمكن لهم حرماً آمناً يحى إليه غمرات كل شيء — رزقا من لدنا ولكن أكثر الناس لا يعلمون »

كما يقول أيضاً في سبيل الرد عليهم : « أو لم يروا أننا جعلنا حرماً آمناً ويتخطف الناس من حولهم ؟ »

أفبا لباطل يؤمنون ، وبنعمة الله هم يكفرون ؟

* * *

وثانى هذه العوامل : — الحسد

ويهيئ هذا العنصر العاطفي عندما يرى الحاسد إنساناً غيره قد وصل إلى ما لم يصل هو إليه ، أو لما كان يحلم هو بالوصول إليه من حيث إنه أمنية من أمنائه ، أو أمل من آماله .

وأكثر ما يكون هذا العنصر العاطفي هياجاً عندما تكون هناك تغييرات جذرية وخلخلات ثقافية واجتماعية . إذ في مثل هذه المرحلة تكون الضوابط غير قادرة على كبح جماح أصحاب العواطف الثائرة ...

وكان الذي يستهدفه محمد عليه السلام هو إحداث هذه التغييرات الجذرية في الحياة العربية . وإعادة بناء الإنسان العربي من جديد على أساس جديد .

وكان اليهود أكثر الناس حسداً لمحمد عليه السلام . وهذا هو الواضح من الآيات القرآنية الكريمة الواردة في شأن الحاسدين لمحمد عليه السلام .

لقد كانوا يذهبون إلى أن أمور النبوة والرسالة من خصائصهم ، فهم شعب الله المختار وهم أبناء الله وأحباؤه . فإن يجيء عربى من تلك الأمة الأمية - العرب - ويعلن أنه رسول الله إلى الناس ، أمر لم يكن ليخطر لهم ببال ...

لقد كانوا يتوقعون دائماً ظهور هذا النبي — ولكنهم كانوا يتوقعونه من جلسهم أو داعية لدينهم .

والآيات القرآنية الموضحة لهذا الموقف هي : —

يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب : يؤمنون بالجبّ والطاغوت ، ويقولون للذين كفروا : هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلاً :

أولئك الذين لعنهم الله ، ومن يلعن الله فلن تجد له نصيراً

أم لهم نصيب من الملك فإذا لا يؤتون الناس نقيراً ؟

أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ؟ ... » .

ويقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً . حسداً من عند أنفسهم ، من بعد ما تبين لهم الحق .

فاعفوا واصفحوا حتى يأتى الله بأمره ... »

ويقول الأستاذ الإمام عند تفسيره للآية الأولى من هاتين الآيتين ما يلي :

« إن اليهود حكموا بأن المشركين أهدى سبيلاً من المؤمنين ، وذلك من الحسد والغرور بأنفسهم . فإنهم يقولون ذلك مع أن المشركين يؤمنون بالجبّ

والطاغوت — فهم في شر حال . ثم هم يعيبون المؤمنين — مع أنهم في أحسن حال .

إن الله تعالى يقول : إن اليهود يريدون أن يضيق فضل الله بعباده ، ولا يحبون أن يكون لأمة من الأمم فضل أكثر مما لهم ، أو مثله ، أو قريباً منه — لما استحوذ عليهم من الغرور بنسبهم وتقاليدهم مع سوء حالهم .

فكأنه يقول :

هل غرر هؤلاء بأنفسهم تغيراً ؟

أم لهم نصيب من الملك في هذا الكون فهم ينعمون الناس فلا يؤتونه من نقيراً ؟

أم يحسدون الناس — أى العرب — على ما أعطاهم الله من فضله ؟ فقد آتينا آل إبراهيم الكتاب والحكمة . . . الخ والعرب منهم فهم من ذرية ولد إسماعيل ...

والحاصل أن حال اليهود يومئذ كان لا يبدو هذه الأمور الثلاثة :

إما غرور خادع يظنون معه أن فضل الله محصور فيهم ، ورحمته تضيق عن غير شعب إسرائيل من خلقه ...

وإما حسبان أن ملك الكون في أيديهم فهم لا يسمحون لأحد بشيء منه — ولو حقيراً كالنقير .

وإما حسد العرب على ما أعطاهم الله من الكتاب ، والحكمة ، والملك الذى ظهرت مبادئ عظمتة ... »

كما يقول عند تفسيره للآية الثانية :

« بيان لما يضررونه ، وما تكنه صدورهم للمسلمين من الحسد على نعمة

الإسلام التي عرفوا أنها الحق ، وأن وراءها السعادة في الدارين ولكنهم شق عليهم أن يتبعوهم فتمنوا أن يحرموا هذه النعمة ويرجعوا كفاراً كما كانوا .

ذلك شأن الحاسد — يتمنى أن يسلب محسوده النعمة ولو لم تكن ضارة به ، فكيف إذا كان يعلم أن تلك النعمة إذا تمت وثبتت يكون من أثرها سيادة المحسود عليه وإدخاله تحت سلطانه .

هذا ما كان يتوقمه علماء يهود في عصر التنزيل .

وقد جاء هذا التنبيه في هذه الآية تكملة لقوله تعالى : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ، ولا المشركين ، أن ينزل عليكم من خير من ربكم » .

وقد بين الله لنا ما كان من محاولة أهل الكتاب ، وتحيلهم على تشكيك المسلمين في دينهم ، كقول بعضهم لبعض بأن يؤمنوا أول النهار ويكفروا آخره — لئلا ضعف الإيمان يرجعون عن الإسلام اقتداء بهم . . .

وفائدة هذا التنبيه : أن يعلم المسلمون أن ما يبدو من أهل الكتاب أحياناً ، من إلقاء الشبه على الإسلام ، وتشكيك المسلمين فيه — إنما هو مكر السوء يبعث عليه الحسد .

وقال تعالى : حسداً من عند أنفسهم . .

ليبين أن حسدهم لم يكن عن شبهة دليية ، أو غيره على حق يعتقدونه ، وإنما هو : خبث النفوس ، وفساد الأخلاق ، والجود على الباطل وإن ظهر لصاحبه الحق . . .

ولذلك قال تعالى : من بعد ما تبين لهم الحق ... »

* * *

وعرض الأستاذ الإمام للبائع على هذا الحسد فقال : —

« وأهل الكتاب هم اليهود فهو — القرآن الكريم — لم يسند الحسد إلى غيرهم .

إنهم وقد سلب منهم الملك يتمنون عودته إليهم ، وقد كبر عليهم أن تسبقهم العرب إلى ذلك .

ولم يكن النصرارى يؤمئذ يحسدون المسلمين لأنهم متمتعون بملك واسع . ولا مشركو العرب لأنهم ما كانوا يظنون أن النبوة التي قام بها واحد منهم حق ، ولا أنها تستتبع ملكا ، وإن من ظهرت له حقيقة الدعوة صار مسلماً .

أما اليهود فإنه لم يؤمن ممن ظهرت لهم حقبة دعوة الإسلام إلا تفر قليل ، ومنع الحسد باقى الرؤساء أن يؤمنوا وتبعهم العامة تقليداً لهم .

وقلما يمنع الناس من اتباع الحق بعد ظهوره لهم مثل الحسد والكبر . فالحسود يؤثر هلاك نفسه على انقيادها لمن يحسده — لأن الحسد يفسد الطباع .

* * *

وثالث هذه العوامل : — الغضب

ويستند هذا العنصر العاطفى إلى غريزة المقاتلة .

ويستثار الغضب فى العادة عندما يغيظ الإنسان إنسان آخر ، أو عندما يفعل هذا الانسان الأخير ما يكره الإنسان الأول .

والغضب يدفع الإنسان إلى أحد موقفين : —

الأول : — المقاتلة ، دفاعاً عن النفس وعن رأى والمعتقد .

وهذا الموقف هو الذى يسبب الحرب الباردة ، أو الحرب الساخنة — الأمر

الذى نعرض له فى القسم الثالث من هذا الكتاب .

الثانى : — السكت أو الغيظ المكثوم .

وهذا الموقف هو الذى نعرض له فى هذا المقام .

إن الغيظ المكثوم إنما يسبب الحقد ، ويدفع إلى تشديد التكبر على الخصم .

إن الذين لا يعادون فى صراحة ، إنما يلجأون فى الأعم الأغلب إلى استخدام

الدس والوقعة — يستخدمونها فى الخفاء .

وقد يدفع الحقد بعض هؤلاء إلى أن يصبحوا من المنافقين

يقول الله تعالى مصوراً حالهم : « ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ،
وتؤمنون بالكتاب كله .

وإذا لقوكم قالوا : آمنا

وإذا خلاوا : عضوا عليكم الأنامل من الغيظ .

قل : موتوا بغيظكم . إن الله عليم بذات الصدور

إن تمسكم حسنة نسوّم ، وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها ، وإن تصبروا
وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً ... »

ويقول أيضاً : « وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوك . . . » .

* * *

ورابع هذه العوامل : الكبر أو الاستكبار والعناد .

ويقص القرآن الكريم علينا أنباء المستكبرين الذين دفعهم الكبر إلى العناد
ورفض الحقيقة ، والسخرية والاستهزاء بالمعادي بها والداعى إليها .

ونرى من بين هؤلاء المستكبرين إبليس وفرعون .

فإبليس كبر عليه أن يطيع أوامر المولى سبحانه وتعالى حين أمره بالسجود
لآدم عليه السلام ، ويدكر في صراحة أنه خير من آدم .

يقول الله تعالى : « وإذ قلنا للملائكة اسجدوا لآدم فسجدوا إلا إبليس
أبى واستكبر ... »

ويقول أيضاً : — « ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا
لآدم فسجدوا إلا إبليس لم يكن من الساجدين .

قال : ما منعك ألا تسجد إذ أمرتك ؟

قال : أنا خير منه خلقتني من نار وخلقته من طين .

قال : فاهبط منها فما يكون لك أن تتكبر فيها ، فاخرج إنك من الصاغرين ... »

وفرعون كبر عليه أن يستجيب لموسى عليه السلام .

يقول الله تعالى : « ثم بعثنا من بعدهم موسى وهارون إلى فرعون وملائه بآياتنا ، فاستكبروا وكانوا قوماً مجرمين . . »

ومثل إبليس وفرعون المستكبرون من أقوام صالح وشعيب عليهما السلام .

يقول الله تعالى في شأن المستكبرين من قوم صالح : —

« وإلى ثمود أخاهم صالحاً ... »

قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم ، أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه ؟

قالوا : إنا بما أرسل به مؤمنون .

قال الذين استكبروا ، إنا بالذي آمنتم به كافرون »

ويقول الله تعالى في شأن المستكبرين من قوم شعيب : —

« وإلى مدين أخاهم شعيباً ... »

قال الملأ الذين استكبروا من قومه : لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك ، من قريبتنا أو لنعودن في ملئتنا .

قال : أو لو كنا كارهين ... »

وواضح من هذه القصص أن المستكبرين إنما يكونون من الأغنياء ، ومن

الأقوياء ، ومن ذوى النفوذ والسلطان ...

والمستكبرون الذين وقفوا من محمد عليه السلام موقف المنكر أمره والاستهزاء به هم من هذا الصنف أيضاً - أو على أقل تقدير ، هذا ما تكشف عنه الآيات .

يقول الله تعالى في حق بعضهم : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ، ويتخذها هزوا .

أولئك لهم عذاب مهين .

وإذا تتلى عليه آياتناولى مستكبراً ، كأن لم يسمعها ، كأن في أذنيه وقرا ، فبشره بعذاب أليم »

ويقول في حق آخر : « ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً ، كأن لم يسمعها »

ويقول في حق ثالث : « إنه كان لآياتنا عنيدا :

سأرهقه صعوداً . إنه فكر وقدر . فقتل كيف قدر ، ثم قتل كيف قدر . ثم نظر . ثم عبس وبسر . ثم أدبر واستكبر . فقال : إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر... »

وفي القرآن الكريم آيات عديدة وردت في حق المستكبرين وفي موقف الله سبحانه وتعالى منهم يوم القيامة ، ونكتفي هنا بإيراد آية واحدة من هذه الآيات.

يقول الله تعالى : « ويوم يعرض الذين كفروا على النار ، أذهبتم طياتكم في الحياة الدنيا واستمتعتم بها . فاليوم تجزون عذاب الهون ، بما كنتم تستكبرون في الأرض بغير الحق ، وبما كنتم تفسقون ... »

ونختتم هذا الفصل لهذه الفقرة التي وردت في المنار عند تفسيره للآية القرآنية الكريمة : « سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق ... إلى آخره » .

هذا بيان لسنته تعالى في تكذيب البشر لدعاة الحق والخير ، من الرسل وورثتهم ...

وسببه الأول التكبر .

فإن من شأن الكبر أن يصرف أهله عن النظر والاستدلال على الحق

والهدى لأجل اتباعه ، فهم يسكونون دائماً من المكذبين بالآيات الدالة عليه ،
النافلين عنها .

وتلك حال الملوك ، والرؤساء ، والزعماء الضالين : كفرعون وملأته ...

وإنما ذكرت هذه السنة العامة بصيغة المستقبل ، للإعلام النبي صلى عليه
وسلم بأن الطاغين المستكبرين من مشيخة قومه لن ينظروا في آيات القرآن الدالة
على صدقة صلى الله عليه وسلم في دعوى الرسالة ...
والدالة على وحدانية الله تعالى ...

لتكبرهم في الأرض بالباطل

ووجهة نظرهم تنحصر في تفضيل أنفسهم عليه بأنهم سادة قريش وكبرأؤها
وأغنياؤها ، فلا يليق بهم أن يتبعوا من هو دونهم سناً ، وقوة ،
وثروة ، وعصبية .

والمعنى : سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بنير الحق من
قومك أيها الرسول ، ومن غيرهم في كل زمان ومكان — كما صرفت فرعون
وملائته عن آياتي التي أتيتها رسولي موسى ...

والتكبر صيغة تكلف أو تكثر — من الكبر الذي هو غمط الحق بعدم
الخضوع له ، واحتقار الناس .

فهو شأن من يرى أنه أكبر من أن يخضع لحق ، أو يساوى نفسه بشخص .
والأصل الغالب في التكبر أن يكون بنير الحق ...

وقد يتصور أن يتكلف الإنسان إعلاء نفسه على غيره ، أو إكثاره من
الاستملاء عليه ، بحق . كالترفع عن المبطلين ، وإهانة الجبارين ...

فقوله تعالى : بنير الحق ، ... أي أنهم يتكبرون حالة كونهم متلبسين بنير
الحق — أي منغمسين في الباطل .

وأمثال هؤلاء لاقيمة للحق في نفسه عندهم .

— ١٥٦ —

إنهم لا يطلبونه ، ولا يبحثون عنه .

وقد تظهر لهم آياته فيجحدونها ، وهم بها موقنون ...

كما قال تعالى في آل فرعون : « وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلماً
وعلوا .. »

وقال في طنأة قريش : « فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله
يجحدون ... »

القسم الثالث الغايات والوسائل

الغايات

أما النيات فواضحة تماماً ، وليس يخطئها أى قارئ للقرآن الكريم مهما يكن حظه من الثقافات اللغوية والثقافات الدينية . أنها تكشف عن نفسها عند قراءة القرآن ، أو عند سماع أية تلاوة للقرآن .

ونحن هنا لانستطيع أن نقف عند هذه النيات لنحدددها ونبينها غاية غاية ، فذلك أمر يطول شرحه ولا تتسع له صفحات هذا الكتاب .

إننا هنا إنما نقصد إلى التمييز بين نوعين من النيات يستهدفهما القرآن الكريم من الإنسان بصفة عامة والإنسان العربى بصفة خاصة . نوعين نعرف أن الوسائل التى إستخدمت فيهما قد إنتهت بهما إلى التحقيق .

فنحن حين نكتب هذا الكتاب عن « محمد والقوى المضادة » إنما نعرف مسبقاً أن محمداً عليه السلام قد إنتصر على هذه القوى المضادة ، وأن الكثيرين ممن كانوا ينتمون إلى هذه القوى قد تحولوا عنها ودخلوا فى الإسلام . نعرف ذلك ونعرف شيئاً أكثر منه هو أن هؤلاء حين دخلوا فى الإسلام حسن إسلامهم ، وأصبحوا قوة لا يستهان بها . قوة عز بها الإسلام ، وقوة قادت الحركة الإسلامية ، ونشرت الإسلام فى بلاد بعيدة عن الوطن الأصلى للإسلام .

لقد خرج الإسلام بفضلهم من الجزيرة ، وطوف فى الآفاق شرقاً وغرباً حتى وصل إلى بلاد أندونيسيا من الشرق ، وبلاد الأندلس من الغرب ..

هذه الوسائل التى حققت هذا النصر هى مقصدنا الأول ،

أما النيات فإنما نعرف عليها من أجل أنها المؤثرات التى نعتد عليها فى التعرف على مجموعة من هذه الوسائل :

* * *

والنوعان من النيات التى نريد التمييز بينهما هما : —

أولاً : النيات التى يستهدفها القرآن الكريم باعتباره دعوة جديدة

(م ١١ — عند)

تستهدف إحداث تغييرات جذرية في مجالات الحياة المختلفة ولا سيما المجال الدينى ،
والمجال الاجتماعى .

ثانياً : — الغايات التى يستهدفها القرآن الكريم باعتباره حواراً ببناء مع
معارضة قوية تستهدف القضاء على الدعوة الجديدة ، وصد الناس عن محمد عليه
السلام وإنصرافهم من حوله حتى لا يتأثرون بما يتلوه عليهم من الآيات
البيّنات .

والغايات التى من النوع الأول كثيرة العدد ومتنوعة من حيث أن مجالات
الحياة عديدة ومختلفة ...

ويمكن الإشارة إليها فى إيجاز بالإطارات التالية :

١ — الإصلاح الدينى الذى تناول الأركان الدينية الثلاثة التى قام عليها كل
دينى سماوى وهى : الإيمان بالله ، الإيمان بالبعث وما يتبعه من ثواب أو عقاب ،
العمل الصالح .

٢ — الإصلاح الذى تناول وظيفة الرسل ، وأجناسهم ، وأنواعهم ، وعدم
التفرقة بينهم من حيث الإيمان بهم .

٣ — الإصلاح الاجتماعى الذى يتناول الأسرة ، والأمة ، والأخوة الإنسانية ،
والحرية .

٤ — الإصلاح السياسى الذى يتناول مسائل الأمن والخوف . ومسائل
الحرب والسلام ، ومسائل العلاقات بين المسلمين وغيرهم ، ومسائل السياسات
الدولية .

٥ — الإصلاح المالى الذى يتناول أحوال الفقراء والمساكين واليتامى وأبناء
السبيل ومن إليهم ، والذى يتناول المكسب وعروض التجارة ، والذى يتناول
القروض والزبا وما أشبهه .

٦ — بيان مافى الإسلام من مزايا : وكونه دين الفطرة ، ودين العلم

والحكمة ، ودين الحجة والبرهان والحرية في الإستدلال، وتخطى الرجمة وضرب التقليد ، وما أشبه ...

وكل هذه الأشياء إنما تنهى عند تكوين الإنسان الجديد الصالح للحياة في المجتمع الجديد .

وقد أوردنا القرآن الكريم إلى الخصائص التي تتوفر في الإنسان الجديد ، وهي خصائص واردة في الآيات التالية : —

يقول الله تعالى في سورة « المؤمنون »

« قد أفلح المؤمنون .

الذين هم في صلاتهم خاشعون .

والذين هم عن اللغو معرضون .

والذين هم للزكاة فاعلون .

والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم
ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون .

والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون .

والذين هم على صلواتهم يحافظون .

أولئك هم الوارثون . الذين يرثون الفردوس هم فيها خالدون » .

ويقول تعالى في سورة الفرقان : —

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا وإذا خاطبهم الجاهلون
قالوا سلاما .

والذين يبيتون لربهم سجداً وقياما .

والذين يقولون : ربنا أصرف عنا عذاب جهنم إن عذابها كان غراما . أنها
سَاءت مستقرا ومقاما .

والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا ، وكان بين ذلك قواما .
والذين لا يدعون مع الله إلها آخر ، ولا يقتلون النفس التي حرم الله إلا بالحق ،
ولا يزنون ، ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه
مهانا ، إلا من تاب وآمن وعمل صالحا . . .

والذين لا يشهدون الزور وإذا مروا باللغو مروا كراما .
والذين إذا ذكروا بآيات ويهم لم يخروا عليها صما وعميانا .
والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا
للمتقين إماما . . .

أولئك يجزون العرفة بما صبروا ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها
حسن متقرا ومقاما » .

* * *

والغايات التي من النوع الثاني قليلة العدد ، وإن تكن أكثر أهمية من
الأولى ، من حيث قدرتها على كشف الوسائل القوية الفعالة التي غيرت من مواقف
القوى المضادة .

هذه الغايات تختلف باختلاف الفرقاء ، فهي عند أهل الكتاب غيرها عند
المشركين ، والذي يستهدف من أهل الكتاب غير ذلك الذي يستهدف من
المشركين . . .

والأسباب في ذلك واضحة ، وتدور حول اختلاف التركيب الثقافي ، والتركيب
الاجتماعي ، عند كل من أهل الكتاب والمشركون .

وهذا الاختلاف في التركيبين الثقافي والاجتماعي هو الذي خالف بينهم في

الغايات التي يستهدفونها من محمد عليه السلام ، وفي الوسائل التي يعتمدون عليها في تحقيق هذه الغايات .

* * *

كانت الغاية التي يستهدفها القرآن الكريم من أهل الكتاب هي الالتقاء مع محمد عليه السلام عند صيغة من صيغ التوحيد في الألوهية . وهذه الصيغة هي الواردة في الآية القرآنية الكريمة التي توجه محمدًا عليه السلام نحو مطالبتهم بتحقيق هذه الصيغة .

جاء في القرآن الكريم : « قل : يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم :

ألا نعبد إلا الله ، ولا نشرك به شيئاً ، ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله .

فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » .

ويرى المفكرون أن هذه الآية تقرر وحدانية الألوهية ، ووحدانية الربوبية . فأما وحدانية الألوهية فهي قوله تعالى : « ألا نعبد إلا الله » وأكدها سبحانه بقوله : « ولا نشرك به شيئاً » .

ويفسرون معنى الإله بقولهم : هو المعبود الذي تتوله العقول في معرفته ، وتدعوه ، وتصمد إليه ، لاعتقادها أن السلطة الغيبية له وحده .

وأما وحدانية الربوبية فهي قوله تعالى : « ولا يتخذ بعضنا بعضاً أرباباً من دون الله » .

فأرب هو السيد الرب الذي يطاع فيما يأمر وينهى . .

والمراد هنا من له حق التشريع ، والتحليل والتحرير . . .

قال الأستاذ الإمام : كان اليهود موحدين ، ولكن كان عندهم شيء هو منيع

شقاءهم في كل حين — وهو أتباع رؤساء الدين فيما يقررونه وجعله بمنزلة الأحكام المنزلة من الله تعالى .

وجرى النصارى على ذلك ، وزادوا مسألة غفران الخطايا — وهي مسألة تقام أمرها في بعض الأزمان ، حتى ابتلعت الكنائس أكثر أملاك الناس .

ومن القلو في هذه المسألة نبقت مسألة الإصلاح الديني ، إذ قام البروتستانت وقالوا : — هم بنا ترك هؤلاء الأرباب من دون الله ، وتأخذ الدين من كتابه ولا تشرك معه في ذلك قول أحد .

وبعض الأستاذ الإمام في تعليقاته فيقول عند قوله تعالى في ختام الآية السابقة : « فإن تولوا فقولوا : اشهدوا بأنا مسلمون » مايلي :

نعبد الله وحده غلصين له الدين ، لاندعو سواه ، ولا نتوجه إلى غيره في طلب نفع ولادفع ضرر ، ولا نحل إلا ما أحله ولا نهجر إلا ما حرمه . . .
والآية حجة على أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ بقول أحد مالم يسنده إلى المعصوم .
يعنى في مسائل الدين البحتة : المبادئ ، والحلال والحرام .

أما المسائل الدنيوية كالتقضاء والسياسة فهي مفوضة بأمر الله تعالى إلى أولى الأمر وهم : رجال الشورى من أهل الحل والعقد . فما يقررونه يجب على حكام المسلمين أن ينفذوه ، وعلى الرعية أن يقبلوه .

* * *

وكانت الغاية التي يستهدفها أهل الكتاب من محمد عليه السلام أن يرجع عن هذا الذي يدعو إليه ، وأن يدخل هو في ملتهم لأن يدخلوا هم في ملته .

وهذه الغاية تكشف عنها الآية القرآنية التالية : —

يقول الله تعالى : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى تتبع ملتهم .
قل : إن هدى الله هو الهدى .

ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى
ولا نصير . . . »

وكانوا يستهدفون الناية نفسها من الذين آمنوا بمحمد عليه السلام وهذا هو
الأمر الذى تكشف عنه الآية القرآنية العالية :

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا
الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين .

وكيف تكفرون وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله » .



وكانت الناية التى يستهدفها القرآن الكريم من المشركين والوثنيين من أبناء
الأمة العربية: هى التحول التام مما هم فيه من شرك وكفر إلى الإيمان بالواحد
الأحد ، وإلى الإيمان بالبعث وما فيه من جزاء ، وإلى القيام بالأعمال الصالحة التى
تحقق الخير العام .

وكانت غايته من القيادات التى تثير الجدل وتصد الناس عن الاستماع إلى
محمد عليه السلام ، قائلين لهم فيأحكي القرآن عنهم » : لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا
فيه لعلكم تغلبون » . كانت غايته منهم أن يصبحوا من القيادات الزائدة فى
المجتمع الجديد . فى الأمة التى تصبح بفضل الله ، وإيمان أهلها بالمعينة الجديدة ، خير
أمة أخرجت للناس .

كان يريد لهم وبهم الخير ، ولكنهم كانوا يقولون : « قلوبنا فى أكنة مما
تدعونا إليه ، وفى آذاننا وقر ، ومن بيننا وبينك حجاب ، فاعمل إننا عاملون » .
ويصور القرآن الكريم هذه الناية ، والحرص على تحقيقها فى آيات كثيرة
نكتفى منها بهاتين الآيتين : —

يقول الله تعالى : « هو الذى بعث فى الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ،
ويزكّيهم ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ، وإن كانوا من قبل لئى ظلال مبين » .

ويقول : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم . عزيز عليه ما عنتم . حريص عليكم . بالمؤمنين رؤوف رحيم » .

* * *

وكانت الغاية التي يستهدفها المشركون من محمد عليه السلام أن يرجع عن هذه الدعوة التي يدعوهم إليها ، والتي تخرجهم عما كانوا عليه من ديانات الآباء والأجداد . لقد كانوا يقيمون معه الحوار على هذا الأساس ، ويقولون له فيما حكى القرآن الكريم عنهم : « أتت بقرآن غير هذا أو بدله » .

ويصور القرآن نوعا من اللقاء يودونه منه ويسميه بالدهانة ، فيقول تعالى : « ودوا لو تدمن فيدهنون » .

ويضع القرآن الكريم حدا لهذا الحوار الهادم للدعوة الجديدة حين يوجه الحديث إلى محمد عليه السلام قائلا له : « وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفترى علينا غيره — وإذا لا تأخذوك خبيلا .

ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئا قليلا .

إذا لأذقناك ضعف الحياة وضعف المات ثم لا تجد لك علينا نصيرا . إلا رحمة من ربك .

إن فضله كان عليك كبيرا »

* * *

ونختتم هذه الفقرة بالإشارة العابرة إلى المسائل التالية :

أولا : أن القرآن الكريم كان يستهدف أمرين :

(أ) جذب الناس إلى الإسلام .

(ب) تركيبتهم ، وتغيير كل ما كان بأنفسهم .

ثانيا : — أن السير في سبيل تحقيق هاتين الغايتين هو الذي حمل المشركين

وأهل الكتاب على صد النبي بالقوة عن تلاوة القرآن في أى مكان : في البيت الحرام . وفي الأسواق . وفي المواسم . . . الخ .

لقد كان كل ما يطلبه النبي عليه السلام من قومه أن يمكنوه من تبليغ دعوة ربه بتلاوة القرآن في الناس .

جاء في القرآن الكريم تصويراً لهذا الموقف مايلي :

« إنما أمرت أن أعبد رب هذه البلدة الذي حرّمها ، وله كل شيء ، وأمرت أن أكون من المسلمين .

وأن أتلو القرآن . فمن اهتدى فإنما يهتدى لنفسه ، ومن ضل فقل إنما أنا من المذنبين .

وقل : الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها .

وماربك بغافل عما تعملون » .

ثالثاً : أن رؤساء قريش قد عرفوا من قوة جذب القرآن الكريم الناس إلى الإسلام بوقعه في أنفسهم ما لم يعرفه غيرهم .

وكانوا يعرفون في الوقت ذاته أن ليس لجمهور العرب مثل ما لهم من أسباب الجحود والمكابرة ، وأن محمداً لو ترك وتلاوة القرآن في الناس لانصرف العرب جميعاً عن دين الآباء والأجداد . ومن هنا تنادوا باتخاذ المواقف من محمد عليه السلام .

قال لهم عمه أبو لهب من أول الأمر : خذوا على يديه قبل أن تجتمع العرب عليه . ففعلوا .

وكان من ثباته على بث الدعوة واحتمال الأذى ، ما أفضى إلى تشديد النكير عليه ، وإيقاع أشد الأذى وأقوى الاضطهاد عليه وعلى من يؤمن به .

وكان من أمرهم معه أن أجمعوا أمرهم على قتله لولا عناية الله به وهجرته إلى المدينة .

— ١٧٠ —

ثم صاروا يقاتلونه في دار هجرته ، وفيما حولها . . . وينصره الله عليهم إلى أن
اضطروا إلى عقد الصلح معه .

وكان هذا الصلح سنة ست من الهجرة .
ويعرف هذا الصلح في التاريخ باسم صلح الحديبية .

الوسائل

والوسائل التي نتناولها بالحديث في هذا المقام ليست الوسائل المستثمرة في شر الدعوة الإسلامية، وفي جذب الناس إليها للإيمان بها وممارسة الحياة على أساس منها، وإنما هي الوسائل التي استخدمت في الصراع الذي قام بين محمد عليه السلام والذين معه من جافب، والمشركون وأهل الكتاب من الجانب الآخر. الوسائل التي استثمرت في محاولات تغلب فريق على فريق.

والوسائل من هذه الناحية يمكن تقسيمها أقساماً ثلاثة : —

قسم منها يدور حول الوسائل التي استثمرها المشركون في رفض دعوة محمد عليه السلام والعمل على القضاء عليه وعليها، وهذه الوسائل قد استثمرت في العهد المكي، ونقلنا لنا السور المكية صوراً كثيرة عنها وعن كيفية استثمارها.

وقسم آخر يدور حول الوسائل التي استثمرها المشركون وأهل الكتاب على حد سواء. استثمروها في العهد المدني محاولين بها نفس المحاولات الأولى، وزادوا عليها ذلك التشكيك في أمر محمد عليه السلام، وهو تشكيك قام به أهل الكتاب باعتبارهم أهل الكتاب الأول الذين يعرفون من أمر الرسل والأنبياء أكثر مما يعرف العرب الأميون الذين لا كتاب لهم.

وقسم ثالث، وهو أهمها جميعاً، يدور حول الوسائل التي اعتمد عليها محمد عليه السلام بتوجيه من القرآن الكريم في التغلب على خصومه من المشركون، وأهل الكتاب.

وأهمية هذا القسم تلعب من مصدرين : —

الأول : — أن هذه الوسائل هي التي حققت أهدافها، فنحن نعلم جميعاً أن محمداً عليه السلام هو الذي انتصر، وأن الإسلام قد ساد مكة والمدينة ثم الجزيرة العربية ثم بلاداً أخرى عديدة خارج أرض الجزيرة وخارج نطاق البلاد العربية.

لقد هزم المشركون وأهل الكتاب، ولنا حريصين أبدأ على أن نتفط طويلاً عند وسائل المهزوم أو المغلوب.

يجب أن تكون هذه الوقفة مع الوسائل التي حققت نجاحا لندرك كيف أديرت هذه الوسائل حتى حققت أهدافها وبلنت غاياتها .

إن هذا الإدراك هو الوسيلة للاستفادة من هذه الوسائل في معركتنا الحالية التي يدور فيها الصراع من حولنا ، وفي داخل أوطاننا ، وفي داخل أنفسنا .

الثاني : — أن هذه الوسائل قد حققت غاياتها لأنها أديرت في هذا الصراع بتوجيه من القرآن الكريم .

إن عقيدتنا الدينية إنما تنبع من القرآن الكريم . والمسلمون في كل بلاد العالم مطالبون بممارسة الحياة على أساس من تلك التوجيهات التي جاء بها القرآن الكريم .

إن وقفنا مع هذه الوسائل الناجحة التي أدارها محمد عليه السلام بتوجيه من القرآن الكريم قد تكون وقفة دبلية إلى جانب كونها وقفة سياسية أو ثقافية أو حربية . . .

وهذا البعد الديني لهذه الوسائل هو الذي يكشف عن مدى فاعلية كل وسيلة — وبخاصة تلك الوسائل التي استثمرها كل من المشركين ، وأهل الكتاب ، ومحمد عليه السلام .

إن إدارة الوسيلة هو الذي يفرق بين إنسان وإنسان .
وحسن إدارة الوسيلة والسكيفية التي بها تدار هو الذي يمكنها من بلوغ غاياتها .
ومن تحقيق أهدافها .

* * *

وقبل أن نستعرض هذه الأقسام الثلاثة من الوسائل كل قسم على حدة نشير إلى بعض الظواهر :

فأولا : — هذه القسمة لا تدل على تمييز واضح لكل قسم من هذه الأقسام ، وتحديد دقيق لكل وسيلة منها :

لقد وردت هذه الوسائل في بعض الآيات مجتمعة غير متفرقة ، ووردت في معرض الرد عليها تفصيلا في أقل الحالات وإجمالا في الكثير منها .

ولقد وردت هذه الوسائل في معرض السؤال والجواب . السؤال الذي يقصد به تعجيز النبي عليه السلام ، والجواب الذي يوجه محمداً عليه السلام إلى كيفية الإجابة أو الرد .

ووردت أيضاً في معرض الحوار الجدلى الذي يقصد منه توضيح الحقائق والتمييز فيما بينهما — ذلك التمييز الذي ينتهى إلى إحقاق الحق وإبطال الباطل .

ولقد وردت أيضاً في صيغة التجربة البشرية — تلك التجربة التي عانى فيها الرسل والأنبياء ما يعانیه محمد عليه السلام ، والتي توحى إليه بأن موقف قومه سيكون مثل مواقف أقوام جميع الرسل وكل الأنبياء .

إنها سنة الله في خلقه .

هذا الإيراد على هذه الصورة جعل هذه الوسائل مجتمعة لا متفرقة ، ومختلطة لا متميزة .

إننا حين تفصل بينها هنا إنما نفعل ذلك ليدرك القارئ مراحل الصراع — كل مرحلة على حده . وليستبين القارئ الأبعاد المختلفة لفاعلية كل وسيلة من هذه الوسائل .

هذا إلى جانب المراحل المتميزة في الصراع ا وهى المرحلة المسكية والمرحلة المدنية . ففي الأولى كان المشركون وحدهم هم القوة المضادة . وفى الثانية كان المشركون وأهل الكتاب .

وثانياً : — هذه القسمة هى التى تكشف لنا استمرار واستخدام الوسيلة الواحدة أو عدم استمرارها .

فهل ظل للوسيلة فاعليتها فى كل من مكة والمدينة — أى منذ أن بدأ الصراع إلى نهايته ، أو وقعت هذه الفاعلية عند مرحلة بعينها .

وهل إستخدم جميع الفرقاء هذه الوسيلة أو نفر منها فريق وإستخدمها فريق .
قالل امثلا كقوة فى الصراع اعتمد عليه الفرقاء جميعاً بما فيهم محمد عليه السلام .

والإستهزاء والسخرية كقوة في الصراع قد استثمره المشركون في مكة ، ثم استثمره المشركون وأهل الكتاب في المدينة ، ولم يستثمره محمد عليه السلام — كما هو الواضح من توجيهات القرآن .

وظاهرة النفاق مثلاً لم تظهر في الصراع المكي وظهرت في الصراع المدني من كل من المشركين وأهل الكتاب ، ولم تظهر أبداً من قبل محمد عليه السلام وقبل الذي آمنوا به وكانوا معه طرفاً في هذا الصراع .

إن إيراد هذه الأقسام كل قسم على حده ، وإيراد كل هذه الوسائل كل وسيلة على حده ، هو الذي يكشف لنا كل ما أشرنا إليه من أبعاد .

ونستطيع أن نأخذ الآن في استعراض كل قسم من الأقسام مشيرين إلى وسائله المختلفة كل وسيلة على حده ، ومنتهين من الحديث عن كل وسيلة في الموقف الواحد الذي بدأنا فيه دراستها والحديث عنها حتى لا نعزدها مرة ثانية إلا إذا اضطررنا إلى ذلك هذا المقام أو ذاك .

القسم الأول وسائل المشاركين

وقع الصراع بين محمد عليه السلام والمشركين منذ اللحظات الأولى التي أعلن فيها محمد عليه السلام أن الوحي قد هبط عليه من السماء ، وأن عليه منذ هذه اللحظات أن يعلن في الناس أنه رسول الله إليهم .

واستجاب محمد عليه السلام للوحي ، وأعلن في الناس أنه رسول الله إليهم فأمنت به قلة قليلة ، وأنكرته كثرة كاثرة .

ووقفت هذه الكثرة عقبة في سبيله ، وأخذت تستخدم الوسيلة تلو الوسيلة في صد الناس عنه ، وانصرافهم عن هذا الذي يدعو إليه من دين جديد .

كان هذا الدين الجديد بالنسبة إليهم عملية تخريرية ، لأنه يحدث تغيرات جذرية في معتقداتهم ، وفي تقاليدهم وعاداتهم ، وفي علاقاتهم بالسماء وعلاقاتهم بالفقراء والعبيد والإماء ، وباليتامى والمحتاجين ومن إليهم ممن ينظر إليهم السادة من فريش نظرة إزدراء . كانوا يتوهمون أول الأمر أن به مساً من جنون ، وأن هذا المس قد أصابه من حيث إنه قد أغضب الآلهة .

والقرآن الكريم يكشف عن هذه الحقائق حين يسجلها في آيات قرآنية كريمة .

يقول الله تعالى مسجلاً عليهم فيهم فيه : « إن نراك إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء » .

ويقول في الرد عليهم : « ن . والقلم وما يسطرون . ما أنت بنعمة ربك بجنون . وإن لك لأجراً غير ممنون . وإنك لعل يخلق عظيم ، فستبصر ويبصرون . بأيكم المقنون » .

ويقول من نفس السورة مسرياً عن محمد عليه السلام ما هو فيه من هم دائم :

« فاصبر لحكم ربك ولا تسكن كصاحب الحوت إذ نادى وهو مكظوم : لولا أن تداركه نعمة من ربه لنبذ بالعراء وهو مذموم . فاجتبه ربه فجعله من الصالحين . وإن يكاد الذين كفروا ليزلقونك بأبصارهم لما سمعوا الذكر ويقولون : إنه لمجنون .

وما هو إلا ذكر للعالمين »

ويعضى محمد عليه السلام في دعوته ويمضون هم في التأثير عليه حتى ينصرف عن هذه الدعوة ، ويستثمرون في ذلك من الوسائل ما يلي :

الصراع اللفظي :

بدأ الصراع لفظياً أول الأمر ثم أخذ يزداد حدة وإتقالا إلى أن كانت الغزوات والحروب آخر الأمر .

بدأ الصراع باستبعاد أن يكون محمد عليه السلام رسول الله حقاً ، وأن الله قد اختاره وهو اليتيم . الراعى . الأجير . ليكون رسوله إلى الناس .

لقد كذبوه أول الأمر — ولكن إصراره في موقفه هذا قد دفعهم إلى أن يأتوا بالكذب في صورة ساخرة ، ليتخذوا من الاستهزاء به والسخرية منه أداة للهوان والإذلال فينصرف الناس عنه .

والسخرية والاستهزاء من الوسائل اللفظية أو الوسائل المعنوية التي استثمرت في كل من مكة والمدينة . استثمرها المشركون أولاً في مكة ، ثم استثمرها المشركون وأهل الكتاب في المدينة . .

والذين استثمروها في العهد المدني لم يسكنوا جميعاً صرخاء وواخى العداوة . فقد كان من بينهم منافقون مردوا على النفاق .

ويقص القرآن الكريم صوراً عديدة من سخرية هؤلاء الفرقاء بمحمد عليه السلام .

من ذلك أنه عليه السلام كان إذا صر يقوم يشيرون إليه إشارة استخفاف واستهزاء ، ويتفوهون بما لا يليق بمقامه كرسول من رب العالمين .

فيقول الله تعالى موجها إليه الكلام ، ومصورا بعض هذه الحالات : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا

أهذا الذى يذكر أهلكم ؟ . . »

كما يقول : « وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا

أهذا الذى بعث الله رسولا ؟ »

ويقول أيضا : « وقال الذين كفروا : هل ندلكم على رجل يغبثكم إذا مزقتم كل ممزق إنكم لئن خلقتم جديد . . . »

ويقول مشيرا إلى قيل لهم يستهزون به فيه — على أساس من أساليب البلغاء الأقدمين : « وقالوا : يا أيها الذى نزل عليه الذكر إنك لمجنون .

لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين »

* * *

وامتدت سخرتهم به إلى الطقوس الدينية التى كان يقوم بها ، والأعمال الدينية التى كان يتولاها .

كانوا يؤدون هذه الأعمال ويقومون بهذه الطقوس فى صورة ساخرة — مستهزئين به وبها .

يفعلون ذلك فى تلاوة القرآن الكريم ، ويفعلونه فى إقامة الصلاة ، وفى غيرها .

لقد كان عليه السلام يتلو القرآن على المؤمنين به ، وعلى الذين يرى حسن

استعدادهم للاستجابة لدعوته ، وكان القرآن الكريم يحدث آثارا حسنة في أنفس المستمعين للنبي عليه السلام وللقرآن الكريم . وكانوا يضيّقون ذرعا بهذا الذي يحدثه القرآن في أنفس الناس فيصدون الناس عن الذهاب إلى محمد عليه السلام للاستماع له حيناً ، ويجلسون هم يتلون على الناس كلاماً يرون له قدرة صرف الناس عن الاستماع إلى محمد عليه السلام .

كانوا يوهمون الناس بما يفعلون أن محمداً عليه السلام لا يتلو عليهم كلاماً ينزل من السماء ، وإنما يتلو عليهم كلاماً على عليه ويكتبه .

كانوا يقولون فيما حكى القرآن الكريم عنهم : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأغانه عليه قوم آخرون . فقد جاءوا ظلماً وزوراً .

وقالوا : أساطير الأولين اكتبناها فهي تلى عليه بكرة وأصيلاً »

كما كانوا يقولون : « أن لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين » ويحكي المفسرون والساكتيون للسيرة النبوية أن النضر بن الحارث كان يجلس مجلس محمد عليه السلام يفعل فعله مقلداً أو ساخراً بالنبي عليه السلام وبالقرآن .

قالوا : كان النضر هذا يختلف إلى أرض فارس ليسمع أخبارهم عن رستم ، واسفنديار ، وكبار المعجم .

وكان يمر باليهود والنصارى فيسمع منهم التوراة والإنجيل .

وكان يجلس يحدث الناس موحياً إليهم بأن أخبار القرآن الكريم عن الرسل وأقوامهم ليست إلا من قبيل ما يقص هو عليهم من أخبار ملوك المعجم . وأنها ليست من وحى الله ، وليست من أخبار الغيب ، وأنه يأتي بمثلها .

وفي النضر هذا زلت الآية القرآنية الكريمة : « ومن الناس من يشتري لهو الحديث ليضل عن سبيل الله بغير علم ويتخذها هزواً — أولئك لهم عذاب مهين .

وإذا تلى عليه آياتنا ولى مستكبرا كأن لم يسمعها ، كأن فى أذنيه وقرا فبشره
بعذاب أليم »

* * *

واستمرت هذه الوسيلة فى العهد المدنى ، وتناولت فيما تناولت الأعمال الدينية
وآيات الله اليبينات .

ومن الأعمال الدينية التى تناولها المشركون واهل الكتاب بالسخرية والاستهزاء :
الصلاة ، فكانوا يقلدون فيها محمدا عليه السلام ، يفعلون مثله ولكن فى
سخرية واستهزاء .

والقرآن الكريم هو الذى يسجل عليهم هذا الصنيع فى مقام تحذيره المؤمنين
من أن يتخذوا من السافرين المستهزين أولياء .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا الذين اتخذوا دينكم هزوا
ولعبا من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم والكفار أولياء ، واتقوا الله إن
كنتم مؤمنين .

وإذا ناديتكم إلى الصلاة اتخذوها هزوا ولعبا ، ذلك بأنهم قوم لا يعقلون »

ولم تسلم الفزوات والحروب من الحديث الساخر الذى يقعد بالناس عن طلب
المعالى ، وكان أكثر الناس سخرية فى هذا المقام هم الذين يظهرون الإسلام
ويبطنون الكفر — أولئك الذين يرففون فى ذلك الوقت بالمنافقين .

يقول الله تعالى فى شأنهم : « يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما
فى قلوبهم . .

قل : إن الله مخرج ما كنتم تحذرون

ولئن سألتهم ليقولن : إنما كنا نخوض ونلعب

قل : أبا الله وآياته ورسله كنتم تستهزون ؟ »

وصنعوا مثل ذلك الصنيع مع العاملين في ميدان الزكاة فكانوا يستهزون بهم ويسخرون منهم أيضاً .

يقول الله تعالى : « الذين يلهمون الطوعيين من المؤمنين في الصدقات ، والذين لا يجدون إلا جهدهم فيسخرون منهم . . »

سخر الله منهم ، ولهم عذاب اليم »

* * *

وحتى لاتعمل السخرية فعلها في نفس النبي ، وفي أنفس المؤمنين به والواقفين إلى جانبه ، اخذت الآيات القرآنية تحذرم وتبصرهم بالموقف وأبعاده ، ومن ذلك دعوة المسلمين إلى عدم الجلوس مع المستهزين الساخرين — وبخاصة المنافقين الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر .

وفي ذلك يقول الله تعالى : « وقد نزل عليكم في الكتاب ! أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ، ويستهزئ بها ، فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره . »

إنكم إذا مثلهم .

إن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعا »

هذا ما كان من أمر الآيات مع الذين مع محمد عليه السلام . أما أمرها مع النبي نفسه فيمكن شرحه على هذا الأساس .

أولا : — أن تلك سنة الله في خلقه . والقرآن الكريم يؤكد في كثير من الآيات موقف الأثوم من الرسل ، وأنهم يسلبون . بهم هذه السبل .

إن الأثوم يعتبرون المرسلين من الشخصيات الخارجة على القانون ، أو على

التقاليد والعادات ، لأنهم ينادون ببطلان الأفكار والآراء التي يعيش عليها المجتمع ويمارس حياته على أساس منها ، ويدعون في الوقت ذاته إلى اعتناق آراء جديدة لا يرى الناس فيها خبراً ، ومن ثم ينكرونها ويضعون العقبات في طريقها .

وتأخذ الأقوام في السخرية بالأفكار الجديدة وبالاستهزاء بالداعين لها لعل أن يكون في ذلك القضاء عليها .

يقول الله تعالى موجها الحديث إلى محمد عليه السلام : « وكم أرسلنا من نبي في الأولين ، وما يأتيهم من نبي إلا كانوا به يستهزئون »
ويقول : « يا حشرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون »
وثانياً . — أن وظيفة الرسل ليست إلا التبليغ — إلا البشارة والإنذار .
أما دفع الناس إلى الإيمان ، وكف الناس عن الباطل ، فغاية ليس يلزم أن تكون من عملهم المباشر .

إن عليهم التبليغ والإقناع

يقول الله تعالى : « وما أرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين .
ويجادل الذين كفروا بالباطل ليدحضوا به الحق ، واتخذوا آياتي وما أنذروا هزوا .
أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقاءه فخبطلت أعمالهم ، فلا نقيم لهم يوم القيامة وزناً .

ذلك جزاؤهم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزوا »

وثالثاً : — أن العقاب سينزل بأمثال هؤلاء ، وعلى ذلك فلا يصح للنبي أو الرسول أن يعبأ بهم أو يقلق لما يقولون ويفعلون من سخرية واستهزاء .
يقول الله تعالى موجها الخطاب إلى محمد عليه السلام : « ولقد استهزئ برسول من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزئون »

— ١٨٦ —

ويقول . « ولقد استهزى برسلك من قبلك فأملت للذين كفروا ثم أخذتهم فكيف كان عقاب » .

ويقول : « فأصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

إنا كفييناك المستهزئين »

وصدق الله العظيم



التعذيب البدني :

حين لم تنفع الوسيلة الأولى في صرف محمد عليه السلام عن هذا المعتقد الجديد الذي يدعو إليه ، فكر المشركون في وسيلة أخرى تنضاف إليها ليكون إلى جانب التعذيب المعنوي الذي هو أثر من آثار الاستهزاء والسخرية . تعذيب آخر يدنى تلاقيه أجسام محمد عليه السلام والذين معه .

وفي القرآن الكريم آية من الآيات ين الله فيها على محمد عليه السلام ويذكره بأيام له مضت كان المشركون فيها يمحرون به ، ويحاولون تعذيبه أو القضاء عليه لولا فضل الله عليه وعنايته به .

هذه الآية هي قوله تعالى : « وإذ يمحرون بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك .

ويعذبون ويعكر الله .

والله خير الماكرين » .

ويشرح المفسرون هذه الآية فيقولون : اذكر أيها الرسول في نفسك ما نقصه في الكتاب على المؤمنين والكافرين في عهدك ومن بعدك . . .

اذكر ذلك الزمن القريب الذي يمحرون بك فيه الذين كفروا من قومك في وطنك ، بما يدبرون فيما بينهم سرّاً من وسائل الإيقاع بك . .

ليثبتوك .

أو يقتلوك .

أو يخرجوك .

فأما الإثبات فالمقصود به : الشد بالوثاق ، والإرهاق بالقيد ، والحبس المانع من لقاء الناس ودعوتهم إلى الإسلام .

وأما القتل فالمكر فيه يكون في طريقة تنفيذه ، وصفته الممكنة التي لا يكون ضررها فيهم باعتبارهم قتله ، عظيما .

وأما الإخراج فهو النفي من الوطن . . .

وقد كان التشاور في هذه المسائل الثلاث بدار الندوة . . .

ويحدثنا المفسرون وكتاب السيرة عن الكيفية التي جرى عليها أمر هذا التشاور فيقولون : إن نفرا من قريش ، من أشرف كل قبيلة ، اجتمعوا ليدخلوا دار الندوة ، فاعترضهم شيخ جليل . فلما رأوه قالوا : من أنت ؟

قال : شيخ من أهل نجد . سمعت بما اجتمعتم عليه فأردت أن أحضركم ، ولن يعدمكم مني رأى ونصح .

فدخل معهم وقال : انظروا في شأن هذا الرجل ، فوالله ليوشكن أن يؤاتيك في أمركم بأمره .

فقال قائل : احبسوه في وثاق ، ثم تربصوا به المنون حتى يهلك كما هلك من كان قبله من الشعراء : زهير والنابغة ، فإنما هو كأحدهم .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى . والله ليخرجن رائد من حبسه لأصحابه ، فليوشكن أن يئبوا عليه حتى يأخذوه من أيديكم ثم يمنعوه عنكم . فما آمن عليكم أن يخرجوكم من بلادكم ، فانظروا في غير هذا الرأي .

فقال قائل : فأخرجوه من بين أظهركم فاستريحوا منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع ، وأين وقع . وإذا غاب عنكم أذاه استرحتم منه ، فإنه إذا خرج لم يضركم ما صنع وكان أمره في غيركم .

فقال الشيخ النجدي : لا والله ، ما هذا لكم برأى ، ألم تروا حلاوة قوله ،

وطلاقة لسانه ، وأخذته للقلوب مما تسمع من حديثه . والله لئن فعلتم ثم استعرض
العرب ليجتمعن إليه وليسبن إليكم حتى يخرجكم من بلادكم ويقتل أشراقكم .

قالوا : صدق والله ، فانظروا رأيا غير هذا . . .

فقال أبو جهل : والله لأشيرن عليكم برأى لا أرى غيره .

قالوا : وما هذا .

قال : نأخذ من كل قبيلة غلاماً ، وسطاً ، شاباً ، نهذا ، ثم يعطى كل غلام
منهم سيفاً صارماً ، ثم يضربونه به ضربة رجل واحد . فإذا قتلتموه تفرق دمه في
القبائل كلها فلا أظن هذا الحى من بنى هاشم يقدر أن يفرق دمه على حرب قریش كلهم .
وإنهم إذا رأوا ذلك قبلوا العقل ، واسترحنا ، وقطعنا عنا أذاه . . .

فقال الشيخ النجدي : هذا والله هو الرأى . القول ما قال الفتى ،
لا أرى غيره .

وتفرقوا على ذلك وهم مجتمعون له .

أتى جبريل النبي عليه السلام وأمره ألا يبيت في موضعهم الذى كان يبيت
فيه ، وأخبره بمكر القوم .

لم يبت النبي عليه السلام في بيته تلك الليلة ، وأذن له عند ذلك في الخروج
وأمره بالمهجرة .

وسائر خير الهجرة معروف .

ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين .

هذا بيان لحالهم العامة الدائمة في معاملته عليه السلام هو ومن معه من
المؤمنين . . .

أى وهكذا دأبهم معك ، ومع من اتبعك ، يمكرون بك ويمكر الله بهم .

كما فُعل من قبل إذ أُحبط مكرهم ، وأخرج رسوله من بينهم إلى حيث مهد له في دار الهجره ووطن السلطان والقوة .

والله خير الماكرين من حيث أن مكره نصر للحق وإعزاز لأهله ، خذل للباطل وإذلال لأهله ، وإقامة للسنن وإتمام للحكم . . .

* * *

وفي القرآن الكريم قصة تشبه إلى حد ما هذه القصة التي يحكيها المفسرون - قصة محاولة قتل محمد عليه السلام .

يقول الله تعالى : « ولقد أرسلنا إلى ثمود أخاهم صالحاً أن اعبدوا الله فإذا هم فريقان يختصمون .

قال : يا قوم ، لم نستعجلون بالسيئة قبل الحسنة ، لولا تستغفرون الله لعلكم ترحموا . »

قالوا : اطيرنا بك وبمن معك .

قال : طائر كم عند الله ، بل أنتم قوم تفتنون .

وكان في المدينة تسعة رهط يفسدون في الأرض ولا يصلحون ، قالوا : تقاسموا بالله ، لنبئنه وأهله ثم لنقولن لوليه ما شهدنا مهلك أهله ، وإنا لصادقون . ومكروا مكرزاً ، ومكرنا مكرزاً ، وهم لا يشعرون .

فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين ، فتلك بيوتهم خاوية بما ظلموا — إن في ذلك لآية لقوم يعلمون .

وأنجبنا الذين آمنوا وكانوا يتقون . »

وهذا الذي قصة القرآن الكريم فيما يخص محاولتهم تعذيب النبي عليه السلام وقتله لولا عناية الله به ، تقص مثله كتب السيرة فيما يخص السابقين الأولين من المسلمين .

لقد حاول المشركون صرفهم عن هذا الدين الجديد بإيقاع الأذى البدني بهم ،
وتحمل المسلمون الأولون كل صنوف العذاب في سبيل المبدأ والعقيدة .

لقد ضربوا لنا الأمثال ، وأعطونا الأئمة الذي يجب أن يحتذى .

وهذا الذي فعله المشركون قد أستماء القرآن بالفتنة وجعل الفتنة التي من هذا
القبيل أشد من القتل .

ومن الذين ذاقوا العذاب صنوفاً : عمار بن ياسر وعشيرته ، وبلال ، وصهيب ،
وخباب بن الأرت ، وغيرهم .

كان عمار يعذب بالنار . يسكوى بها ليرجع عن الإسلام .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم يمر به ويرى أثر النار به كالبرص .

وعن أم هانئ قالت : إن عمار بن ياسر ، وأباه ، وأخاه عبد الله ، وسمية أمه ،
كانوا يعذبون في الله . فر بهم النبي صلى الله عليه وسلم فقال : صبرا آل ياسر : صبرا
آل ياسر . فإن موعدكم الجنة .

مات ياسر في العذاب . كانوا يلبسونه درعا من الحديد المحمى في اليوم القائل
يعذبه بحره .

وأعطيت سمية أم عمار لأبي جهل يعذبها ، وكانت مولاة لعمه أبي حذيفة بن
المغيرة — وهو الذي عهد إليه بتعذيبها .

عذبها أبو جهل عذاباً شديداً رجاء أن تفتن عن دينها فلم تجبه .

كان يقول لها : ما آمنت بمحمد إلا أنك عشقته لجماله — يؤذيها بالقول كما
كان يؤذيها بالفعل . .

وذات يوم طعنها في فرجها بحربة فانت رضى الله عنها — وكانت عجوزاً
كبيراً .

وكان أمية بن خاف يعذب بلالا يفتنه عن دينه .

كان يجميعه ، ويعطشه ليلة ويوما ، ثم يطرحه على ظهره في الرمضاء — أى

— ١٩٢٢ —

يضعه على الزمل المجمعى بجمرة الشمس الذى ينهض اللحم .
 وكان يضع على ظهره صخرة عظيمة ويقول له : لا تزال هكذا حتى تموت أو
 تكفر بحمد ، وتعبد اللات والعزى ، فيأبى ذلك .
 وكانوا يعطونه للولدان فيربطونه بحبل ويطوفون به فى شعاب مكة وهو
 يقول : أحد أحد .
 وحكى خباب رضى الله عنه عن نفسه قال : لقد رأيتنى يوماً وقد أوقدت لى
 نار وضموها على ظهري فإطفأها إلا ودك ظهري — أى دهنه .

* * *

هذه نماذج من التعذيب البدنى أوقفها المشركون بالمسلمين الأولين . — وبخاصة
 العصفاء منهم .
 لقد امتنع عليهم من له عصبية فى قومه ، ومن عز على قومه تركا لهم فلموه
 حية وأتفه لقربته منهم .
 والله سبحانه وتعالى هو الذى منهم من محمد عليه السلام ، وهذا هو الذى يثبت
 القرآن الكريم .

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه عليه السلام : « إنا كفيناك المستهزئين »
 ولم يقف أمر المشركين مع المسلمين عند هذا الحد ، وإنما تابعهم فى مهجرهم
 الجديد بأسلوب جديد هو الحرب التى تتحدث عنها فى فقرة خاصة بها .
 ونكتفى هنا . بإيراد هذه الآية القرآنية الكريمة . . .
 يقول الله تعالى : « ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دياركم
 إن استطاعوا » .
 وصدق الله العظيم .

* * *

وتبقى بعد ذلك إشارة إلى عملية التفكير في قتل النبي عليه السلام من حيث إنها ظاهرة اجتماعية . وليست حالة خاصة به وحده عليه السلام .

وفي القرآن الكريم آيات تدل على هذه الظاهرة ، وعلى قتل اليهود بصفة خاصة لأنبيائهم . ولكننا نكتفى من ذلك بالوقوف عند آية واحدة بالذات هي : — « إن الذين يكفرون بآيات الله ، ويقتلون النبيين بغير حق ، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس فبشرهم بعذاب أليم .

أولئك الذين حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وما لهم من ناصرين » فهذه الآية واضحة في أن القادة الذين يقولون أمور الإصلاح الديني ، والإصلاح الاجتماعي ، ممرضون دائماً للأذى ، ومعرضون لنوع كبير من الأذى هو القتل . ويقول صاحب المنار إن المقصود بالآية هم اليهود خاصة من حيث إنه قد نسب إليهم قتل زكريا ويحيى .

ويقول إن المراد بالذين يأمرون بالقسط من الناس : الحكماء . وهذه نص عبارته : « أى الحكماء الذين يرشدون الناس إلى العدالة العامة في كل شيء ويجعلونها روح الفضائل وقوامها . ومرتبة هؤلاء في الهداية والإرشاد تلي مرتبة الأنبياء ، وأثرهم في ذلك على أثرهم .

إن جميع طبقات الناس تلقف بهدى الأنبياء ، كل صنف بقدر استعداده . وأما الحكماء فلا يلقف بهم إلا بعض الخواص المستعدين لتلقى الفلسفة . . . إن دعوة النبي على ما تختص به من التأييد الإلهي وتأثير روح الوحي ، لها ثلاثة مظاهر بينها الله تعالى في قوله : « ادع إلى سبيل ربك : — بالحكمة .

والموعظة الحسنة .

— ١٩٤ —

وجادلهم بالتي هي أحسن . »

فالحكمة ، ما يدعى به العقلاء وأهل النظر من : البراهين والحجج .

والموعظة ، ما يدعى به العوام والسذج .

والجدل بالتي هي أحسن للمتوسطين الذين لم يرتقوا إلى الاستعداد لطلب
الحكمة ، ولا يلقادون إلى الموعظة بسهولة : بل يبحثون بحثا ناقصا ، فلا بد من
الحسنى في مجادلتهم : ومخاطبتهم على قدر عقولهم . . .

وأما الحكماء فإن لهم طريقة واحدة في الدعوة إلى الحق والفضيلة مبنية على
طلب العدل في الأفكار والأخلاق .

وقد يكون الحكميم الذي يدعو إلى ذلك متدينا ، ويجرى في الإقناع بالدين
على الطريقة المذكورة آنفا .

وقد يكون غير متدين ، وهو مع ذلك يدعو إلى القسط والعدل من طريق
العقل بحسب ما وصل إليه علمه — مع الصدق والإخلاص . . .

والإقدام على قتل هؤلاء دليل على غمط العقل ، ومقت العدل . .

وأقبح بذلك جرما .

وكفى به إثما »

٣

الهجرة أو اللجوء السياسى :-

كانت الهجرة هى الوسيلة الوحيدة التى اعتمد عليها محمد عليه السلام فى مواجهة الذين تأمروا على قتله من بنى قومه من المشركين . وكانت هذه الهجرة بتدبير من المولى سبحانه وتعالى لينتهى مكر قريش قبل أن يحقق غايتهم . وهذا هو الذى ترشد إليه الفقرة التالية من الآية التى أشرنا إليها من قبل :-

« ويمكرون ، ويمكر الله ، والله خير الماكرين »

ولم تكن هجرة محمد عليه السلام إلى المدينة هى الأولى من نوعها ، كما لم تكن هى الأخيرة ، فقد سبقها هجرات وتلتها هجرات . سبقها هجرات المسلمين الأولين إلى الحبشة . وتلتها هجرات المسلمين الذين لحقوا بالنبي عليه السلام بالمدينة بعد أن اتخذها مستقراً ومقاماً .

وأسباب هذه الهجرات أو البواغث عليها لم تكن واحدة وإن تكن متتالية ومتتابعة ، بحكم المراحل التاريخية التى تمر بها الدعوة .

كانت هجرات المسلمين الأولين فراراً من الأذى والعنت الذى يلحق بهم من المشركين ، فقد كان المشركون يذيقونهم من العذاب ضرباً وألواناً ، ومن الاضطهاد صنوفاً وأنواعاً .

وكانت هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة بوحى من الله سبحانه وتعالى ، فلم تكن فراراً من القتل فحسب وإنما كانت لاتخاذ المدينة المنورة مركزاً للدعوة الإسلامية ، ومنطلقاً للثوار الذى يبشرون وينذرون ويحدثون تغييرات جذرية فى المجتمعات العربية .

وكانت الهجرات التى تلت هجرة النبي عليه السلام إلى المدينة بسبب إمداد

القوى البشرية المتركة في المدينة بفيض من التأثيرين القادرين على إعزاز الدين ، وتقوية المسلمين ، واسترداد حقوق المهاجرين الأولين من القرشيين الذين اضطهدهم وأخرجوهم .

وهذا السبب الأخير هو الذى جعل الهجرة واجباً دينياً عند من لا يستطيع ممارسة الحياة اليومية على أساس من عقيدته الدينية .

وقبل أن نعرض عليك موقف القرآن من الهجرة والمهاجرين نشير إلى أن هذا الموقف يشبه في مجلته وتفصيله المواقف التى تضطر الناس إلى اللجوء السياسى ، والتى بسبب منها تقررت حقوق دولية تعرف بحقوق اللاجئين السياسيين .

إن المهاجرين قوم فرأوا من وجه السلطة بسبب ما تنزله السلطة بهم من أذى واضطهاد . أذى ينالهم بسبب عقيدتهم وآرائهم التى يخالفون فيها معتقدات السلطة وآرائها وأفكارها .

واللاجئون السياسيون ليسوا إلا فئة من الناس تضطهد بسبب أفكارها وآرائها التى تعارض بها السلطة ، أو تطالب فيها بغايات وطنية أو قومية معينة . إن الموقف فى حالات المهاجرين واللاجئين لا يحتمل أكثر من واحد أو أكثر من الأمور التالية : —

١ — الانصراف عن التفكير فى القضايا العامة طلباً للعافية والسلامة .

٢ — الصمت الظاهرى ، والعمل فى الخفاء ، وإنشاء الشعب السرية التى تنشر الأفكار والآراء بدون إذن السلطة .

٣ — الهجرة أو اللجوء السياسى حين يعرف الثائرون أو المخالفون للسلطة ، وتعمل السلطة على اضطادهم ووقوع الأذى الذى لا يحتمل بهم .

٤ — تحمُّل السلطة للآراء المخالفة ، وتقديرها للحرية الفكرية ، وإذنها للنقد البناء ، وتجاوبها إلى حد ما مع التأثيرين .

وموقف القرآن من الهجرة ، أو من قضية اللجوء السياسى باستعمال العصر الحديث يمكن تلخيصها على الوجه التالى : —
فأولاً : لهم منزلة خاصة بهم عند الله تعالى . منزلة يفضلون بها غيرهم فى الدنيا ، وفى الآخرة .

يقول الله تعالى : « فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم ، وأوذوا فى سبيلى ، وقتلوا وقتلوا ، لا كفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلتهم جنت تجري من تحتها الأنهار — ثواباً من عند الله ، والله عنده حسن الثواب » .
ويقول : « والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبؤتهم فى الدنيا حسنة . ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون »
وهذه المنزلة على هذا الأساس تعتبر من الحوافز التى تحبب للناس الهجرة فى سبيل المبدأ والعقيدة .

وثانياً : إن الهجرة ضرورة من ضرورات الحياة الفكرية والاعتقادية حين تكون فى مقابلة النذل والاستضعاف .
يقول الله تعالى : « إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا : كنا مستضعفين فى الأرض .

قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فهاجروا فيها ؟ فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ، إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم ، وكان الله عفواً غفوراً .

ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة .
ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله — وكان الله غفوراً رحيماً »

ويعلق الأستاذ الإمام على هذه الآيات تعليقات نختار من بينها ما يكفي في توضيحها .

قال : هذه الآيات في الهجرة نزلت في سياق أحكام القتال ، لأن بلاد العرب كانت في ذلك العهد قسمين : —

دار هجرة المسلمين ومأمنهم .
ودار الشرك والحرب .

وكان غير المسلم في دار الإسلام حرا في دينه لا يفتن عنه ، وحرا في نفسه لا يمنع أن يسافر حيث شاء . . .

وأما المسلم في دار الشرك فكان مضطهدا في دينه يفتن ويعذب لأجله ، ويمنع من الهجرة إن كان مستضعفا — لا قوة ، ولا أولياء يحمونه .

وكانت الهجرة لأجل هذا واجبة على كل من أسلم ليسكون حرا في دينه ، آمنا في نفسه . وليكون وليا ونصيرا للنبي عليه السلام والمؤمنين الذين كان الكفار يهاجمونهم المرة بعد المرة . ولتلقى أحكام الدين عند نزولها .

وكان كثير منهم يكتم إيمانه ويخفي إسلامه ليتمكن من الهجرة . وفي مثل هذه الحال ينقسم الناس بالطبع إلى أقسام :
منهم من ذكرنا .

ومنهم القوي الشجاع الذي يظهر إيمانه وهجرته ، وإن عرض نفسه للمقاومة .
ومنهم من يؤثر البقاء في وطنه بين أهله لأنه لضعف إيمانه يؤثر مصلحة الدنيا التي هو فيها على الدين .

ومنهم الضعيف المستضعف الذي لا يقدر على التفتل من مراقبة المشركين وظلمهم ، ولا يدري أية حيلة يعمل ولا أى طريق يسلك .

وقد بين الله في هذه الآيات حكم من يترك الهجرة لضعف دينه وظلمه لنفسه

— مع — دبرته عليها لو أرادها . ومن يتركها لمجزه وقلة حبلته وظلم
المشركين له . . .

والعنى إن الذين تقوفاهم الملائكة بقبض أرواحهم بعد انتهاء آجالهم حالة
كونهم ظالمى أنفسهم بعدم إقامة دينهم وعدم نصره وتأييده ، وبرضاهم بالإقامة
فى الذل والظلم حيث لآحرية لهم فى أعمالهم الدينية ، تقول لهم الملائكة بعد توفىها
لهم : فم كنتم ؟

قالوا كنا مستضعفين فى الأرض — هو اعتذار عن تقصيرهم الذى وبُخُوا
عليه — أى أننا لم نستطع أن تكون فى شىء يعتد به من أمر ديننا لاستضعاف
الكفار لنا .

رد الملائكة عليهم هذا العذر بقولهم : « ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا
ففىها » وتحجروا أنفسكم من رقى الذل الذى لا يلىق بالمؤمنين ، ولا هو من
شأنهم ؟

أى إن استضعاف القوم لكم لم يكن هو المانع لكم من الإقامة معهم فى دارهم ،
بل كنتم قادرين على الخروج منها مهاجرين إلى حيث تكونون فى حرية من أمر
دينكم ، ولم تفعلوا . . .

انتهى كلام الأستاذ الإمام .

وثالثا : — أن العلاقة بين المهاجرين والمواطنين فى البلاد التى يهاجر إليها
علاقة قوية متينة — أو هكذا يجب أن تكون .

يقول الله تعالى : « إن الذين آمنوا ، وهاجروا ، وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم
فى سبيل الله ، والذين آووا ونصروا — أولئك بعضهم أولياء بعض .

والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم فى شىء حتى يهاجروا — وإن
استنصروكم فى الدين فمليكم النصر إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق . . .
والذين كفروا بعضهم أولياء بعض . . .

والذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله ، والذين آووا ونصروا ، أولئك هم المومنون حقا . . .

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم ، فأولئك منكم . . .
فالذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم هم الصنف الأول ، وهو الأفضل والأكمل .
والذين آووا ونصروا ، هم الصنف الثاني .

وصفهم القرآن الكريم بأنهم الذين آووا الرسول ومن هاجر إليهم — ولولا ذلك لم تحصل فائدة الهجرة ، ولم تكن الهجرة مبدأ القوة والسيادة .
والإيواء يتضمن معنى التأمين من المخافة .

وقد كانت يثرب مأوى وملجأ للمهاجرين شاركهم أهلها في أموالهم وآثروهم على أنفسهم ، وكانوا أنصار رسول الله يقاتلون من قاتله ويعادون من عاداه .

وجعل القرآن الكريم حكم الأنصار حكم المهاجرين في قوله : « أولئك بعضهم أولياء بعض » — أى يتولى بعضهم من أمر الآخر أفرادا أو جماعات مايتولونه من أمر أنفسهم عند الحاجة من تعاون وتناصر في القتال ، ومايتعلق به من النوائم ، وغير ذلك ، لأن حقوقهم ومرافقهم ومصالحهم مشتركة . . .
والذين آمنوا ولم يهاجروا . . .

هذا هو الصنف الثالث من أصناف المؤمنين وهم المقيمون في أرض الشرك تحت سلطان المشركين وحكمهم .

وحكم هؤلاء أنه لا يثبت لهم شيء من ولاية المؤمنين الذين في دار الإسلام — إذ لا سبيل إلى نصر أولئك لهم ، ولا إلى تنفيذ هؤلاء أحكام الإسلام فيهم .
والآية حق مشترك على سبيل التبادل .

ولكن المولى سبحانه وتعالى خص من عموم الولاية المنقبة، الشاملة لما ذكرنا من الأحكام ، شيئا واحدا . . .

« وإن استنصروكم في الدين فعليكم النصر »

فأثبت لهم من ولاية أهل دار الإسلام حق نصرهم على الكفار إذ قاتلوهم أو اضطهدوهم لأجل دينهم — وإن كانوا هم لا ينصرون أهل دار الإسلام بعجزهم ثم استثنى من هذا الحكم حالة واحدة فقال تعالى : « إلا على قوم بينكم وبينهم ميثاق » — يعنى إنما يجب عليكم أن تنصروهم إذا استنصروكم في الدين على الكفار الحربيين دون المعاهدين ، فهؤلاء يجب الوفاء بعهدهم لأن الإسلام لا يبيح الغدر والخيانة بنقض العهود والمواثيق .

والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم . . . هذا هو الصنف الرابع ، وهو من تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى . وحكمهم أنهم يلتحقون بالمهاجرين الأولين ، والأنصار ، فيما تقدم بيانه من الأحكام .

ورابعا : — أن لهم حقا في مال الدولة يستعينون به على الجهاد ، وفي المعيشة اليومية للحياة .

وهذا الحق له أثره المباشر في العدالة الاجتماعية من حيث إنه الوسيلة التى تحد من الغنى الفاحش والثراء العظيم . إنه يمنع تراكم الأموال عند الأغنياء .

يقول الله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى : فله وللرسول ولذئ القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل ، كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم . وما آتاكم الرسول فخذوه .

وما نهاكم عنه فانتهوا .

واتقوا الله إن الله شديد العقاب ،

للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة . ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون . . . »
وصدق الله العظيم

* * *

وتبقى بعد ذلك كلمة عن الأسباب التي من أجلها شرعت الهجرة ، كما ذكرها صاحب تفسير المنار .

قال رحمه الله : إن الهجرة شرعت لثلاثة أسباب أو حكم . اثنان منها يتعلقان بالأفراد والثالث يتعلق بالجماعة .

أما الأول فهو : أنه لا يجوز لمسلم أن يقيم في بلد يكون فيها مضطهدا في حريته الدينية والشخصية .

فكل مسلم يسكن في مكان يفتن فيه عن دينه أو يسكن ممنوعا من إقامته فيه كما يعتقد ، يجب عليه أن يهاجر منه إلى حيث يكون حرا في تصرفه وإقامته دينه — وإلا جاز له الإقامة .

وأما الثاني فهو : تلقى الدين والتفقه فيه .

وكان ذلك في عصر النبي صلى الله عليه وسلم خاصا بالزمن الذي كان فيه إرسال الدعاة والمرشدين من قبله صلى الله عليه وسلم متعذرا لقوة المشركين على المسلمين وصددهم إياهم عن ذلك .

ولا يجوز لمن أسلم في مكان ليس فيه علماء يعرفون أحكام الدين أن يقيم فيه ، بل يجب أن يهاجر إلى حيث يتلقى الدين والعلم .

وأما الثالث المتعلق بجماعة المسلمين فهو : أنه يجب على مجموع المسلمين أن تكون لهم جماعة أو دولة قوية تنشر دعوة الإسلام ، وتقيم أحكامه وحدوده ، وتحفظ بيضته ، وتحمي دعائه وأهله من بني الباغين ، وعدوان المعادين ، وظلم الظالمين . . .

فإذا كانت هذه الجماعة أو الدولة أو الحكومة ضعيفة يخشى عليها من إغارة الأعداء ، وجب على المسلمين أينما كانوا وحيثما حلوا أن يشدوا أزرها حتى تقوى وتقوم بما يجب عليها .

فإذا توقف ذلك على هجرة البعيد عنها إليها ، وجب عليه ذلك وجوبا قطعيا لاهوادة فيه — وإلا كان راضيا بضعفها، ومعينا لأعداء الإسلام على إبطال دعوته وخفض كلمته .

كانت هذه الأسباب الثلاثة متحققة قبل فتح مكة فلما فتحت قوى الإسلام على الشرك في جزيرة العرب كلها وصار الناس يدخلون في دين الله أفواجا والذي صلى الله عليه وسلم يرسل إلى كل جهة من يعلم أهلها شرائع الإسلام ، فزال سبب وجوب الهجرة لأجل الأمن من الفتنة والقدرة على إمامة الدين .

وسبب وجوبها لأجل التفقه في الدين — إلا نادرا .

وسبب وجوبها لتأييد جماعة المسلمين وتقويتهم ونصرهم على من كان يحاربهم لأجل دينهم . ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية، وإذا استنفرتم فانفروا .

رواه أحمد والشيخان وأكثر أصحاب السنن .

وبما لا مجال للخلاف فيه أن الهجرة تجب دائما بأحد الأسباب الثلاثة ، كما يجب السفر لأجل الجهاد إذا تحقق سببه .

وأقوى موجبات الجهاد اعتداء الكفار على بلاد المسلمين واستيلاؤهم عليها .

القسم الثاني

وسائل أهل الكتاب والمشرّكين

كان بنو إسرائيل ، ولا يزالون ، ممن يجيدون الدعاية عن أنفسهم — يفعلون ذلك بالحق وبالباطل ، ويملنون في الناس من المناقب والخصائص ما يميزهم عن غيرهم ، وما يجعل لهم مكانة ممتازة عند الآخرين .

• وهذا الصنيع الذي يقوم به بنو إسرائيل هو الذي من أجله أسماهم القرآن الكريم بالذين يزكون أنفسهم .

يقول الله تعالى : « ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلا .

أنظر كيف يفترون على الله الكذب ، وكفى به إثما مبينا »

وكان بنو إسرائيل يزكون أنفسهم لدى العرب الجاهليين من قبل اختيار محمد بن عبد الله عليه السلام نبياً رسولاً .

كانوا يقولون للعرب : نحن أبناء الله وأحباؤه .

وكانوا يقولون لهم : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات .

وفعلت هذه الأقوال ومثيلاتها في أنفس العرب فعلمها ، وتركت في النفوس آثارها .

ويحكي القرآن الكريم أن العرب الجاهليين قد تمنوا على الله تعالى أن يبعث فيهم رسولاً ، وأن ينزل عليهم كتاباً ، وأنه حين يفعل يبعثهم أكثر من هؤلاء الذين يزكون أنفسهم هداية من الله وطاعة لله .

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لن يراجعهم نذير ليكون أهدى من إحدى الأمم »

ويقول : « وهذا كتاب أنزلناه مباركاً فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون .

أن تقولوا إنما أنزل الكتاب على طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراسته لناقلين .

أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدى منهم ...

فقد جاءكم بينة من ربكم ، وهدى ورحمة . » .

استقر في أنفس العرب الجاهليين أن بنى إسرائيل هم أهل الكتاب الأول ، وأنهم يدركون من قضايا الدين وقضايا الأنبياء مالا يدرك غيرهم ، وأنهم الذين يستطيعون التعرف على الصادق وعلى الكاذب من النبيين أو المتنبئين ..

وحين نزل القرآن الكريم ، وحين مضى محمد بن عبد الله عليه السلام في دعوته ، وحين قامت المعارضة المكينة في وجهه ، نزلت الآيات القرآنية تؤيد موقفه اعتماداً على هذه الظاهرة الثقافية .

يقول الله تعالى : « وأنه لتنزيل رب العالمين ، نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين .

وأنه لنفى زبر الأولين .

أو لهم يكن آية أن يعلمه علماء بنى إسرائيل »

ويقول الله تعالى : « قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به ، وشهد شاهد من بنى إسرائيل على مثله ، فآمن واستكبرتم .. »
ويقول : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك .

لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممتزجين »

* * *

لم يحدث خلاف بين محمد بن عبد الله عليه السلام وأهل الكتاب طوال العهد المكي ، ويرجع ذلك فيما نرى إلى سببين هامين : —

الأول منهما : — أن معارضة المكين لمحمد عليه السلام كانت قوية ، وكان بنو

إسرائيل يتوقعون من قوتها القضاء على الدعوة الجديدة ، وعلى محمد بن عبد الله نفسه .

الثانى : — أن وجود محمد عليه السلام فى مكة يجعل خطره ، مع موقفه الضعيف ، على أهل الكتاب خطراً ضئيلاً يكتفى فيه ، بالتعرف على الأخبار ، وعلى مسيرة هذه الدعوة الجديدة ، وهذا الداعى الجديد ، والعقبات الموضوعة فى الطريق : .
كان ذلك اثناء مقامه عليه السلام فى مكة .

أما حين هاجر إلى المدينة واتخذ منها مستقراً ومقاماً ، فقد بدأ عمله بتحديد العلاقات مع الذين يساكنونه فى المدينة أو يعيشون على مقربة منها . وكان ذلك منه رأياً صائباً ، فلم يكن يحق له أن يباشر عمله الثورى الذى يستهدف تغييرات جذرية فى معتقدات الناس ، وفى قيمهم السلوكية ، قبل أن يتعرف على التركيب الثقافى والاجتماعى لـكل منهم ، وقبل أن يحدد علاقته مع كل فئة من الناس أو مجموعة منهم .

تحددت علاقته بالذين يساكنونه المدينة ، والذين يعيشون من حولها ، على
على الوجه التالى :

أولاً : --- جماعة هى معه قلباً وقالباً . وأولئك هم الذين آمنوا به وصدقوه ، والذين عاهدوه على أن يكونوا معه فى كل حال ، وأن يمنعوه مما يمنعون منه أنفسهم وأهليهم . فهم يصادقون من يصادقه ويعادون من يعاديه :

وهذه الجماعة هى التى عرفت فى التاريخ الإسلامى بإسم « الأنصار » لأنهم آووا النبي على السلام ونصروه .

ثانياً : — جماعة صالحوه ووادعوه على : ألا يحاربوه ، وألا يظاعروا عليه ، وألا يعينوا عليه عدوه أو يوالوه ...

وكان الشرط : أن ييقوا على دينهم ، وهم في الوقت ذاته آمنون على دماءهم وأموالهم .

وهؤلاء هم أهل الكتاب ، وكانت الكثرة الكثيرة منهم من اليهود .
ثالثاً : — جماعة وقفوا منه موقف العدو منذ اللحظات الأولى ، وقد كانوا استمراراً للقوى المضادة في مكة .

وهؤلاء هم جماعة المشركين الذين يعبدون الأوثان ، وينكرون البعث ، ويقولون بتعدد الآلهة .

رابعاً : — جماعة تاركوه فلم يصالحوه ، ولم يحاربوه ، وانتظروا ما يثول إليه أمره وأمر أعداءه .

ومن هذه الجماعة من :

(أ) كان يحب في الباطن انتصار محمد بن عبد الله عليه السلام على أعداءه .

(ب) ومن كان يحب انتصار أعداءه عليه والقضاء عليه وعلى دينه .

(ح) ومن دخل معه في الظاهر وهو مع عدوه في الباطن ، يبتغى من وراء ذلك أن يأمن شر الفريقين : محمد عليه السلام ، والقوى المضادة الواضحة العدو .
وهؤلاء هم الذين يعرفون في القرآن الكريم باسم « المنافقين » .

ويقول الله تعالى فيهم « بشر المنافقين بأن لهم عذاباً أليماً الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين .

يبتغون عندهم العزة ؟

فإن العزة لله جميعاً »

وكان على محمد عليه السلام أن يعامل كل جماعة من هذه الجماعات حسب التبدلات التي تقع في مواقفها منه ، وحسب ما يأمره به المولى سبحانه وتعالى .

وأعلمنا نعرف جميعاً أن هذه التبدلات التي وقعت قد انتهت جميعاً إلى أن تكون في صالحه : وكان ذلك بفضل الله الذي وعد في كتابه العزيز بالنصر .
« إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ، ويوم يقوم الإشهداد »

* * *

أحس اليهود بخطر محمد عليه السلام عندما أخذ المسلمون يهاجرون إليه من مكة فيقوى بهم ويعتز ، وعندما أخذ المدنيون يدخلون في الدين الجديد ، ويماهدونه على مؤاخاة المهاجرين إليه ، والوقوف إلى جانبه وجانبهم .
وأخذ اليهود في الكيد له متحليين من تلك اليهود التي صالحوه عليها ، ولم يكن ذلك منهم إلا إستجابة لخلقية لهم تقوم دائماً على عدم الوفاء بالعهود .
يقول الله تعالى : « وإذ أخذنا ميثاق بني إسرائيل : لا تعبدون إلا الله ، وبالوالدين إحساناً وذو القربى واليتامى والمساكين ، وقولوا للناس حسناً ، وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة .

ثم توليتم إلا قليلاً منكم ، وأنتم معرضون .
وإذ أخذنا . يثاقكم : لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ...
ثم أقررتم وأنتم تشهدون .

ثم أنتم هؤلاء : تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقاً منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان ، وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم أخرجهم .

أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض ؟
فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب .

— ٢١٢ —

وما الله بفاعل عما تعملون » .

ويقول : « أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون » .

وتبدو مظاهر هذا التحلل من العهد في استثمار أهل الكتاب للوسائل التالية :

التشكيك في أمر محمد عليه السلام .

من المناقب التي كان بنو إسرائيل يعدونها لأنبياءهم ، أنهم يبشرون بالأنبياء الذين يحيثون من بعدهم . فالنبي منهم يبشر بالنبي الذي يليه من بعده ليعتم الفاموس .

وتدور هذه البشارات حول بعض الصفات التي تعرف بالنبي ، وبعض الخصائص التي تميزه عن غيره .

والقرآن الكريم يشير إلى هذه البشارات في أكثر من آية ، ويؤكد بهذه البشارات نبوة الأنبياء بصفة عامة ونبوة محمد بن عبد الله عليه السلام بصفة خاصة . يقول الله تعالى : « وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما آتيتكم من كتاب وحكمه ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم ، لتؤمنن به ، ولتعصرنه .

قال : أأقررتهم ، وأخذتهم على ذلكم إصرى ؟

قالوا : أقرنا .

قال : فاشهدوا ، وأنا معكم من الشاهدين .

فمن تولى بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون . أفغير دين الله يبغون ؟

ويقول : « وإذا قال عيسى بن مريم : يا بني إسرائيل إني رسول الله إليكم ، مصدقا لما بين يدي من التوراة ، ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد . فلما جاءهم بالبينات قالوا : هذا سحر مبين » .

ويقول : « واكتب لنا في هذه الدنيا حسنة وفي الآخرة ، إنا هدنا إليك . »

قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شيء ، فساكتبها

للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون .

الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم . . .

فالذين آمنوا به ، وعززوه ، ونصروه ، واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون ... » .

والبشارة التي يبشر بها النبي بمن يجيء بعده ، وتصديق النبي للأنبياء الذين جاءوا من قبله ، يؤكدان معنى الاستمرار ومعنى التنوير في الأديان المتلاحقة أو المتتابعة .

والاستمرار يتركز في عناصر أصيله ثلاثة :

الأول منها : — الإيمان بالله — الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، الذي لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد .

الثاني : — الإيمان بالبعث وما يتبع البعث من حساب ، وما يتبع الحساب من ثواب أو عقاب .

يوم لا تجزى نفس عن نفس شيئاً ، والأمر يومئذ لله .

الثالث : — العمل الصالح .

فمن عمل صالحاً فلنفسه ، ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد .

وما حدث لهذه العناصر الثلاثة وأخرجها من صيغها التي ذكرنا ، اعتبر إنحرافاً عن المسيرة السليمة للدين القويم .

وهذا الاستمرار هو الذي تشير إليه الآية القرآنية الكريمة : « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا ، والذي أوحينا إليك ، وما وصينا به إبراهيم وموسى

وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » .

والتغير الذى نشير إليه هو ذلك الذى يلحق ببعض المحرمات الدينية وبعض العبادات التى يتوجه بها إلى الخالق جل وعلا .

هذا إلى جانب التشريعات المرتبطة بحياة المجتمعات وهى بطبيعتها متغيرة .

وهذا التغير هو الذى تشير إليه القرآنية الكريمة : « لكل جعلنا منكم شرعه ومنها جاء » .

وسبق لنا أن عرضنا لهاتين المسألتين ، وذكرنا موقف المفسرين ، وموقف إخوان الصفا منهما .

* * *

واستمرار العناصر الأصلية الثلاثة فى كل دين من الأديان السابقة على الاسلام، وفى دعوة كل نبي من الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد عليه السلام، هو الذى من أجله كان هذا التوجيه لمحمد عليه السلام .

لقد طلب القرآن الكريم منه أن يعلن فى الناس هذا الإعلان :

« قل : آمنا بالله ، وما أنزل علينا ، وما أنزل على إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط ، وما أتى موسى وعيسى والنبيون من ربهم ... »

لا نفرق بين أحد منهم •

ونحن له مسلمون .. » •

ونرى نحن ، من هذه التوجيهات ، أن محمد بن عبد الله عليه السلام كان يؤمن بما جاء به موسى ، وبما جاء به عيسى ، وأنه لم يقف من دعوتيهما موقف العداء • إنه إنما جاء مصداقاً لما معهما •

يقول الله تعالى : « الله لا إله إلا هو الحى القيوم . نزل عليك الكتاب بالحق

مصدقاً لما بين يديه ، وأنزل التوراة والإنجيل من قبل هدى للناس . وأنزل
الفرقان ... » .

وإن الذين وقفوا موقف العداء إنما هم بنو إسرائيل . ولم يكن عداؤهم
بسبب المسائل الدينية بقدر ما كان بسبب الرياسات الديلية والنفوذ الشخصي
والمكانة الاجتماعية ...

لقد كان محمد بن عبد الله عليه السلام ، والذين معه ، يطمعون في وقوف أهل
الكتاب إلى جانبهم — ولكن، ذلك لم يحدث .

والقرآن الكريم يكشف للنبي عليه السلام وللمؤمنين البواعث الحقيقية في عدم
تحقيق هذا الذي يطمعون فيه .

يقول الله تعالى : « أفطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون
كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون .

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا :
أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ، أفلا تعقلون ؟
أولا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون » .

فهم أولا : يحرفون الكلام بعد أن يعرفوا مضمونه ، ويقفوا على حقيقة
المراد منه .

وهم ثانياً : يتصارحون في أنه لا يحق لفريق منهم أن يتحدث إلى المسلمين
في الأمور التي يتخذ منها المسلمون الحجة والدليل على أن محمداً مرسل من
ربه حقاً .

أي أنهم يتواصون بكتان الحقيقة التي تثبت نبوة محمد بن عبد الله
عليه السلام .

والتحريف الذي يلجأون إليه في أمر محمد عليه السلام أمر قديم فيهم

يقومون به منذ زمن موسى عليه السلام . فمن شأنهم أنهم يحرفون الكلام عن مواضعه .

وتحريف الكلام يطلق على معنيين .

الأول منهما : — تأويل القول بحمله على غير معناه الذى وضع له — وهو المتبادر — لأنه هو الذى حملهم على مجاهدة النبي عليه السلام وإنكار نبوته . وهم يعلمون ، من حيث أنهم أولوا ، ولا يزالون يؤولون البشارات به حتى اليوم .

وقد كانوا يؤولون ماورد في المسيح عليه السلام ، ، ويحملونه على شخص آخر لا يزالون ينتظرونه .

والثاني منهما : — أخذ كلمة أو طائفة من الكلام من موضع من الكتاب ووضعها في موضع آخر .

وقد حصل مثل هذا التشويش في كتبهم : خلطوا فيما يؤثر عن موسى عليه السلام بما كتب بعده زمن طويل .

وكذلك وقع في كلام غيره من الأنبياء .

وقد أعترف بهذا الذين درسوا التوراة من علماء الغرب ولا سيما الألمان .

وقد كان ذلك منهم بقصد الإصلاح .

وهذا النوع من التحريف لا يضر المسلمين ، ولم يكن هو الحامل على إنكار

نبوة محمد عليه السلام

* * *

والكتمان الذى يلجأون إليه في أمر محمد عليه السلام للتشكيك في نبوته يقوم

على واحدة من اثنتين : —

الأولى : — حذف أوصافه ، والبشارات به ، من كتبهم .

والثانية : — حمل الأوصاف التي وردت فيه ، والدلائل التي تثبت نبوته ، على غيره — حتى إذا سئلوا هل لهذا النبي ذكر في كتبكم ، قالوا : لا وقد عاتبهم القرآن الكريم على ذلك في أكثر من آية .

يقول الله تعالى : « يا أهل الكتاب : لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق ، وأنتم تعلمون »

ويقول : « إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب ، أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون »

ويقول صاحب المنار عند تفسيره لهذه الآية : « كان علماء أهل الكتاب يكتمون بعض ما في كتبهم : بعدم ذكر نصوصه للناس عند الحاجة إليه أو السؤال عنه .

كالبشارات بالنبي صلى الله عليه وسلم وصفاته ...
والكتمان هنا عبارة عن : إنكارهم أخبار أنبياءهم عنه وبشارتهم به صلى الله عليه وسلم ، وجعلهم ذلك حجة سلبية على إنكار نبوته .

كانوا يقولون : إن الأنبياء يبشر بعضهم ببعض ولم يبشروا بأن سيبعث نبي من العرب أبناء إسماعيل ، ولم يجيء ببيان في كتبهم عن دينه وكتابه ...

فالله سبحانه وتعالى يقول : إنهم يكتمون ما أنزل الله في شأن محمد عليه السلام من بعد ما بينه لهم في الكتاب ... »

* * *

وكان من وسائلهم في التشكيك — إلى جانب كتمانهم النصوص ،

وتحريف بعضها الآخر — ذكر بعض الأسباب التي تدفعهم إلى عدم الإيمان به نبياً مرسلًا . يفعلون ذلك هم والمشركون على حد سواء .

ويحكي القرآن عنهم ذلك في سبيل الرد عليهم .

يقول الله تعالى : « الذين قالوا : إن الله عهد إلينا ألا نؤمن برسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار .

قل : قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم ، فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين ؟ »

ويقول : « فلما جاءهم الحق من عندنا .

قالوا : لولا أوتى مثل ما أوتى موسى .

أو لم يكفروا بما أوتى موسى من قبل ؟

قالوا : سحران تظاهراً ، وقالوا : إنا بكل كافرون .

قل : فاتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منها أتبعه بأن كنتم صادقين .

فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ..

ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله ، إن الله لا يهدي القوم الظالمين .. »

ويقول : « وإذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله .

قالوا : نؤمن بما أنزل علينا .

ويكفرون بما وراءه ، وهو الحق مصدقاً لما معهم »

وواضح أنهم يقصدون من وراء ذلك كاه إلى القول بأنه لم يثبت عندهم أن محمداً مرسل من ربه حقاً .

— ٢٢٠ —

إنه لو كان رسولا من الله لأوتي مثل ما أوتي موسى ، ولجاءهم بقربان تأكله النار .

ولقد يسر لهم هذا الموقف أن يطلبوا إلى العرب الدخول في إحدى الديانتين اليهودية والنصرانية .

ويحكي القرآن ذلك عنهم في قوله تعالى : « وقالوا : كونوا هودا أو نصارى تهتدوا .

قل : بل ملة إبراهيم حنيفاً ، وما كان من المشركين »

٢

الكيد للدعوة من الداخل

كان من وسائل أهل الكتاب إعلان الدخول في الإسلام ثم إعلان الخروج منه بعد فترة زمنية لإيهام العرب عامه والمسلمين منهم بصفة خاصة ، بأن هذا الدين الذي يدينون به ليس بشيء ، وأن محمد بن عبد الله ليس ينبي .

وكان يقابل ذلك من النبي عليه السلام ، ومن المسلمين ، حرص شديد على إيمان أهل الكتاب ، وكانوا يرون أن حدوث هذا الأمر ليس يبعد المنال .

ويحكي القرآن الكريم صوراً من عمل الأولين وأطماع الآخرين ، ونرى من الأفضل إيراد هذا الذي يحكيه القرآن .

ونبدأ من ذلك بما حكاه القرآن عن حرص النبي وحرص المسلمين .

يقول الله تعالى مخاطباً النبي والمسلمين : « أفتطمعون أن يؤمنوا لكم ، وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه . وهم يعلمون .

وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا: آمنا، وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا: أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون ؟

أو لا يعلمون أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون ؟ »

ويقول الأستاذ الإمام عند تفسيره للآيات ما يلي :—

كان النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضى الله عنهم يرون أن أولى

الناس بالإيمان ، وأقربهم منه ، اليهود . لأنهم موحدون ، ومصدقون بالوحى وبالبعث فى الجملة ...

وكان هذا الطمع فى إيمانهم مبنياً على وجه نظرى معقول لولا أنهم إكتفوا بجعل الدين رابطة جنسية ولم يجعلوه هداية روحية . ولذلك كانوا يتصرفون فيه باختلاف المذاهب والآراء ، ويحرفون كلمه عن مواضعها بحسب الأهواء .

وما أعذر الله المسلمين فى طمعهم هذا إلا بعد ماقص عليهم من نبأ بنى إسرائيل — الذين كانوا على عهد التشريع وشاهدوا الآيات — ما علم به أنهم فى المجاهدة والمعاندة على عرق واسع ، ونخبة موروثه لا يكفى فى زلزالها كون القرآن مبنياً فى نفسه لا يتطرق إليه ريب ، ولا يتسرب إليه شك ...

وكان من الظاهر أن يكون الخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم خاصة ، ولكن خاطب المؤمنين معه لأنهم كانوا يشاركونه فى الألم من إيذاءهم والطمع بهدايتهم ...

ولأن طمع بعض المؤمنين كان يحملهم على الإنسباط معهم فى المعاشرة إلى حد الإفشاء إليهم ببعض الشئون المالية المحضه ، وإتحاذهم بطانة . وكان يعقب ذلك من الضرر ما يعقب ، حتى نهام الله تعالى عن إتحاذ البطانة من دون المؤمنين ...

أما الحجة التى وصلها بإنكار الطمع بإيمانهم للدلالة على أنه طمع فى غير مطعم فهمى ، التحريف — تحريف كلام الله ممن سمعه منهم ...
فدل هذا ، وما سبقه ، على أن القسوة المانعة من التأثر والتدبر ، ومكابرة الحق ، كان شتى قديمة فيهم ، ثم تأصل فصار غريزة مطبوعة .

فإعراضهم عن القرآن لا يستلزم الطعن عليه ، ولا القول بجواز تطرق شئ من الريب إليه ، فإنهم قد حرفوا ، وبدلوا ، وعاندوا ، وجاحدوا ، وهم يشاهدون الآيات الحسية ويؤخذون بالعقوبات المعاشية ، فكيف يستنكر بعد هذا أن يعرضوا عن دين دلائله عقلية ، وآيته الكبرى معنوية ... »

وثنتى بما يستهدفه أهل الكتاب ، والمشركون ، من المؤمنين .
يقول الله تعالى : « ودت طائفة من أهل الكتاب لو يضلونكم ، وما يضلون
إلا أنفسهم ، وما يشعرون . . . »

يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون .
يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل ، وتكتمون الحق وأنتم تعلمون .
وقالت طائفة من أهل الكتاب : آمنوا بالذى أنزل على الذين آمنوا وجه
النهار ، وكفروا آخره ، لعلهم يرجعون .
ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم . .
قل : إن هدى الله هو الهدى .

أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم ، أو يحاجوكم عند ربكم
قل : إن الفضل بيد الله يؤتیه من يشاء ، والله واسع عليم . يختص برحمته
من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم . . . »
ويقول الاستاذ الامام معلقا على هذه الآيات مايلي :

هذا النوع الذى تحكيه الآية من صد اليهود عن الإسلام ، مبنى على قاعدة
طبيعية و البشر وهى ، أن من علامة الحق ألا يرجع عنه من يعرفه . . .

وقد أرادت هذه الطائفة أن تغش الناس من هذه الناحية ليقولوا : ' لولا أن
ظهر لهؤلاء بطلان الاسلام لما رجعوا عنه بعد أن دخلوا فيه ، واطلموا على باطنه
وخوافيه ، إذ لا يعقل أن يترك الانسان الحق بعد معرفته ، ويرغب عنه بعد الرغبة
فيه ، بغير سبب .

فإن قيل : إن بعض الناس قد ارتدوا عن الاسلام بعد الدخول فيه رغبة ،
لاحيلة ومكيدة كما كاد هؤلاء . فاذا تقول فى هؤلاء ؟

والجواب على هذا يرجع إلى قاعدة أخرى وهى ، أن بعض الناس قد يدخل

في الشيء رغبة فيه لاعتقاده أن فيه منفعة له ، لا لاعتقاده أنه حق في نفسه . هذا بدا له في ذلك ما لم يكن يحسب ، وخاب ظنه في المنفعة ، فإنه يترك ذلك الشيء :

ويظهر أن النبي صلى الله عليه وسلم ما أمر بقتل المرتد إلا لتخويف أولئك الذين كانوا يدبرون المكائد لإرجاع الناس عن الاسلام بالتشكيك فيه ، لأن مثل هذه المكائد إذا لم يكن لها أثر في نفوس الأقوياء من الصحابة الذين عرفوا الحق ووصلوا فيه إلى عين اليقين ، فإنها قد تخدع الضعفاء الذين يدخلون في الاسلام لتفضيله على الوثنية في الجملة — أي قبل أن تطمئن قلوبهم بالإيمان .

كالذين كانوا يعرفون بالملوثة قلوبهم . . . »

ولا تصدقوا غير من يتبع دينكم بأن أحدا يؤتى مثل ما أوتيتم أو يقيموا عليكم الحجة عند ربكم — أي لا تقولوا أمام العرب مثلاً بأنكم تعتقدون أنه يجوز أن يبعث نبي من غير إسرائيل . . .

وهذا مبني على أنهم كانوا ينكرون جواز بعثة نبي من العرب بالسنتهم — مكابرة وعنادا للنبي صلى الله عليه وسلم ، لا اعتقادا .

وأنهم كانوا لا يصرحون باعتقادهم المستكن في أنفسهم إلا لمن امنوا له من قومهم لما هم عليه من السكر والمخادعة »

والآيات الواردة في هذا الأمر كثيرة جدا ، ونشير من بينهما إلى الآيات التالية :

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالا ، ودوا ما عنتم ، قد بدت البغضاء من أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر . قد يبدأ لكم الآيات إن كنتم تعقلون .

ها أنتم أولاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون بالكتاب كله ، وإذا لقوكم قالوا آمنا ، وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ . قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور .

إن تمسسكم حسنة تسوهم .
 وإن تصبكم سيئة يفرحوا بها .
 وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئاً .
 إن الله بما يعملون محيط »
 ويقول : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً
 — حسداً من عند أنفسهم من بعد ماتين لهم الحق .
 فاعفوا ، واصفحوا ، حتى يأتي الله بأمره .
 إن الله على كل شيء قدير . . . »
 ويقول : « ودوا لو تكفروا كما كفروا فتكونون سواء
 فلا تتخذوا منهم أولياء . حتى يهاجروا في سبيل الله . . . »
 ويقول : « الذين يترصبون بكم :
 فإن كان لكم فتح من الله قالوا : ألم نكن معكم ؟
 وإن كان للكافرين نصيب قالوا : ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين .
 فالله يحكم بينكم يوم القيامة ، ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً .
 إن المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم ، وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى
 يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً .
 مذبذبين بين ذلك ، لا إلى هؤلاء ، ولا إلى هؤلاء »
 ويقول : « ما يود الذين كفروا من أهل الكتاب ، ولا المشركين أن
 ينزل عليكم من خير من ربكم .
 والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم »
 ويقول : « يأبى الذين آمنوا أن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم
 بعد إيمانكم كافرين .
 وكيف تكفرون وأنتم تولى عليكم آيات الله وفيكم رسوله ؟ » .

* * *

— ٢٢٦ —

لقد حاول بنو إسرائيل ، ومعهم المشركون ، أن يفسدوا على المسلمين حياتهم
الدينية بالكيد ، والوسوسة ، والذبذبه ، وكل مامن شأنه أن يرد المسلمين إلى
حياتهم الأولى : حياة الشرك والوثنية — ولكن الله العلي القدير أفسد عليهم
كل شيء تقريباً .

أفسد عليهم مكرهم ، وتديبرهم .

لقد خاطب القرآن الكريم النبي عليه السلام وجماعة المسلمين بما يعينهم على بنى
إسرائيل والمشركين .

لقد كان لتوجيهات القرآن الكريم من الأثر الفعال ما مكن النبي من النصر ،
وما ساعد على استقرار الدعوة الجديدة والتمكين لها حتى أنت ثمارها بنشر دين
الله في أرض الجزيرة وفي خارجها .

٣

المال

أدرك الفرقاء جميعا قيمة المال كقوة في الصراع : الصراع الفكري ، والصراع الدموي ، على حد سواء .

أدرك كل فريق قوة المال في تحريك الصراع أولا ، وفي توجيه الصراع ثانيا ، نحو النوايا المستهدفة .

وكان كل فريق من الفرقاء يستهدف من وراء إتفاق المال ، أو من وراء حجب المال عن الفريق الآخر ، أن ينتهي الصراع لصالحه ، فيكون الغالب وغيره المغلوب ، أو يكون المنتصر وغيره المهزوم .

استثمر المشركون المال طوال العهد المكي مستهدفين من وراء ذلك صد الناس عن سبيل الله ، وصرفهم عن هذا الدين الجديد الذي يدعو إليه محمد بن عبد الله .

واستثمره المشركون وأهل الكتاب طوال العهد المدني مستهدفين نفس الأغراض ، وزادوا عليها غرضا جديدا استثمره اليهود عامة والمناقون منهم بصفة خاصة ، هو تعجيز الذين آمنوا بمحمد عن الحصون على الأموال التي تساعد على الإتفاق في سبيل الله ، ونصرة الدين الجديد .

لقد قبضوا أيديهم عن إقراض المؤمنين إلا برأيا فاحشا ، وأخذوا يبدرون في تقويضهم بذور الشك من حيث أن الله لو أراد للمسلمين النصر لأغناهم ، ووسع عليهم في الرزق .

واستثمر المال أيضاً محمد بن عبد الله عليه السلام .

استثمره طوال العهد المذني من حيث أنه في مكة كان اليتيم الفقير الذي أشتغل أجيرا وراعيا للغنم . ولم يكن الذين آمنوا به أول الأمر من الأغنياء وإنما كانوا من الفقراء . كانوا من الذين لا يملكون أكثر من قوت يومهم .

واستثمره محمد بن عبد الله عليه السلام لأكثر من غاية . فلم يقف عند حدود الصراع الفكري ، أو الصراع الدموي ، وإنما تجاوزه إلى غيره من تنمية للمجتمع ، وإحداث تغييرات جذرية فيه . تغييرات في شتى مجالات الحياة — وبخاصة المجال الديني والمجال الاجتماعي .

ولقد كانت العدالة الاجتماعية غاية عظيمة يحققها محمد عليه السلام عن طريق المال .

ولكثرة الغايات التي يستهدفها محمد عليه السلام كان هو أكثر الفقراء إحتياجاً إلى المال .

انقد كان المشركون من أهل مكة من الأغنياء . من الطبقة الرأسمالية التي حققت ثراء فاحشاً عن طريق التجارة ، ولم تكن هذه الطبقة تشعر بحاجة إلى الجهد ، والكسب ، من أجل حصولها على المال الذي تنفقه في صد الناس عن سبيل الله .

وكان المشركون في مكة من العقبات الكبرى في سبيل الإسلام . سبيل هذه الدعوة الجديدة التي تعيد تنظيم العلاقات في المجتمع المكي من جديد على أساس جديد . وحافظ هؤلاء الأغنياء على أوضاعهم التي تحقق لهم مكانة ممتازة في مجتمعهم هذا .

ولقد صور لنا القرآن الكريم موقفهم هذا في صور عديدة وصيغ مختلفة ، يسلك فيها أحياناً مسلك التهديد والوعيد .

يقول الله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون »

ويقول : « وكذلك جعلنا في كل قرية أكابر مجرميها ليمكروا فيها ، وما يمكرون إلا بأنفسهم ، وما يشعرون . . . »

وتوجه القرآن الكريم إلى محمد عليه السلام بالحديث مبيناً له أن النهاية التي ينتهى إليها هؤلاء الذين ينفقون أموالهم في سبيل صد الناس عن هذه الدعوة الجديدة، لن تكون إلا الحسرة والندامة .

يقول الله تعالى « إن الذين كفروا ينفقون أموالهم ليصدوا عن سبيل الله . فسينفقونها ، ثم تكون عليهم حسرة ، ثم يغلبون . والذين كفروا إلى جهنم يحشرون .

* * *

ولقد كان أهل الكتاب من سكان المدينة من الطبقة الرأسمالية أيضاً . كانوا بمحذوقون الصناعة والتجارة ، وكانوا يقرضون العرب ربوا فاحش ، وكانوا يعتقدون أن الله يمنحهم الخير والبركة لأنهم أبناء الله وأحباؤه ، وأنه من أجل هذا أتاهم ما لم يؤت أحدا من العالمين .

ولقد وصل بهم الصلف وإنكار نبوة محمد عليه السلام إلى الحد الذي ذهبوا فيه إلى أن الله ، الذى هو إله محمد ، فقير وهم أغنياء .

ووصل بهم الخبث ، وسوء الطوية ، إلى حد أنهم يأكلون أموال العرب بالباطل ذاهبين إلى أنه ليس عليهم فى الأميين سبيل .

ولقد وقف القرآن معهم طويلاً ، كاشفاً أوضاعهم وأخلاقهم ونفسياتهم ، ومبيناً كثيراً من أساليبهم الدنيئة فى ممارسة الحياة .

ونستطيع أن نستعرض سوياً هذه الآيات اليبينات :

يقول الله تعالى : « وترى كثيراً منهم يسارعون فى الإثم والعدوان وأكلمهم السحت لبئس ما كانوا يعملون .

لولا ينهام الربانيون والأخبار عن قولهم الإثم وأكلهم السحت — لبئس ما كانوا يصنعون .

وقالت اليهود : يد الله مغلوله — غلت أيديهم ولعنوا بما قالوا — بل يدها مبسوطتان ينفق كيف يشاء .

وليزیدن كثيراً منهم ما أنزل إليك من ربك طغيانا وكفرا »
ويقول : « ولا تحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيراً لهم بل هو شر لهم . سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ، ولله ميراث السموات والأرض ، والله خبير بما تعملون .

لقد سمع الله قول الذين قالوا : إن الله فقير ونحن أغنياء .
سنكتب ما قالوا .

وقتلهم الأنبياء بغير حق .
وتقول : ذوقوا عذاب الحريق . ذلك بما قدمت أيديكم ، وأن الله ليس بظلام للعبيد .

ويقول : « يا أيها الذين آمنوا ، إن كثيراً من الأخبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ، ويصدون عن سبيل الله .

والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فيشرهم بعذاب أليم . يوم يجمي عليهما في نار جهنم فتكوى بها جباههم ، وجنوبهم ، وظهورهم . هذا ما كنزتم لأنفسكم . فذوقوا ما كنتم تكتزون » .

ومن الصور التي اهتم بها القرآن الكريم ، وعرضها علينا ، موقفهم الخاص بتعجيز النبي عليه السلام ومن معه عن الإنفاق في سبيل الله .

يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله ، قال الذين كفروا للذين آمنوا : أنطعم من لو يشاء الله أطعمه ؟

إن أنتم إلا في ضلال مبين »

ويقول : « هم الذين يقولون : لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا .

ولله خزائن السموات والأرض ، ولكن المنافقين لا يفقهون »

ويقول : « إن الله لا يحب من كان مختالا فخورا .

الذين يبخلون ، ويأمرون الناس بالبخل ، ويكتُمون ما آتاهم الله من فضله ، وأعدنا للكافرين عذابا مهينا . . . »

* * *

ولقد كان محمد بن عبد الله عليه السلام فقيرا ، فلم يكن من أصحاب رؤوس الأموال في مكة حتى يمكن القول بأنه يملك من الأموال ما يكتفيه ، وما يمكنه من الإتفاق في سبيل الله ، وفي سبيل هذه الدعوة الجديدة .

ولعل فقره هذا هو الذى دفع الخصوم إلى أن يطالبوه بأن يصبح عن طريق الذى بعثه نبيا رسولا ، من الأغنياء الأثرياء الذين يملكون الكنوز ، والحدائق وما أشبه .

لقد كانوا يقولون : لولا أنزل عليه كنز .

وكانوا يقولون : لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب . . .

أو يكون لك بيت من زخرف »

ولقد كان محمد عليه السلام أول عهده بالدينه فقيرا أيضا . إنه من المهاجرين الذين يعيشون على حساب الأنصار . يعيشون على أنهم من اللاجئين العقائدين . ومن هنا لم يكن يملك من الأموال ما يمكنه من الإتفاق في سبيل الدعوة الجديدة .

وكان الأنصار يملكون ، ولكنهم ينفقون ما يملكون على المهاجرين ليمسكهم من الحياة في المدينة ، حياة حرة كريمة .

ويبدو أن الأنصار حاولوا أن يسدوا العجز في موازنتهم المالية عن طريق القروض ، ويبدو أن يهود المدينة لم يقبلوا أن يقرضوهم إلا بربا فاحش . ولكن القرآن الكريم حذرهم من هذا .

يقول الله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا : لا تأكلوا الربا أضعافا مضاعفة . واتقوا الله لعلكم تفلحون ، واتقوا النار التي أعدت للكافرين » .

كانت حاجة النبي عليه السلام والذين معه إلى المال قوية شديدة ، وكان عجزهم عن تحصيل المال بالقدر الكافي واضحا ، ووقف القرآن الكريم إلى جانبهم يصرهم بالأوجه التي ينفقون فيها المال ، وبالمصادر التي يحصلون منها على المال .

أما أوجه الإنفاق فالذى يعنيننا منها في هذا المقام ، الاتفاق في سبيل انحصار الإسلام والتمكين له من أنفس الناس — أى الاتفاق في سبيل القضاء على القوى المضادة أو إسكاتها وإخراص لسانها .

ومن أبرز أوجه الإنفاق في هذا المقام الاتفاق من أجل تأليف قلوب الذين لم يدخلوا في الإسلام بعد — المؤلفة قلوبهم — والإنفاق في الحروب التي تسمى دينياً بالجهاد .

هذا إلى جانب الإنفاق في سبيل تحقيق ما يسمى في العصر الحديث بالعدالة الاجتماعية — أى الاتفاق على اليتامى والمساكين وابن السبيل ، وما أشبه .

أما المصادر فكانت من المصادر المعروفة لذلك العهد . ذلك لأن التنظيمات المالية التي نعرفها اليوم بإسم المصادر والموارد لم تكن قد عرفت جميعها بعد .

ولعل الأساس الثقافي الذي وضعه القرآن لدفع الناس إلى الإنفاق في سبيل الله أن يكون الدافع القوي لهم في أن يبذلوا أموالهم ابتغاء مرضاة الله .

هذا الأساس هو : جعل القرآن الكريم الإنفاق في سبيل الله مقوما من مقومات المؤمنين المتقين .

يقول الله تعالى في وصف القرآن الكريم بأنه : « هدى للمتقين ، الذين يؤمنون بالغيب ، ويقيمون الصلاة ، وما رزقناهم ينفقون » .

كما يقول تعالى في توضيح معنى البر: « ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ، ولكن البر :

من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبين .

وآتى المال على حبه : ذوى القربى ، واليتامى ، والمساكين ، وابن السبيل ، والسائلين ، وفى الرقاب .

وأقام الصلاة وآتى الزكاة :

والموفون بعهدهم إذا عاهدوا .

والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس .

أولئك الذين صدقوا ، وأولئك هم المتقون » .

وللاستاذ الإمام شرح لمعنى « ومما رزقناهم ينفقون » يقول فيه : هذا الوصف من أقوى إمارات الإيمان بالغيب ، لأن كثيراً من الناس يأتون بضروب العبادات البدنية كالصلاة والصوم ، ومتى عرض لهم ما يقتضى بذل شيء من المال لله تعالى يسكون ولا تسمح أنفسهم بالبذل .

وليس المراد بالإتفاق هنا ما يكون على الأهل والولد ، ولا ما يسمونه بالجلود والكرم — لأن هذا ليس من آثار الإيمان بالغيب .

وإنما هو الإتفاق الناشئ عن شعور بأن الله تعالى هو الذى رزقه وأنعم عليه به ، وأن الفقير المحروم عبد لله مثله ، وأنه حرم من سعة العيش لضعف أو حرمان من الأسباب التى توصل إلى الرزق .

أو عن إحساس بأن مصلحة من مصالح المسلمين ومنفعة من منافهم العامة لا تقوم ، أو لا تصل إليهم ، إلا ببذل المال .

وقد أوجب الله على من أوتى المال أن ينفق منه فى ذلك السبيل وهو أفضل سبل لله .

فمن يجد فى نفسه داعية لبذل أحب الأشياء إليه — وهو ماله — ابتغاء

مرضاة الله تعالى وقياماً بشكره ، ورحمة لأهل العوز والبائسين من خلقه ، فهو لا شك مستعد لقبول هداية القرآن أنتم الاستعداد ... »
ولأن الإنفاق علامة من علامات الإيمان دعا القرآن الكريم إليه ورغب فيه ووعد بمضاعفة الأجر عليه ، وبخاصة عند ما يكون الإنفاق للاستعداد للقتال الذي يرجى أن يكون سبباً للسلام ومنع القتال ، أو سبباً لمنع العدوان ، أو للسلامة من الهلاك .

والآيات القرآنية في ذلك كثيرة ، ونكتفي منها بالآيات التالية :
يقول الله تعالى : « قل لعبادى الذين آمنوا : يقيموا الصلاة ، وينفقوا مما رزقناهم سراً وعلانية ، من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلال .
ويقول : « ها أنتم هؤلاء تدعون لتنفقوا في سبيل الله فنكم من يبخل ، ومن يبخل فأبما يبخل عن نفسه ، والله الغنى وأنتم الفقراء ... »
ويقول : « آمنوا بالله ورسوله ، وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه . فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير » .
وفي سورة البقرة مجموعة من الآيات المتلاحقة تعالج قضية الإنفاق هذه بما يكشف عن دور القرآن فيها وترغيبه الناس في الإنفاق في سبيل الله .
يقول الله تعالى : « مثل الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ، والله يضاعف لمن يشاء ، والله واسع عليم .
الذين ينفقون أموالهم في سبيل الله ثم لا يتبعون ما أنفقوا منا ولا أذى لهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون » .

« ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل حبة بريرة أصابها وابل فآنت أكلها ضعفين ، فإن لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير .

« يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ، ومما أخرجنا لكم من

الأرض ، ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ، ولستم بأخذيهِ إلا أن تنضوا فيه ،
واعلموا أن الله غني حميد .

الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء ، والله يعدكم مغفرة منه وفضلاً ، والله
واسع عليم »

وتبقى بعد ذلك إشارة إلى القرض الحسن ، ذلك لأن القرآن الكريم قد أشار
علينا بالقرض الحسن لتغطية العجز في الإنفاق حين تكون مطالب الصالح العام
أكبر من أن تغطيها الموارد المالية التي يمكن تحصيلها .

يقول الله تعالى : « من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له ، وله
أجر كريم » .

ويقول الأستاذ الأمام : أما كون القرض حسناً فالمراد به ما حل محله ووافق
المصلحة ، لا ما وضع موضع الفخفة وقصد به الرياء .

نعم ، إن ما أتفق في المصالح العامة حسن وإن أريد به الشهرة — ولكن
لا يكون دالاً على إيمان المنفق وثقته بربه وابتغاء مرضاته ، ولا يكون دالاً على
حبه الخير لذاته لإرتقاء نفسه وعلو همته بما استفاد من فضائل الدين وتهذيبه »

ونختتم هذه الفقرة الخاصة بالأموال بالأشارة إلى أن غنائم الحروب كانت مصدراً
من مصادر التمويل ، وكانت تقسم على الناس حسب ما نزلت به الآيات القرآنية
الكريمة ، وحسب التقاليد التي ظلت قائمة ومتناسقة مع هذه الآيات .

لقد كان المسلمون الأولون الذين يجاهدون مع النبي عليه السلام يخوضون المعارك
اعتماداً على أنفسهم .

كان كل منهم ينفق على نفسه ، وكان من عنده فضل من المال يبذل منه
الشيء القليل أو الكثير في تجهيز غيره . فعل ذلك عثمان بن عفان ، وفعل غيره
من أغنياء الصحابة .

وحين فتح الله على المسلمين ، وكثرت الغنائم ، وصار بيت المال غنياً ، أصبح

مجهز الجيوش من مسئوليات بيت المال .

والدولة الإسلامية الحديثة تنظم نفسها على أساس تخصيص مبلغ معين من المال في ميزانية الدولة لنفقات الحروب وتجهيز الجيوش : من برية وبحرية ، وجوية . .

وإذا وقعت الحرب يزداد هذا المبلغ بما يكفي للنفقات عن طريق زيادة الضرائب أو القروض .

وقد توضع أموال الدولة جميعها تحت تصرف قواد الجيوش حين تكون الضرورات ملحة . وعند ذلك يجب أن يكون التصرف منظمًا وعادلاً لاستبداء وأهوج .

وكان للمهاجرين بصفة خاصة نوع من الأمتياز عند تقسيم الغنائم على الذين يقومون بتجهيز أنفسهم .

يقول الله تعالى : « ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى : فله وللرسول ولذئ القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل .

كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم .

وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا ، واتقوا الله إن الله شديد العقاب .

للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم : يتبنون فضلاً من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله ، أولئك هم الصادقون .

والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ، ولا يجدون في صدورهم حاجة مما أوتوا ، ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة .

ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون » .

وليس يخفى أن الآيات تشير إلى حوار كان قد وقع بسبب امتياز المهاجرين ببعض غنائم الحرب .

-- ٢٣٧ --

لقد حسم القرآن الكريم الموقف . وطابت نفس كل بما قسم الله له .

* * *

وهنا إشارة عابرة إلى المؤلفة قلوبهم .

لقد كان من الكفار من يرجى إيمانه بتأليفه واستمالته كصفوان بن أمية ،
وعيينه بن حصن ، والأقرع بن حابس ، وسفيان بن حرب .

أعطاهم النبي عليه السلام من غنائم هوازن . كل واحد مائة من الأبل

قال ابن عباس : إن قوماً كانوا يأتون النبي صلى الله عليه وسلم فإن أعطاهم
مدحوا الإسلام وقالوا : هذا حسن . وإن منعهم ذموا وطابوا ..

وأمثال هؤلاء هم الذين تألف النبي قلوبهم حتى لا يكونوا مع الأعداء . وحتى
يرجى دخولهم في الإسلام .

٤

الحرب

كانت الحرب الوسيلة القوية الفعالة في إنهاء الصراع وحسم الموقف، فهي التي أسكتت بعض الفرقاء، وكشفت لنا عن الغالب والمغلوب، أو المنتصر والمهزوم، من الفرقاء.

وكانت الحرب الوسيلة الحتمية التي لم يكن هناك مفر من استثمارها عند الفرقاء أجمعين، بما فيهم محمد بن عبد الله عليه السلام.

فلم يكن من المعقول عند أهل مكة أن ينجو محمد بن عبد الله من مؤامرة القتل التي دربها له ثم يترك وشأنه، يترك ليدعو إلى الدين الجديد ويمسكن له، ويحدث من التغييرات الجذرية في المجتمع العربي ما هو كفيلاً يزلزلة عاداتهم وتقاليدهم، والقضاء على آلهتهم ومعتقداتهم.

كان لا بد من ملاحظته للقضاء عليه أو على ما يدعو إليه، أو عودته إلى ديارهم: ديانة الآباء والأجداد.

يقول الله تعالى: «يسألونك عن الشهر الحرام. قتال فيه؟»
قل: قتال فيه كبير.

وصد عن سبيل الله، وكفر به.

والمسجد الحرام وإخراج أهله منه.

أكبر عند الله.

والفتنة أكبر من القتل.

ولا يزالون يقاثلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا

ومن يرتد منكم عن دينه فيمت وهو كافر ، فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة ، وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون .
 إن الذين آمنوا ، والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله ؛ أولئك يرجون رحمة الله . والله غفور رحيم . . . »

* * *

ولم يكن من المعقول أيضاً أن يلتزم اليهود بالعهود والمواثيق التي أبرمها محمد ابن عبد الله عليه السلام معهم أول مقامه بالمدينة بعد أن هاجر إليها .
 ولقد أخذ تفوذه يقوى ، وأخذ سلطانه يمتد إلى خارج المدينة ، وأخذ الناس يدخلون في دين الله ويستجيبون إلى محمد في كل ما يطلبه منهم . وفي ذلك كله احراج لليهود وهم أهل الكتاب الأول ، وقضاء عليهم وعلى تفوذهم بالمدينة .
 كان لا بد لهم من تأليب العرب عليه ، وكان لا بد لهم من العمل على قتله غيلة ؛ حتى يخلو لهم الجو ، ويظلو كما هم موضع الاحترام من العرب الأميين .
 يقول الله تعالى : « ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفاراً .

حسداً من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق »
 ويقول الله تعالى : « ولئن أتيت الذين أوتوا الكتاب بكل آية ما تبعوا قبلتك ، وما أنت يتابع قبلتهم ، وما بعضهم يتابع قبلة بعض »
 ويقول : « ولن ترضى عنك اليهود ولا النصارى حتى يتبع ملتهم »
 ولم يكن من المعقول أبداً أن يلتزم محمد بن عبد الله عليه السلام الصمت وهؤلاء يفعلون ما يفعلون .

لم يكن من المعقول أن يسكت والشركون يخرجون الناس من مكة ، ويصدون عن سبيل الله في مكة والمدينة ، ويحرضون الناس عليه ، وينفقون الأموال في سبيل القضاء عليه .

ولم يكن من المعقول أن يرى اليهود وهم يسلكون كل سبل الغدر والخيانة للقضاء عليه والخلاص منه ثم يلتزم الصمت

كان لا بد من القتال في سبيل الله ؛ لإعلاء كلمته والتمكين لدينه .

لقد أذن القرآن الكريم لمحمد بن عبد الله عليه السلام بالقتال — ولكن بشروط تحددها الآيات ، ولأسباب مختلفة تنص عليها الآيات .

يقول الله تعالى : « وقاتلوا في سبيل الله الذين يقاتلونكم ؛ ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين .

واقتلوهم حيث ثقتهموهم ؛ وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ؛ والفتنة أشد من القتل .

ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه ؛ فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين .

فإن انتهوا فإن الله غفور رحيم .

وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله

فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين » .

ويقول صاحب تفسير المنار عند شرحه لقوله تعالى : « وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ؛ ويكون الدين لله » ما يلي :

« أى وقاتلوهم حيثئذ أيها الرسول أنت ومن معك من المؤمنين حتى تزول الفتنة في الدين بالتعذيب ، وضروب الإيذاء ، لأجل تركه .

كما فعلوا فيكم عندما كانت لهم القوة والسلطان في مكة حتى أخرجوكم منها لأجل ديتكم .

ثم ساروا يأتون لقتالكم في دار الهجرة .

وحتى يكون الدين كله لله لا يستطيع أحد أن يفتن أحداً عن دينه ليكرهه على تركه لدين المكره فيقلده تقيّة وتفاقا . »

والمعنى بتعبير هذا العصر : ويكون الدين حراً — أى يكون الناس أحراراً في الدين ، لا يكره أحد على تركه إكراها ، ولا يؤذى ويعذب لأجله تعذيباً .
ويدل على العموم قوله تعالى: « لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي. »

* * *

والآيات القرآنية الكريمة التي توضح عمق الخلاف وأبعاده كثيرة جداً .
والحوار الذي تصوره هذه الآيات لا يستهدف الاقناع العقلي وحده حتى يمكن القول بأن الأدلة الساطعة والحجج القوية تلزم الخصم وتدفعه إلى تغيير أحكامه العقلية .

لقد كان الحوار يستهدف تغييرات جذرية في العادات والتقاليد وفي المعتقدات وفي القيم الروحية والاجتماعية . كان يستهدف تغيير الانسان من الداخل ، وهذا ليس بالأمر اليسير الذي يحدث بمجرد إيراد الأدلة والبراهين أو إصدار القوانين .
إن الهدف هنا هو تغيير الكيانات النفسية والأنماط الفكرية والسلوكية ، وتحقيق ذلك لا بد له من زمن ، ولا بد له من وسائل كفيلة بتحقيقه .

وسنعرض لهذه الوسائل عند حديثنا عن وسائل محمد عليه السلام .
إننا هنا بصدد الحديث عن الحرب كوسيلة استخدمها جميع الفرقاء ، بما فيهم محمد عليه السلام .

* * *

كان لا بد من الحرب للقضاء على هذه الصراعات القائمة في أرض الجزيرة .
إن من الثابت في كتب السيرة أن النبي صلى الله عليه وسلم رغب في مصالحة اليهود وموادعتهم عند ما آوى إلى المدينة ، وأنه عقد معهم المعهود على: ألا يحاربوه ولا يظاهروا من يحاربه ، ولا يوالوا عليه عدوا له .
وأن يكونوا آمنين على أموالهم وأنفسهم وحرثهم في دينهم .

وكان حول المدينة منهم ثلاث طوائف : بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة .

وكان بنو قينقاع أول من غدر وتصدى لحرب النبي عليه السلام .
ونقض بنو النضير العهد ، وهموا بقتل النبي غدرًا .

ونقض بنو قريظة أيضا

ويلت القرآن الكريم ذهن النبي عليه السلام إلى ألوان من الخيانات التي
سيلاقيها من اليهود حين يقول له : « ولا تزال تطلع على خائنة منهم »

وجاء في تفسير المنار ما يلي :

« إنك أيها الرسول لا تزال تطلع من هؤلاء اليهود المجاورين لك على خيانة
بعد خيانة ، ماداموا مجاورين أو معاملين لك في الحجاز .

ولا تحسبن أنك قد أمنت مكرهم وكيدهم بتأمينك إياهم على أنفسهم ، فإنهم
قوم لا وفاء لهم ، ولا أمان .

وقد نقضوا عهد الله وميثاقه من قبل ، فكيف يرجى منهم الوفاء لك بعد ذلك
النقض وما ترتب عليه من : قساوة قلوبهم وقتلهم الأنبياء »

وكان موقف العرب المشركين من نقض اليهود مثل موقف اليهود سواء بسواء .

ولقد نزل القرآن الكريم في موقف هؤلاء كما نزل في موقف أولئك .

يقول الله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون

الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة ، وهم لا يتقون .

فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون .

وإما تخافن من قوم خيانة فأنبذ إليهم على سواء ، إن الله لا يحب الخائنين .

ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا أنهم لا يصجزون .

وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ومن رباط الخيل ، ترهبون به عدو الله ،
وعدوكم ، وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم .

وما تلتفقوا من شيء في سبيل الله يوف إليكم ، وأنتم لا تظلمون .
وإن جنحوا للسلم فاجنح لها ، وتوكل على الله إنه هو السميع العليم .
وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله ، هو الذى أيدك بنصره وبالمؤمنين .
وألف بين قلوبهم لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم - ولكن الله
ألف بينهم إنه عزيز حكيم .

يا أيها النبي : حسبك الله ومن اتبعك من المؤمنين :
يا أيها النبي : حرض المؤمنين على القتال . إن يكن منكم عشرون صابرون
يغلبوا مائتين ، وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا أنهم
قوم لا يفقهون »
وصدق الله العظيم .

لقد كانت الحرب هى الوسيلة الحتمية لحسم الموقف كما ذكرنا ، ولم يكن
هدفها عند محمد عليه السلام إدخال الناس فى الإسلام بالقوة ، كما هو الهدف
عند المشركين وأهل الكتاب من إرجاع الناس عن الإسلام وصد عن سبيل الله بالقوة .
لقد كان قتال النبي عليه السلام ومن معه دفاعا عن الحق : حق الإنسان فى
أن يؤمن بالدين الذى يراه صالحا للحياة . كما كان دفاعا عن حق الإنسان فى دعوة
غيره إلى الإيمان بما يؤمن هو به من رأى أو عقيدة .

إن الدعوة إنما تكون بالحجة والبرهان ، فقد أمرنا أن ندعو إلى سبيل الله
بالحكمة والموعظة الحسنة ، وأن نجادل المخالفين لنا بالتي هى أحسن - معتمدين
فى ذلك كله على أن نبين الرشد من النى بالبرهان والدليل .

ذلك هو الصراط المستقيم إلى الإيمان - مع حرية الدعوة وأمن الفتنة .
فإذا منعنا من الدعوة بالقوة - بأن هدد الداعى أو قتل الدعاة ، فإن علينا
أن نتاقل لحماية الدعاة ونشر الدعوة

« لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من النى »

« أفانت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين »

أما إذا لم يوجد من يمنع الدعوة ، ويؤذى الدعاة أو يقتلهم ، أو يهدد الأمن ويعتدى على المؤمنين ، فالله تعالى لا يفرض علينا القتال ،
إن المسلمين لا يقاتلون أبداً من أجل السيادة والسلطان وسلب الناس حرياتهم ،
وتعذيبهم وسفك دماءهم ، وتسخيرهم واستغلال ثرواتهم ، وما أشبه .
ويقول الأستاذ الإمام عند تفسيره لقوله تعالى : لا إكراه في الدين .. الخ .
« هذه قاعدة كبرى من قواعد دين الإسلام ، وركن عظيم من أركان سياسته فهو :

لا يجيز إكراه أحد على الدخول فيه .
ولا يسمح لأحد أن يكره أحداً على الخروج منه .
وإنما نكون متمكنين من إقامة هذا الركن وحفظ هذه القاعدة إذا كنا
أصحاب قوة ومنعة تحمي بها ديننا وأنفسنا ممن يحاول فتننا في ديننا اعتداء علينا
بما هو آمن أن نعتدى بمثله عليه ، إذا أمرنا الله أن ندعو إلى ديننا بالحكمة
والموعظة الحسنة .

فالجهد من الدين بهذا الاعتبار .
أى أنه ليس من جوهره ومقاصده ، وإنما هو سياج له ، وجهه .
إنه أمر سياسى لازم له للضرورة » .

* * *

إن الإكراه ممنوع .
وإن العمدة في الدعوة لدين من الأديان بيانه حتى يتبين الرشد من النى .
وإن الناس غيرون بعد ذلك في قبوله أو رفضه .
وإن القتال إنما شرع لتأمين الدعوة ، ولكف شر الكافرين عن المؤمنين

لكيلا يززعروا ضعيفهم قبل أن تتمكن الهداية والإيمان من قلبه . ولكيلا يقهروا قويمهم بفتنته عن دينه كما كانوا يفعلون في مكة جبراً .

« وقتلوهم حتى لا تكون فتنة ، ويكون الدين لله » .

حتى يكون الإيمان في قلب المؤمن آمناً من زلزلة المعاندين له بإيذاء صاحبه ، فيكون دينه خالصاً لله غير مززع ولا مضطرب .

فالدين لا يكون خالصاً لله إلا إذا كفت الفتن عنه ، وقوى سلطانه حتى لا يجروا على أهله أحد .

قال الأستاذ الإمام : وإنما تكف الفتن بأحد أمرين :

الأول : — إظهار المعاندين للإسلام ولو باللسان ، لأن من فعل ذلك لا يكون من خصومنا ولا يبادرنا بالعداء — وبذلك تكون كلتنا بالنسبة إليه هي العليا ، ويكون الدين لله ، ولا يفتن صاحبه فيه ولا يمنع من الدعوة إليه .

والثاني : — وهو أدل على عدم الإكراه — قبول الجزية . وهي شيء من المال يعطوننا إياه جزاء حمايتنا لهم بعد خضوعهم لنا .

وهذا الخضوع فكفني شرهم ، وتكون كلمة الله هي العليا .

القسم الثالث

وسائل محمد عليه السلام

كانت الوسائل التي اعتمد عليها محمد عليه السلام في ذلك الصراع الفكري والدموي ، الذي دار بينه ومن معه من جانب والمشركون وأهل الكتاب من الجانب الآخر ، هي الوسائل الناجحة التي حققت أهدافها وبلغت غاياتها . إذ بفضلها انتصر محمد عليه السلام وأصبح القائد الروحي للأمة العربية في عهده ، وللام الإسلامية فيما بعد .

وبفضلها أيضاً تمكن الإسلام من أرض الجزيرة ، وتمكن من كل أرض أخرى دخلها فيما بعد . ويستوى في ذلك أن تكون هذه الأرض قد تعربت فغيرت لغتها وعاداتها وتقاليدها أو لم تعرب وغيرت دينها فقط .

واستثمار هذه الوسائل في الصيغة التي حققت هذه النجاحات يعتبر تجربة تاريخية رائدة للأمة العربية في عصر تكوينها كأمة ، وهي من هذه الناحية تعتبر تراثاً مجيداً نعتز به ونستلهمه كلما أظلمت سبل الحياة وضائق بنا مسالكها ، ولا سيما في هذا العصر الذي نميشه : عصر التنمية الشاملة .

وهذه الوسائل الناجحة لم تحقق هذا الفجاح العظيم إلا بفضل التعليمات التي سجلها القرآن الكريم .

لقد كان الوحي ينزل على محمد عليه السلام يوجهه نحو الوسائل ، ويصره بالكيفية التي يجب أن يستثمر بها هذه الوسائل . ومن هنا قدر لها النجاح .

وهي من هذه الناحية تعتبر من التعاليم القرآنية التي يجب علينا — باعتبارنا مسلمين — العمل بمقتضاها ، من حيث أننا مطالبون في كل لحظة بممارسة الحياة على أساس من التعاليم القرآنية — ما دامت هذه التعاليم في نصوص واضحة بينة لا تختمل الاختلاف أو التأويل .

إن هذه الوسائل — باعتبارها تجربة دليّة إلى جانب كونها تجربة تاريخية — كفيلة بأن تقودنا إلى بر الأمان في هذا المعترك الصاخب الذي يأخذنا من كل جانب ، ويحاول أن يضيق بنا ، ويضيق علينا سبل الحياة .

لقد خاض هذه التجربة — بالاعتبارين السابقين — سيد المرسلين وخاتم النبيين . ولن نجد أنموذجاً بشرياً تقتدى به ونسلك سبيله أفضل من محمد عليه السلام .

* * *

لقد ذكرنا من قبل بعض هذه الوسائل . ذكرنا قوة المال ، وذكرنا الحرب أو الصراع الدموي . ونكتفي بما ذكرنا من أمر هذه الوسائل ، ونأخذ في الحديث عن الوسائل التي لم نتعرض لها من قبل .

وقبل أن نأخذ في هذا الحديث نقف وقفة ترجو ألا تطول، نوضح فيها الهدف الذي كان يعمل على تحقيقه كل واحد من الخصوم .

إن الوقوف على هذا الهدف هو الذي يمكننا من تقييم الوسيلة ، وبيئنا بالكيفية التي حققت بها النجاح .

والهدف من الصراع — أى صراع يكون — أن يكون هناك غالب ومغلوب، ومنتصر ومهزوم.

والوسائل تختار على هذا الأساس . أساس قدرتها على تحقيق النصر لمستثمرها والاعتماد عليها .

ولقد كان الهدف عند المشركين وأهل الكتاب تحقيق النصر على محمد ، وهزيمة الهزيمة التي يتحقق معها القضاء على العقيدة التي يدعو إليها ، والقيم التي يطالب الناس بممارسة الحياة على أساس منها .

ولقد قدروا في بعض المواقف أن هذا النصر لن يتم إذا وقف عند حدود الصراع الفكري . عند حدود الجدل والحوار .

لقد رأوا أن هذا النصر يمكن أن يتحقق بالقضاء على محمد ذاته . ومن هنا كان تأمرهم على قتله في مكة لولا أن أنجاه الله حين أمره بالهجرة إلى المدينة ، وكان تأمرهم على قتله في المدينة حين وضعوا له السم في الطعام مرة ، وحين القوا عليه حجراً قاتلاً أخرى .

ولقد كانت الوسيلة عندهم قتل نفس وإزهاق روح وتدمير إنسان وتخطيط
ثائر . كانت تلك هي الوسيلة ولكنها لم تحقق أهدافها . فقد أنجاه الله من كل
مكر ، وكل كيد .

ويقول الله تعالى : « ثم ننجى رسلنا والذين آمنوا وكان وعدا علينا نصر
المؤمنين » .

كان هذا هدفهم . أما هدف محمد عليه السلام فقد ارتفع عن هذا المستوى - ولم
يسكن ذلك إلا بفضل التوجيهات التي نزل بها الوحي وسجلها القرآن الكريم .
لم يكن النصر عنده أن يكون هو النالِب وأن يكون الخصوم هم
المنلوبين المهزومين .

لم يكن النصر عنده أن يحقق الهزيمة للآخرين ثم يقهرهم ويستذلهم أو
يستعبدهم ، وإنما كان النصر عنده أن يحدث تغييرات جذرية في أنفس الأعداء ،
وتحولات في مواقف الخصوم .

لقد بعث رحمة للعالمين ، وهاديا إلى الطريق المستقيم .

بعث ليخرج الناس من الظلمات إلى النور ، ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن
كانوا من قبل لفي ضلال مبين .

« هو الذي بعث في الأميين رسولا منهم يتلوا عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم
الكتاب والحكمة » .

« كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم —
إلى صراط العزيز الحميد » .

وهذا الذي تنص عليه هذه الآيات ، وتحدد به هدف محمد عليه السلام هو
الذي نسميه في العصر الحديث بالتنمية الثقافية .

وهذه التنمية الثقافية ليست وقفا على قوم دون قوم ، ولا على فريق دون فريق .
إن حقوق الأعداء في ذلك تساوى حقوق الأصدقاء ، لا فرق بين
أولئك وهؤلاء .

« ولا يجر منكم شأن قوم على ألا تعدلوا .
اعدلوا هو أقرب للتقوى »

فمن حق الخصوم والأعداء أن يلتفتوا بالخدمات التي تقدم إليهم من الرسل والأنبياء على أنها هداية إلى الدين القويم . أو على أنها تنمية ثقافية . وهذا هو الذي تشير إليه الآية القرآنية الكريمة : « لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم » . والنصر الحقيقي إنما يكون عندما تحدث التنمية الثقافية في هؤلاء . إن جذب العدو إلى موقفك ، ودفعه إلى تغيير موقفه بالنسبة إليك ، هو النصر المبين .

إن الهزيمة قد تولد الحقد عندما يكون هناك غالب ومغلوب على أمره . وإن التنفريات التي تحدث من داخل الإنسان وتدفعه إلى تحول في موقفه هي النصر الذي لا يسبب حقداً أو كراهية وإنما بسبب مودة ومحبة . لقد تحقق ذلك بالنسبة لمحمد عليه السلام .

لقد أخذ الخصوم يتحولون إلى أصدقاء ويدخلون في دين الله أفواجا . ولقد كان هؤلاء أداة محمد عليه السلام ، وأداة الخلفاء الراشدين من بعده ، في إنتشار الإسلام في أرض الجزيرة وما جاورها من بلاد الله . وإن الذين تفخر بهم اليوم ، ونعتز بالأمجاد التي حققوها ، كان الكثير منهم من هؤلاء الذي جادلهم محمد ، وحاورهم ، وكانوا بالنسبة إليه من أشد الأعداء .

* * *

والظاهرة التي نشير إليها باهتمام في هذا الموقف هي أن القرآن الكريم قد وقف من التنميات عند حدود التنمية الثقافية ، وليس ذلك إلا لأن التنمية الثقافية هي الأساس الأول والأساس القوى المتين لكل تنمية أخرى : سياسية كانت أو إجتماعية أو إقتصادية .

إن التكوين الثقافى لأى إنسان هو الذى يمنحه القدرة القادرة على تمكينه من ممارسة الحياة فى أى مجال من المجالات .

إن التخلف الاقتصادى أو التخلف السيامى ليس فى حقيقته إلا تخلف ثقافى .
وإن التقدم الاقتصادى أو التقدم السيامى ليس فى واقع الأمر إلا تقدم ثقافى .
إن المثقفين هم الذين يستطيعون استثمار الموارد التى يملكها الوطن : الموارد الطبيعية والموارد البشرية .

وإن الاستعمار لم يتم إلا على أساس أن هناك أوطاناً تملك ثروات طائلة : مادية وبشرية . وتعجز عن استثمارها .

لقد أراد القرآن الكريم تكوين الإنسان الصالح للحياة فى مجتمع جديد يعمل القرآن نفسه على تكوينه .

وتلك هى القاعدة التى يجب أن تأخذ أنفسنا بها فى هذه المعترك من الحياة .
يجب أن نسعى فى سبيل تكوين الإنسان الصالح للحياة فى المجتمع الذى نتصوره مجتمعاً فاضلاً أو سعيداً .

ويجب أن نحدد مواصفات أو خصائص هذا الإنسان الذى نسعى فى سبيل تكوينه .

ولقد سبق لنا ذكر شيء عن خصائص الإنسان المسلم ، ولن نعود إليها ، وإنما نطالب بأن تكون هناك مواصفات للإنسان الذى نسعى فى سبيل تكوينه .
ولقد يكون من المفيد التنبه إلى ما يمكن أن يكون هناك من فروق بين مواصفات المواطن الجديد ومواصفات الإنسان الذى نص على مواصفاته القرآن الكريم .
إن فى ذلك هداية لنا إلى الطريق المستقيم .

* * *

ونأخذ منذ الآن فى ذكر الوسائل التى لم يسبق لنا الحديث عنها ، وتقديم بين يدي هذه الوسائل كلمة عن الدستور الجدى الذى فرضه القرآن الكريم على محمد عليه السلام وأسماء الجدل التى هى أحسن .

الجدل بالتى هى أحسن

الجدل ، أو الحوار ، وسيلة هامة من وسائل القرآن الكريم لإحراز النصر على الخصوم، بإحداث تغييرات جذرية فى أنفسهم تدفع بهم إلى الانتقال من صفوف المعارضة إلى صفوف الأصدقاء والأعوان .

وفى سبيل تحقيق هذا الهدف وضع القرآن الكريم لمحمد عليه السلام دستوراً للجدل والحوار .

يقول الله تعالى مخاطباً محمداً عليه السلام : « أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن .

إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين » .

ويقول مخاطباً عامة المسلمين ، « ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن إلا الذين ظلموا منهم .

وقولوا : آمنا بالذى أنزل إلينا وأنزل إليكم ، وإلهنا وإلهكم واحد ، ونحن له مسلمون » .

والجدل بالتى هى أحسن المنصوص عليه فى هذه الآيات يشير من قريب أو بعيد إلى النقيض ، وهو الجدل بالتى هى أسوأ .

والجدل بالتى هى أسوأ هو الذى لا يستهدف الحق ويستهدف الباطل . أو هو الذى يتخذ من المقدمات الباطلة أساساً لتحقيق النصر .

والقرآن الكريم يطلب من محمد عليه السلام ألا يستهدف من الجدل: الباطل ، بأى حال من الأحوال ، ويعنى فى الوقت ذاته على المشركين وأهل الكتاب أنهم يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق .

يقول الله تعالى موجهاً الحديث إلى محمد عليه السلام : « ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم » .

إن الله لا يحب من كان خواناً أثمياً »

ويقول في حق الذين يجادلون بالباطل ليدحضوا به الحق : « ما يجادل في آيات الله إلا الذين كفروا فلا يغررك تقلبهم في البلاد . كذبت قبلهم قوم نوح والأحزاب من بعدهم ، وهمت كل أمة برسولهم ليأخذوه .

وجادلوا بالباطل ليدحضوا به الحق .

فأخذتهم . فكيف كان عقاب .. »

ويقول أيضاً : « ومنهم من يستمع إليك ، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه ، وفي آذانهم وقرا . وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها — حتى إذا جاءوك يجادلونك .

يقول الذين كفروا : إن هذا إلا أساطير الأولين .

وهم ينهون عنه وينأون عنه — وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون » .

ولقد كان من أساليبهم الجدلية الاعتماد على الشغب واللغو ، فقد كان بعضهم يقول للبعض الآخر فيما حكى القرآن الكريم عنهم : « لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون »

وقريب من هذا الموقف ما تحكيه الآية القرآنية التالية : —

« ولما ضرب ابن مريم مثلاً إذا قومك منه يصدون . وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟

ما ضربوه لك إلا جدلاً — بل هم قوم خصمون »

* * *

ولأن القرآن الكريم يطالب محمداً عليه السلام بأن يجادل بالتي هي أحسن نهائياً عن أى عمل انفعالي تكون نتيجته ضارة بالحقيقة التي ينشدها .

يقول الله تعالى موجهاً الحديث إلى جماعة المسلمين : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم ، كذلك زيننا لكل أمة عملهم .. » .

ولأن التعرف على الحقيقة واتخاذها أساساً لممارسة الحياة هو المطلوب ، جعل القرآن الكريم الحقيقة أداة لتقييم ما يدلى به الخصوم من أدلة وبراهين في جدلهم أو حوارهم مع النبي عليه السلام .

والحقيقة المنشودة ، والصالحة لأن تتخذ أساساً في عمليات التقييم قد تكون دينية وقد تكون علمية . . الأمر الذي سنتناوله بالحديث في الفقرات التالية .
إننا هنا إنما نشير إلى مقدمات أو أساليب جدلية اعتمد عليها القرآن الكريم ولم ننظر إليها على أنها من الحقائق بقدر ما ننظر إليها على أنها من المسلمات .
والقادة وعلماء الدين من المسلمين قد أشاروا إلى هذه الظاهرة ، وضربوا لها الأمثال .

جاء في كتاب نقد النثر لتقدمه بن جعفر ما يلي :
« فأما المجادل فلما كان قصده إنما هو إلزام الخصم الحجة كان أوكد الأشياء في ذلك أن يلزمه إياها من قوله . وذلك من مثل قوله عز وجل لبني إسرائيل :
إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن نزل التوراة .

قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين .
فجادلهم بكتابهم الذي يقرؤون به ، وبفرض مافيه ووجوبه عليهم .
وأعلمهم أنهم إذا حرموا على أنفسهم ما لم يحرمه الله في كتابهم الذي هذه سبيله في وجوب التسليم له ، فقد ظلموا واعتدوا ، وهذا لازم لهم » .
وما يشير إليه قدامة من الظلم والاعتداء إنما هو ظلمهم لأنفسهم بتحريمهم عليها ما لم يحرمه الله ، ثم هو إعتداء على حق الله من حيث أن التحليل والتحريم الديني إنما هما حقان من حقوق الله ، وليس لغير الله أن يحرم شيئاً على الناس تحريماً دينياً .

وجاء في كتاب القسطاس المستقيم للفرزالي ص ٧٧ ما يلي :

« أما الذى يستعمل فى المحاجة والمجادلة فما يمتزف به الخصم ويسلمه — وإن لم يكن معلوماً فى نفسه . فإنه تصير حجته عليه . وكذلك تجرى بعض أدلة القرآن .

فلا ينبغي أن تنكر أدلة القرآن إذا أمكنك التشكيك فى أصولها لأنها أوردت على طوائف كانوا معترفين بها . »

وهذا الأسلوب الجدلى الذى يشير إليه كل من قدامة والفزائى قد استخدم فى القرآن الكريم كثيراً — وبخاصة عندما كان القرآن يبرر ما فى حياتهم من تناقضات .

لقد كان العرب يضيقون ذرعاً بالبنات حتى قال القرآن الكريم فيهم « وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه فى التراب ، ألا ساء ما يحكمون » .

وكان العرب فى الوقت ذاته يعتقدون أن الملائكة بنات الله . واعتماداً على هذه المسئلة أبرز القرآن الكريم ما فى حياتهم من تناقضات قال : « اسطفى البنات على النبين ؟ .

مالكم كيف تحكمون ؟ »

وحين قال رداً على عقيدتهم فى أن لله أولاداً ما بلى :

« بديع السموات والأرض .

أنى يكون له ولد ولم تكن له صاحبة ؟

وخلق كل شىء وهو بكل شىء عليم » .

ومن أبرز التناقضات بين أقوالهم فى الله ومسلماهم قوله تعالى : « أم اتخذ

مما يخلق بنات وأصطفاكم بالبين ؟ »

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن المسلمات المنتقل إلى ماهو الأهم وهو

— ٢٥٨ —

الحديث عن الحقائق التي اعتمد عليها القرآن في جذب الخصوص إلى الإسلام وتعديل
موقعهم من الإسلام ومن نبي الإسلام .

وهذه الحقائق كما سبق أن ذكرنا تكون دينية تنزل من السماء ، وتكون
علمية يهتدى إليها العقل البشرى بعد أن يفكر طويلا في ظواهر
هذه الحياة .

الوسائل الدينية
والوسائل العلمية

الحقيقة الدينية

والحقيقة الدينية في منطق القرآن الكريم هي الحقيقة التي تصدر عن الملائكة الأهل ، ويهبط بها الوحي من السماء إلى الأرض على رسول من الرسل أو نبي من الأنبياء ليلفها الناس ويطلب إليهم ممارسة الحياة على أساس منها .

وهذه الحقيقة هي التي يتخذ منها القرآن الكريم الأداة إلى تقويم الآراء والمعتقدات الدينية ، فما اتفق وإياها كان هو الحق ، وما اختلف وإياها كان هو الباطل .

وضمنا لسلامة هذه الأداة في عمليات التقويم حرص القرآن الكريم على ذكر التفسيرات التي حدثت في الأديان السابقة لحكمة رآها المولى سبحانه وتعالى .

وهذا الضمان يجرنا إلى الحديث عن الحدود التي تلتقي عندها جميع الأديان والتي تعتبر المخالفة فيها دليلا على الباطل أو الانحراف عن الحق .

والحدود التي تلتقي عندها جميع الأديان تنبت عن حقيقة كبرى هي أن جميع الأديان السماوية صادرة عن ذات واحدة هي ذات المولى سبحانه وتعالى — المولى الواحد الأحد الفرد الصمد — وهي من هذه الناحية تقوم على مقومات أصيلة واحدة . وتلك هي :

١ — الإيمان بالله الواحد الأحد .

٢ — الإيمان باليوم الآخر الذي تتحقق فيه العدالة ، ويكون فيه الجزاء : ثوابا وعقابا .

٣ — العمل الصالح الذي تتحقق به السعادة ، ويصلح به حال الفرد وحال الجماعة ، ويتخذ أساساً للثواب والعقاب .

أما غير هذه الثلاثة فيصح فيه الاختلاف ، ويقع فيه التفسير والتبديل ،

— ٢٦٢ —

من حيث أنه مرتبط بحياة الجماعة ونحن نعلم جميعاً أن المجتمعات في حالات تغير مستمره .

والمولى سبحانه وتعالى قد أحدث تغييرات في الأديان المتعاقبة . ومنها تغييرات وقعت في ميدان العبادات ، وفي ميدان الحلال والحرام .

* * *

والحقيقة الدينية التي تتخذ أداة لتقويم الحاضر تتخذ في الوقت ذاته أساساً للبناء للمستقبل .

والمنطق القرآني ، والفقه الإسلامي ، يمضيان على أساس أن المعتقدات والعبادات الدينية ثابتة لا تتغير لأن الحكم الشرعي فيها لله ، وقد صدر عن الله . أما المعاملات وشئون الحكم والسياسة فترتبط بالحقيقة الدينية فيها بالصالح العام — ومن هنا تصبح قابلة للتغيير والتبديل من حيث ارتباطها بالمجتمعات ، والمجتمعات عرضة دائماً للتحويل والتغيير والتبديل لأنها في حركة مستمرة .

وهذا المنطق القرآني هو الذي أمل على علماء الأصول قاعدتهم المشهورة القائله بتغير الأحكام تبعاً لتغير المصنوع والأزمان .

* * *

والحقيقة الدينية حين تتخذ أداة لتقويم الحاضر تكون موضع الجدل والحوار ذلك لأن الذين يستمسكون بالحاضر ينفرون في الوقت نفسه من إحداث تغييرات جذرية فيه . ومن هنا يقفون في وجهه ويعملون على التخلص من الداعين إليه والقائمين عليه ، ويعملون في الوقت ذاته على صد الناس عنه .

والذين يستمسكون بالحاضر من معاصري محمد بن عبد الله عليه السلام فريقان: فريق المشركين .

وفريق أهل الكتاب .

والأولون يختلفون عن الآخرين من حيث التركيب القسافي الدينى . فأهل الكتاب جاءتهم الأنبياء ، وبعثت فيهم الرسل ، وزلت عليهم الكتب ، ومن هنا صبح أن يلتقوا مع القرآن الكريم فى الكثير من الحقائق الدينية .

أما المشركون فلم يكونوا يملكون من الحقائق الدينية النازلة من السماء الشىء الكثير . ومن هنا كان الخلاف فيما بينهم وبين محمد بن عبد الله عليه السلام كبيراً وقويًا عنيفاً .

لقد كان لكل منهم حقائقه الدينية التى يتخذ منها الأداء لتقويم الحقائق التى يملكها الآخرون ، وكان كل منهم أيضاً يجرى على منطق معين هو أن ما يملكه هو الحقيقة الدينية الصادرة عن الآلهة ، وأن ما يملكه الآخرون ليس إلا الباطل . وشعور كل منهم بأنه الذى يملك الحقيقة يدفعه حتماً إلى أن يطلب من الآخرين الايمان بما هو عليه ، لأنه الحق .

وهذا المنطق هو الذى دعا اليهود إلى أن يقولوا : ليست النصرى على شىء ، ودعا النصرى إلى أن يقولوا : ليست اليهود على شىء .

وهم يتلون الكتاب :

وهذا المنطق هو الذى جعل القرآن الكريم يسجل عليهم موقفهم من محمد عليه السلام حين قال فى أهل الكتاب : ولن ترضى عنك اليهود ولا النصرى حتى تتبع ملتهم .

وحين قال فى صيغة العموم : كذلك زيننا لكل أمة عملهم .

ولعله أن يكون من الخير لنا ولهذه الدراسة أن نستعرض عمليات التقويم هذه وكيف اعتمد القرآن الكريم عليها كوسيلة من وسائل الإنتصار على القوى المضادة ونبدأ من ذلك بالموقف مع المشركين لأنهم الأقدم فى الخصومة ، ولأن الخصومة معهم كانت قوية وعنيفة .

كان المشركون يملكون من الحقائق الدينية الشيء الكثير - ولكنها الحقائق التي لا تستند إلى علم أو كتاب من السماء .

لقد كانت هذه الحقائق مجموعة من الموارث التاريخية التي توارثتها الأجيال . وكانت مجموعة من الأفكار المتولدة عن الرغبات أو المصالح الشخصية .

وكانت بعض الأفكار التي تسربت إليهم من وجود أهل الكتاب إلى جانبهم - الأمر الذي نلسه في وضوح عند المشركين من أهل المدينة .

وهذه الحقائق هي التي اتخذوا منها الأداة لتقويم ما جاءهم به محمد عليه السلام . ومن هنا كان إنكارهم لنبوته ورفضهم الشديد لدعواه .

كان رفضهم لنبوته عليه السلام قائماً على أسس ثلاثه .

الأول : - أن المولى سبحانه وتعالى لو أراد أن يرسل للناس رسولا لجعله من الملائكة ، ولم يجعله من البشر .

وقد سبق أن تناولنا هذا الذي يقولون به بالحديث عند تعرضنا للمشكلة الأولى من مشكلات محمد بن عبد الله عليه السلام .

ولقد اتخذ القرآن الكريم من التاريخ الديني للأنبياء والمرسلين الوسيلة إلى التنبؤ على المعارضة في هذا الموقف .

إن القرآن الكريم يسجل اعتماداً على الظواهر الاجتماعية التاريخية أن جميع الأنبياء والمرسلين كانوا من البشر . وكانوا رجالاً بعثوا إلى أقوامهم ، وتحدثوا بلسانهم . . . الخ .

ونكتفي في هذا الموقف بذكر الآيات التالية :

يقول الله تعالى : « وما قدرنا الله حق قدره إذ قالوا : ما أنزل الله على بشر من شيء » .

قل : من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى نوراً وهدى ، يجعلونه قرأتين تبذرونها ، وتخفون كثيراً ، وعلمتم ما لم تعلموا أنتم ولا آباؤكم ؟

قل : الله . ثم ذرهم في خوضهم يلعبون .

وهذا كتاب أنزلناه ، مبارك ، مصدق الذي بين يديه ، ولتنذر أم القرى
ومن حولها .

والذين يؤمنون بالآخرة يؤمنون به

ويقول الله تعالى : « قل : هذه سبيلي أدعو إلى الله على بصيرة أنا ومن اتبعني
وسبحان الله وما أنا من المشركين . »

وما أرسلنا من قبلك إلا رجالا نوحى إليهم من أهل القرى ، أفلم يسيروا في
الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم

ويقول الله تعالى : « وما أرسلنا قبلك إلا رجالا نوحى إليهم فاسألوا أهل
الذكر إن كنتم لاتعلمون . »

ولعل الآيات الواردة في سورة إبراهيم عليه السلام ، وهي الآيات التي يخرج
بالمسألة من الموقف الخاص بمحمد عليه السلام إلى الموقف العام ، والخاص بجميع
الرسل أن تكون أوضح الآيات القرآنية في ذلك .

يقول الله تعالى : « ألم يأتكم نبياً من قبلكم ! قوم نوح وعاد وثمود
والذين من بعدهم — لا يعلمهم إلا الله — جئاتهم رسلهم بالبينات فردوا أيديهم
في أفواههم

وقالوا : إنا كفرنا بما أرسلتم به ، وإنا في شك مما تدعونا إليه مريب .
قالت رسلهم : أفي الله شك ؟ فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من
ذنوبكم ويؤخركم إلى أجل مسمى .

قالوا : إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا
بسلطان مبين .

قالت لهم رسلهم : إن نحن إلا بشر مثلكم ولكن الله يمتن على من يشاء من

عباده — وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان إلا بإذن الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون .
ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله
فليتوكل المتوكلون »

ويقول الله تعالى : « وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا:
أبعث الله بشراً رسولا ؟

قل : لو كان في الأرض ملائكة يمشون مطمئين لنزلنا عليهم من السماء
ملكا رسولا .

قل : كفى بالله شهيداً بيني وبينكم إنه كان بعباده خبيراً بصيراً . . . »

* * *

الأساس الثاني : — أن الذي ينزل عليه من السماء بهذه الآراء والمعتقدات
التي يدعوهم إليها ليس ملكاً من الملائكة وإنما هو شيطان من الشياطين .

وقد عرض القرآن الكريم لهذا الذي يقولون وحاورهم فيه إلى أن انتصر عليهم .
لقد كانوا يعتقدون أن الشياطين تستطيع الصعود إلى السماء ، وتستطيع التسمع
إلى الملأ الأعلى ، وأنها تنزل بعد ذلك لتبلغ الناس ما استمعت إليه من السماء .

وأنكر القرآن الكريم عليهم هذا كله ، وبين لهم أن هذا الذي يستندون
إليه باطل ولا أساس له من الصحة ، وأن الشياطين لا تقره ولا تعترف به .

والآيات في ذلك هي التالية :

يقول الله تعالى ، « وما ننزل به الشياطين ، وما يلبنى لهم وما يستطيعون إنهم
عن السمع لمعزولون ...

قل : هل أنبشكم على من تنزل الشياطين . تنزل على كل أفاك أثيم . يلقون
السمع وأكثهم كاذبون ، »

ويقول الله تعالى : « إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب . وحفظاً من كل

شيطان مارد . لا يسمعون إلى الملائ الأهل ويقذفون من كل جانب دحوراً ، ولهم عذاب واصب . إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب ... »

ويقول الله تعالى على لسان الجن : « وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهياً . وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً ... »

* * *

الأساس الثالث : — أن الذي يجيئهم به محمد عليه السلام ليس الحقيقة الدينية النازلة من السماء وإنما هي الأقوال التي تعلمها عن بعض الناس ، أو تدارسها في الكتب .

إنه يفترى على الله الكذب حين يدعى أن هذا الذي يجيئهم به هو وحي السماء إنه عندهم ليس إلا أساطير الأولين .

وقد سجل القرآن الكريم عليهم ذلك وردة عليهم ، وانتهى به الأمر إلى التحدى بالإتيان بمثل هذا الذي يرونه افتراء على الله .

لقد سجل القرآن الكريم عليهم هذا القول : —

يقول الله تعالى : « وإذا تولى عليهم آياتنا بينات قالوا : قد سمعنا ، لو نشاء لقلنا مثل هذا ، إن هذا إلا أساطير الأولين .

وإذا قالوا : اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء ، أو ائتنا بعذاب أليم .. »

ويقول الله أيضاً : « وإذا بدلنا آية مكان آية — والله أعلم بما ينزل — قالوا : إنما أنت مفتر . بل أكثرهم لا يعلمون .

قل : نزل روح القدس من ربك ، ليثبت به الذين آمنوا ، وهدى وبشرى للمسلمين .

ولقد نعلم أنهم يقولون : إنما يعلمه بشر .

لسان الذي يلحدون إليه أجمعي ، وهذا لسان عربي مبين ... »

ويقول : « وقال الذين كفروا : إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون ... »

فقد جاءوا ظلمات وروراً .

وقالوا : أساطير الأولين أكتتبها فهي تملى عليه بكرة وأصيلا .

قل : أتزله الذى يعلم السر فى السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً ... »
ولقد رد القرآن الكريم عليهم أقوالهم حين عرض لها — كما ترى فى النصوص السابقة . وكما هو الواضح من النصوص التالية :

يقول الله تعالى فى صدد توجيهه لمحمد عليه السلام : —

قل : هل من شركاءكم من يهdy إلى الحق ؟

قل : الله يهdy إلى الحق .

أفمن يهdy إلى الحق أحق أن يتبع أمن لا يهdy إلا أن يهdy ، فما لكم كيف تحكمون ؟

وما يتبع أكثرهم إلا ظناً . إن الظن لا يغنى من الحق شيئاً . إن الله عليم بما يفعلون .

وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله ؟ — ولكن تصديق الذى بين يديه وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين :

أم يقولون : افتراه .

قل : فأتوا بسورة مثله ، وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين .

بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ، ولما يأتهم تأويله .

كذلك كذب الذين من قبلهم فانظر كيف كان عاقبة الظالمين »

ومن أوضح الآيات التى وردت فى ذلك ، والتى عاجلت موقف النبى عليه السلام وموقفهم من هذه القضية ، الآيات التالية :

يقول الله تعالى : « قد جاءكم بصائر من ربكم فمن أبصر فلنفسه ومن عمى فعليها — وما أنا عليكم بحفيظ .

وكذلك نصرف الآيات ، وليقولوا : درست ، ولينبئه لقوم يعلمون .

اتبع ما أوحى إليك من ربك لا إله إلا هو وأعرض عن المشركين . ولو شاء الله ما أشركوا ، وما جعلناك عليهم حفيظاً ، وما أنت عليهم بوكيل .

ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدواً بغير علم — كذلك زيفاً لكل أمة عملهم ، ثم إلى ربهم مرجعهم فينبشهم بما كانوا يعملون .

وأقسموا بالله جهد أيمانهم : لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها .

قل : إنما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون . ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنوا به أول مرة ، ونذرهم في طغيانهم يعمهون .

ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة ، وكلمهم الموتى ، وحشرنا عليهم كل قبلا ، ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون .

وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً ، شياطين الإنس والجن يوحى بمضمهم إلى بعض زخرف القول .

ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون .

ولتصني إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقتروا ما هم مقترفون .

أفئير الله أبتغي حكماً وهو الذى أنزل إليكم الكتاب مفصلاً ، والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك حقاً — فلا تكونن من الممترين . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم .

وإن قطع أكثر من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله — إن يعبدون إلا الظن ، وإن هم إلا يخرصون ..

إن ربك علم هو أمن يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين .

ويقول الله تعالى : « ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا ، وجاءتهم
رسلم بالبينات وما كانوا ليؤمنوا — كذلك نجزي القوم المجرمين .

ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ؟
وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا : ائت بقرآن غير هذا
أو بدله ؟

قل : ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي . إني أخاف إن عصيت ربي عذاب
يوم عظيم .

قل : لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به ، فقد لبثت فيكم عمراً من
قبله ، أفلا تمقلون ؟

فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً أو كذب بآياته . إنه لا يفلح المجرمون .. »

* * *

أما الأسس التي كان القرآن الكريم ، وكان محمد عليه السلام ، يرفض على
أساسها ما يملك المشركون من حقائق دينية فهي التالية : —

الأساس الأول : — أن هذا الذي يدعون أنه من الحقائق الدينية ليس منها
في قليل أو كثير لأنه لا أصل له من كتاب ، ولم يهبط به وحى من السماء على
رسول من الرسل أو نبي من الأنبياء .

والآيات القرآنية المسجلة لذلك كثيرة ، وقد وردت جميعها في معرض بيان
بطلان هذه الحقائق ، وإظهار ما فيها من فساد .

فهم حين يدعون أن الآلهة أكثر من إله ، وأن الوحدانية ليست الحقيقة
الدينية يطالبهم القرآن الكريم بالدليل .

يقول الله تعالى : « أم اتخذوا من دونه آلهة ؟

قل : هاتوا برهانكم . هذا ذكر من معي وذكر من قبلي .

بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون »

وحين يذهبون أن الله ليس بالفرد الصمد الذى لم يلد ولم يولد ، وإنما له ولدهو المسيح أو بنات هم الملائكة ، ينكر القرآن الكريم عليهم ذلك كله ويبين لهم أنه القول الذى لا يستند إلى منطق عقلى أو منطق دينى على الإطلاق .

يقول الله تعالى : « ألا إنهم من إفكهم ليقولون : ولد الله .

وإنهم لكاذبون .

اصطفى البنات على البنين ؟ ما لكم كيف تحكمون ؟ أفلا تذكرون .

أم لكم سلطان مبين ؟ فاتوا بكتابكم إن كنتم صادقين »

وهم حين يذهبون إلى أن محمداً عليه السلام ليس بنبي وأنه إنما يفترى على الله الكذب ، ينكر القرآن عليهم هذا الذى يقولون ، ويبين لهم أن لا أصل له من كتاب سماوى أو من وحى دينى .

يقول الله تعالى : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا : ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم .

وقالوا : ما هذا إلا إفك مفترى .

وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم : إن هذا إلا سحر مبين .

وما آتيناكم من كتب يدرسونها ، وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير ... »

والآيات القرآنية الواردة فى هذه القضية كثيرة ، ونكتفى هنا بما سبق ، وبهذه الآيات .

يقول الله تعالى : « ويعبدون من دون الله مالم ينزل به سلطاناً ، وما ليس لهم

به علم »

ويقول : « قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟

إن تتبعون إلا الظن ، وإن أنتم إلا تخرصون »

ويقول : « قل : أرايتم ما تدعون من دون الله ؟
أروني ماذا خلقوا من الأرض .
أم لهم شرك في السموات .
انثوني بكتاب من قبل هذا ، أو آثرة من علم إن كنتم صادقين »
ويقول : « إن يتبعون إلا الظن ، وإن الظن لا يغني من الحق شيئاً ...
فعرض عن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا .
ذلك مبينهم من العلم ...

* * *

الأساس الثاني : — أن هذا الذي يملكون ويعتقدون أنه الحقيقة الدينية
ليس إلا الموارث التاريخية التي يتوارثها الأبناء عن الآباء ، والآباء عن الأجداد .
يقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم : تعلوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول .
قالوا : حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا .
أولو كان آباؤهم لا يعلمون شيئاً ، ولا يهتدون .. »
ويقول الله تعالى : « وإذا قيل لهم : اتبعوا ما أنزل الله .
قالوا : بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » .

ويحمل القرآن الكريم اتباع الموارث التاريخية قاعدة عامة لكل الأغبياء
والترفين من جميع الأمم وفي جميع العصور ، ولم يكن ذلك إلا لأن هؤلاء المترفين
يكرهون التغيير — وبخاصة عندما تكون هذه التغييرات جذرية في المجتمعات
التي يعيش فيها أمثال هؤلاء المترفين ولهم فيها السيادة ، ولهم فيها العزة والسلطان
يقول الله تعالى : « وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال
مترفوها : إنا وجدنا آباءنا على أمة ، وإنا على آثارهم مقتدون » .

* * *

ويقول الله أيضاً موجهاً إليهم الكلام : « وما لكم لا تؤمنون بالله والرسول يدعوكم لتؤمنوا بربكم — وقد أخذ ميثاقكم — إن كنتم مؤمنين .
هو الذى ينزل على عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلى النور ، وإن الله بكم لرؤوف رحيم » .

* * *

وجرى القرآن الكريم أيضاً فى جده معهم على أن محمد بن عبد الله عليه السلام هو النبي الذى ينتظرونه ، وهو الذى يجدون اسمه أو صفته مكتوبة عندهم فى التوراة والإنجيل .
وأخذ القرآن يطالبهم بالإيمان به اعتماداً على هذا ، ويبين لهم فى الوقت ذاته أن الإيمان به هو الذى يحقق لهم الهداية ويباعد بينهم وبين الكثير من الشرور والآلام .

يقول الله تعالى مسجلاً عليهم قبلهم وموجهاً إليهم إلى ما فيه خيرهم : « واكتب لنا فى هذه الدنيا حسنة ، وفى الآخرة إنا هدنا إليك .

قال : عذابى أصيب به من أشاء ، ورحمتى وسعت كل شئ فساء كتبها للذين يتقون ويؤتون الزكاة ، والذين هم بآياتنا يؤمنون .

الذين يتبعون الرسول النبي الأمى الذى يجدونه مكتوباً عندهم فى التوراة والإنجيل : يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التى كانت عليهم .

فلذين آمنوا به ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، أولئك هم المفلحون .
قل : يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً ، الذى له ملك السموات والأرض ، لا إله إلا هو يحيى ويميت . فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمى ، الذى يؤمن بالله وكلماته ، واتبعوه لعلكم تهتدون »

* * *

ولم يقف أمر القرآن الكريم في أسلوبه الجدلى مع أهل الكتاب عند حد مطالبتهم بتصديق محمد عليه السلام والإيمان به ، وإنما مضى إلى ما هو أبعد من ذلك فأخذ في رد كثير من آراء أهل الكتاب — واليهود منهم بصفة خاصة — إذا كانت لا تتفق والحقيقة الدينية التي يدعو إليها القرآن ، أو يؤرخ لها على أساس أنها مما ورد في التوراة .

لقد كان من عقيدتهم الدينية أن الحقيقة الدينية قد نزلت من الملائكة الأعلى على موسى عليه السلام ، وأنها مسجلة في التوراة .

وجادلهم القرآن الكريم على أساس أن بعض هذا الذي يقولون ويعتقدون لا يوجد في التوراة ، وأنه لا دليل عليه .

لقد قالوا : إنه لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى .

وأجرى القرآن معهم الحوار على أساس أن لا دليل يؤيدهم في ذلك ، وأن الإيمان والعمل الصالح هو الأساس في دخول الجنة .

جاء في القرآن الكريم : « وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى .

تلك أمانتهم .

قل : هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين .

بلى من أسلم لله وجهه وهو محسن فله أجره عند ربه ، ولا خوف عليهم ، ولا هم يحزنون »

ولقد قالوا أيضاً بأن النار لن تمسهم إلا أياما معدودات ، فأجرى معهم الحوار على أساس أن هذا الذي يقولون ليس إلا من قبيل الوهم الذي يهرف فيه الإنسان بما لا يعرف .

جاء في القرآن الكريم : « وقالوا : لن تمسنا النار إلا أياما معدودات .

قل . اتخذتم عند الله عهداً ، فلن يخلف الله عهداً ؟

الأساس الثالث : - التخلّف الثقافى . ذلك لأنّ التقدم الثقافى إنّما يتم عن طريق كثرة القادة والمثمين الثقافيين فى الأمة ، وأنّ التخلّف الثقافى يكون حيث يندر القادة ويقل عددهم .

وقد صور القرآن الكريم الذين يدعومهم محمد عليه السلام من العرب المشركين الأُميين بأنهم متخلفون ثقافياً ، وأنه من هذه الناحية يتعذر عليه أن يخرجهم من حالة التخلّف الثقافى بسرعة . كما يتعذر عليهم هم أيضاً الاستجابة له فى سرعة .

والآيات فى ذلك واضحة مبينة .

يقول الله تعالى موجها الحديث إلى محمد عليه السلام : « وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ، ولكن رحمة من ربك

لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يتذكرون »

ويقول الله تعالى واصفا قولهم فى القرآن الكريم ومبيناً لمحمد عليه السلام وجه الحق ، وموجها إياه إلى الدور الحقيقى الذى يجب أن يضطلع به ، « أم يقولون افتراء .

بل هو الحق من ربك ، لتنذر قوما ما آتاهم من نذير من قبلك لعلهم يهتدون ويقول الله تعالى : « يس والقرآن » الحكيم ، إنك لمن المرسلين . على صراط مستقيم .

تنزيل العزيز الرحيم . لتنذر قوما ما أنذر آباؤهم فهم غافلون .

لقد حق القول على أكثرهم فهم لا يؤمنون .

إنا جعلنا فى أعناقهم أغلالاً فهى إلى الأذقان فهم مقمحون ، وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون .

وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون .

إنما تنذر من اتبع الذكر وخشى الرحمن بالغيب ، فبشره بمغفرة وأجر كريم .»

وواضح من هذه الآيات أن هناك حالات للتخلف الثقافي تلتج عنها الفعلة
ويصعب معها الإيمان بالتغيير ، والقدرة على الاستجابة للتغيير .
وإن هناك حالات للتنمية الثقافية هي التي يستجيب الناس فيها للدعاة التغيير
لقدرتهم على الاستجابة للدعاة ، ولإدراكهم لما في التغيير من تنمية في شتى
مجالات الحياة

* * *

كان هذا هو الموقف مع المشركين من حيث ملكيتهم أو عدم ملكيتهم للحقيقة
الدينية . أما الموقف مع أهل الكتاب بالنسبة للحقيقة الدينية وكيف تتخذ وسيلة
لكسب المعارضة أو الانتصار عليها فيمكن تلخيصها فيما يلي :
جرى القرآن الكريم في جده مع أهل الكتاب على أساس تذكيرهم بالكثير
من المواقف والمعهود ، ويعيب عليهم في الوقت نفسه أن يكونوا أول كافر بمحمد
عليه السلام مع أنه جاء مصداقاً لما معهم ، وجاء ليبين لهم الكثير مما كانوا
يختلفون فيه .

يقول الله تعالى : « يا بني إسرائيل : اذكروا نعمتي التي انعمت عليكم ، وأوفوا
بعهدي أوف بعهديكم ، وإياي فارهبون .
وآمنوا بما أنزلت مصداقاً لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ، ولا تشتروا بآياتي
ثمناً قليلاً وإياي فاتقون .

ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون » .
ويقول الله تعالى : « يا أهل الكتاب : قد جاءكم رسولنا بين لكم كثيراً
مما كنتم تخفون من الكتاب ، ويعفو عن كثير .
قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، ، يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل
السلام ، ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ، ويهديهم إلى صراط مستقيم »

— ٢٧٩ —

ويقول : « بل جاء بالحق وصدق المرسلين »
وصدق الله العظيم .

* * *

ونترك هذه الحقيقة إلى حقيقة أخرى هي الحقيقة العلمية التي اتخذت هي
الأخرى وسيلة من وسائل التغلب على القوى المضادة .

٢

الحقيقة العلمية

والحقيقة العلمية هي الحقيقة التي تأتي نتيجة لإعمال العقل البشرى في الكون بمن فيه ، ، وما فيه .

ويرى العلماء المعنيون بالكون وبإعمال العقل فيه أن العقل قد يضل طريقه ، وقد يخطئ في نتائجه ، ولكنه في كل الحالات قادر على أن يصحح الخطأ ، وأن ينجو من الانحراف .

وما ينتهى إليه العقل البشرى من نتائج يسمى في عرف العلماء بالقواعد أو القوانين أو النظريات العلمية .

والقرآن الكريم هو الذى يدفع العقل البشرى إلى التفكير في الكون بمن فيه وما فيه . يدفعه إلى ذلك على أساس أن هذا هو السبيل الوحيد للوصول إلى الحقائق الديلية الكبرى التي تتصل بالخالق سبحانه وتعالى .

هذا الوصول هو الذى يؤكد الصفات الذاتية للمولى سبحانه وتعالى من علم وحكمة ، ومن قدرة وخبرة ، ومن .. ومن .. إلخ .

ويؤكد هذا الوصول أيضاً معاني هذه النعم العديدة التي خلقها الله للإنسان ، وكيف سخر الله للإنسان الليل والنهار ، والشمس والقمر ، والسماء والأرض ، والهواء والماء ، وما أشبهه .

إن كل هذه النعم إنما هي الوسيلة التي يجذب بها القرآن الإنسان إلى التعرف على الخالق ، وإلى شكره على نعمائه .

وهذه الحقائق العلمية أداة أخرى من أدوات تقويم تلك الحميلة من الأفكار والآراء التي يملكها المشركون وأهل النكتاب .

أم تقولون على الله ما لا تعلمون «

وذهبوا إلى أن إبراهيم عليه السلام كان يهودياً أو نصرانياً ، وأجرى القرآن الكريم معهم الحوار على أساس أنهم يحتجون بما ليس لهم به علم ، وأن إبراهيم عليه السلام قد كان ولم تكن التوراة والإنجيل .

يقول الله تعالى موجهاً إليهم الحديث : « يا أهل الكتاب ، لم تحاجون في إبراهيم ؟ وما أنزلت التوراة والإنجيل إلا من بعده ، أفلا تعقلون ؟

ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم ، فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم ؟ والله يعلم وأنتم لا تعلمون «

والقرآن الكريم يستهدف من ذلك أمرين :

الأول منهما : أن يفقدهم ثقتهم بتلك الآراء والمعتقدات الباطلة .

الثاني : بيان أن العاقل والمتدين لا يصح له أن يجادل في شيء لم تؤيده فيه الكتب الدينية ، ولا يستطيع أن يقدم فيه الدليل والبرهان .

* * *

وأمر آخر جرى فيه القرآن على أسلوب جدلي يكشف لهم أن محمداً عليه السلام يعرف من أمر كتبهم ما لا يعرفون ، وأن هذه المعرفة إنما تتم بوحى الله إليه — ذلك الوحي الذى يكشف من أمرهم وأمر محمد عليه السلام — أنه صادق وأنهم كاذبون .

لقد اختلف معهم عليه السلام في أمر أطعمتهم وما يأكلون ، وفي أمر الحكم الشرعى الذى يقع عليها من حيث الحل والحرم .

ولقد احتكم محمد عليه السلام إلى التوراة ليكشف عن صدقه وعن كذبهم فيما يذهبون إليه .

يقول الله تعالى : « كل الطعام كان حلالاً لبني إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه .

— ٢٧٨ —

قل : فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين »

* * *

واعتماد القرآن الكريم على ما في الكتب الدينية السابقة من حقائق دينية ، وإنكار أهل الأديان السابقة لهذا الذي يعتمد عليه القرآن من هذه الكتب ، هو الذي أظهر للعيان وأبرز في الوجود تلك المشكلة التي تسمى بمشكلة التحريف .

لقد كانوا يستهدفون من التحريف أن يتغلبوا على محمد عليه السلام ولكن خاب ظنهم ، وانتصر محمد عليه السلام وانتصر الإسلام .

وقد سبق لنا تناول هذه المسألة بالكلام .

* * *

وتبقى بعد ذلك كلمة عن هذه الوحدة الدينية التي أشرنا إليها من قبل وكيف كان لها أثرها في هذا الصراع الفكري .

لقد جعل القرآن الكريم من دلالات صدق النبي عليه السلام أن ما يدعو إليه قد دعت إليه الرسل من قبل ، وأن كتابه قد جاء مصدقا لما في كتبهم من آراء ومعتقدات .

يقول الله تعالى : « وما كان هذا القرآن أن يفترى من دون الله - ولكن تصديق الذي بين يديه ؛ وتفصيل الكتاب لا ريب فيه من رب العالمين » .
ويقول : « لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب .

ما كان حديثاً يفترى ، ولكن تصديق الذي بين يديه ، وتفصيل كل شيء ،
وهدى ورحمة لقوم يؤمنون »

ويقول : « والذي أوحينا إليك من الكتاب هو الحق مصدقا لما بين يديه .
وإن الله بعباده لخبير بصير »

فحاربهم الدين ورجاله حرباً عواناً انتهت يظفر العلم ورجاله بالدين ورجاله .
وبعد غسل الدماء المسفوكة قام منذ مائتي سنة إلى اليوم رجال منهم يسمون
هذه المدنية القائمة على العلم : المدنية المسيحية .
ويقولون بوجوب محق سائر الأديان ومحوها لأنها لا تتفق مع العلم .
وفي مقدمتها الدين الإسلامى .
وحجبتهم على ذلك حال المسلمين .
نعم إن المسلمين أمسوا وراء الأمم كلها في العلم . فجهلوا الأرض التي هم عليها،
وضعفوا عن استخراج منافعها .
فجاء الأجنبي يتخطفها من بين أيديهم وهم ينظرون ، وكتابتهم قائم على
صراطه يصيح بهم .
« وهو الذى خلق لكم ما فى الأرض جميعاً »
« وسخر لكم ما فى السموات وما فى الأرض جميعاً منه »
« قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق ؟ »
« قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا »
ولكنهم صم بكم عمى فهم لا يعقلون، ولو عقلوا لعادوا، ولو عادوا لاستفادوا
وبلنوا ما أرادوا .

وها نحن أولاء نذكرهم بكلام الله لعلمهم يرجعون »

* * *

ويرى بعض المفكرين المسلمين أن هذه الحقيقة العالمية إنما تمارس بها الحياة
فى نطاق الدين ، وأنها وحدها لا تكفى بل قد تكون سبب البلاء . ذلك لأن
العلم وحده قد ينزع بالإنسان نحن الشر . وأن الدين هو الذى يحقق للعلم نوعاً من
الإلتزام الخلقى الذى يدفع بالعلم دائماً نحو العمل الصالح الذى يحقق الخير العام .

جاء في الجزء الحادى عشر من تفسير المنار وفي صفحة ٢٤٣ من هذا الجزء
تحت عنوان : الخطر على البشر من ارتقاء العلم بدون الدين . ما يلى :

« إن حرمان هؤلاء العلماء من الإيمان بآية الله تعالى من هذا النوع قد جعل
حظ البشر من هذا الارتقاء العجيب فى العلم ، أنهم ازدادوا به شقاء حتى صارت
حضارتهم مهددة بالتدمير العلمى الصناعى فى كل يوم .

وجميع علماءهم المصلحين ، وساستهم الدهاقين ، فى حيرة من تلافى هذا الخطر .
ولن يتلافى إلا بالجمع بين العلم والدين .

وهذا ماجاء به محمد خاتم النبيين ، ولأجله أثبتت الآيات بكتابيه . وفى كتابه
المبين -- إذ لا يمكن أن يخضع البشر إلا لما هو فوق استطاعتهم بقيام الدليل على
أنه من السلطان النبى الإلهى الذى فوق استعدادهم «

كما جاء فى نفس المقام من الكتاب المذكور ما يلى :

أكثر ما ذكر فعل العقل فى القرآن الكريم قد جاء فى الكلام على آيات الله
وكون المخاطبين بها ، والذين يفهمونها ويهتدون بها ، هم العقلاء .

ويراد بهذه الآيات فى الغالب آيات الكون الدالة على علم الله ، ومشيبته ،
وحكمته ، ورحمته ..

وجعل إهمال استعمال العقل سبب عذاب الآخرة .

كذلك آيات النظر العقلى والتفكير والتفكير كثيرة فى الكتاب العزيز .
فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكير والعقل والتدبر ، وأن
الفسافلين الذين يعيشون كالأنعام لاحظ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التى لاتركى
الأنفس ، ولا تصعد بها فى ممارج الكمال .

إن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر ، وبقدر جودتهم يكون تفاضلهم فيه .

وقد كانت التقاليد الدينية حجرت حرية التفكير واستقلال العقل — على البشر
حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابيه هذا الحجر . وأعتقهم من هذا الرق .

واعتماد القرآن الكريم على الحقائق العلمية و كيفية التعرف على الذات الإلهية هو الذى من أجله اعتبر القرآن الكريم الكفر آفة عقلية ، والإيمان صحة عقلية .

إن القرآن الكريم يجعل الكفرة كالأنعام أو أضل ، من حيث أنهم لا يستخدمون حواسهم وعقولهم في الوقوف على الحقيقة .

وشر الدواب عند الله هم الكفرة الذين لا يسمعون ولا يعقلون .

يقول الله تعالى : « إن شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون . ولو علم الله فيهم خيراً لأسمعهم ، ولو أسمعهم لتتولوا وهم معرضون » .

ويقول في وصمهم أيضاً : « إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً » .

ولأن الإيمان صحة عقلية خاطب القرآن العقل في أكثر من موطن ، وطلب إلى الإنسان ألا يتبع ما ليس له به علم .

إن المؤمن لا يتبع الظنون والأوهام ، وإنما يتبع الحقائق الدينية ، والحقائق العلمية .

يقول الله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم . إن السمع والبصر ، والفؤاد ، كل أولئك كان عنه مستولاً » .

ويقول الله تعالى : « ألم تر أن الله أنزل من السماء ماء فأخرجنا به ثمرات مختلفا ألوانها .

ومن الجبال جدد وبيض وحمر مختلف ألوانها ، وغرايب سود .

ومن الناس والدواب والأنعام مختلف ألوانه كذلك .

إنما يخشى الله من عباده العلماء .

إن الله غفور رحيم . . . »

ولأن تلك دعوة القرآن إلى استخدام العقل ووقف الاستاذ الإمام ممن ينكرون على العقل هذا الحق ، ومن يفرون المسلمين من العلم وما يمكن أن ينتهى إليه العلم من حقائق ، موقف المستنكر منهم ذلك .

يقول رحمه الله : « هذه الإباحة للنظر والبحث في الكون . بل هذا الإرشاد إليها بالصيغ التي تبعث الهمم وتشوق النفوس : ككون كل مافي الأرض مخلوقا لنا ، محبوسا على منافعنا ، هو مما امتاز به الإسلام في ترقية الإنسان . . .

لقد خاطبنا القرآن بهذا ، على حين أن أهل الكتاب كانوا متعقنين في تقاليدهم وسيرتهم العملية على : أن العقل والدين ضدان لا يجتمعان ، والعلم ولدين خصمان لا يتفقان ، وأن جميع ما يستنتجه العقل خارجاً عن نص الكتاب فهو باطل . . .

ولذلك جاء القرآن الكريم يلح أشد الإلحاح بالنظر العقلي ، والتفكير، والتدبر والتذكر ، فلا تقرأ منه : لا وتراه يعرض عليك الأكوان ، ويأمرك بالنظر فيها واستخراج أسرارها ، واستجلاء حكم اتفاقها واختلافها .

« قل انظروا ماذا في السموات والأرض »

« قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق »

« أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها »

« أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت »

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة جدا .

وإكثار القرآن من شيء دليل على تعظيم شأنه ، وجوب الاهتمام به .

ومن فوائد الحث على النظر في الخليقة — للوقوف على أسرارها بقدر الطاقة، واستخراج علومها لترقية النوع الإنساني الذي خلقت هي لأجله — مقاومة تلك التقاليد الفاسدة التي كان عليها أهل الكتاب فأودت بهم ، وحرمتهم من الانتفاع بما أمر الله الناس أن ينتفعوا به .

كانت أوروبة المسيحية في غمرة من الجهل ، وظلمات من الفتن ، تسيل الدماء فيها أنهار الأجل الدين ، وباسم الدين ، وللاكره على الدين .

ثم فاض طوفان تعصبها على المشرق ، ورجعت بعد الحروب الصليبية تحمل قيسا من دين الإسلام وعلوم أهله ، فظهر فيهم بعد ذلك قوم قالوا : —

إن لنا الحق في : أن نتفكر ، وأن نعلم ، وأن نستدل . .

حين تريحون وحين تسرحون . وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالفيه إلا بشق الأنفس - إن ربكم لرؤوف رحيم .

والخيل والبغال والحمير لتركبوها ، وزينة ، ويخلق ما لا تعلمون .

وعلى الله قصد السبيل . ومنها جبار - ولو شاء لهذاكم أجعين .

هو الذى أنزل من السماء ماء ، لكم منه شراب ، ومنه شجر فيه تسيمون .

ينبت لكم به الزرع ، والزيتون ، والنخيل ، والأعناب ، ومن كل الثمرات إن فى ذلك لآية لقوم يتفكرون .

وسخر لكم الليل والنهار ، والشمس والقمر ؛ والنجوم مسخرات بأمره -

إن فى ذلك لآيات لقوم يعقلون .

وما ذرأ لكم فى الأرض مختلفا ألوانه - إن فى ذلك لآية لقوم يذكرون .

وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طرياً ، وتستخرجوا منه حلية تلبسونها ،

وترى الفلك مواخر فيه ؛ ولتبتغوا من فضله - ولعلكم تشكرون .

وألقي فى الأرض رواسي أن تميد بكم ؛ وأنهاراً وسبلاً - لعلكم تهتدون .

وعلامات ؛ وبالنجم هم يهتدون .

أفمن يخلق كمن لا يخلق ؟ أفلا تذكرون

وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - إن الله لغفور رحيم ؛ والله يعلم ما تسرون

وما تعلنون .

والذين تدعون من دون الله لا يخلقون شيئاً ، وهم يخلقون .

أموات غير أحياء ، وما يشعرون أيان يبعثون .

إلهم إله واحد ، فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون .

لا حرم أن الله يعلم ما يسرون وما يعلنون

انه لا يحب المستكبرين

وصدق الله العظيم .

إن هذه الآيات وأمثالها تؤكد الحقيقة التي انتهى إليها بعض المفكرين المسلمين من قبل ، وهي « أن لله كتابين : كتابا مخلوقا هو الكون ، وكتابا منزلا وهو القرآن »

- والكتاب الأول يساعد في فهم الكتاب الثاني
- والكتابان معاً يهريان إلى الحق وإلى طريق مستقيم
- إنهما يهريان الناس إلى الخالق بكل ماله من صفات العلم والحكمة ، والقدرة والخبرة ، وما أشبه
- كما يدلان دلالة قاطعه على أن هذا الخالق يستحق الشكر والعبادة ، ويستحق الطاعة ، ويستحق الإعظام والتقديس
- وكل هذا هو الذي يستهدفه القرآن الكريم ، ويستهدفه محمد بن عبد الله عليه السلام بتوجيه من القرآن الكريم

إن سنن الله في إبداع خلقه ، ونظام الحركة والسكون ، والتحليل والتركيب ، لا يحيط بها علما غيره عز وجل .

وكما ازداد البشر فيها نظراً وتفكيراً ، واختباراً وتدبراً ! وتجربة وتصرفاً ،
ظهر لهم من أسرارها وعجائبها ما لم يكونوا يعلمون ويظنون . ومن منافعها ما لم
يكونوا يتخيلون ولا يتوهمون . . . »

* * *

أتخذ القرآن الكريم من هذه الحقيقة العلمية الوسيلة إلى التغلب على القوى
المضادة — التغلب عليها من الداخل . ذلك لأن دفعها إلى التفكير في كيفية الخلق ،
وفي ظواهر المخلوقات ، هو الذي يدفعها إلى التسليم بكل ما يدعو إليه محمد عليه السلام
وذلك الذي يدعو إليه محمد عليه السلام ليس إلا فطرة الله التي فطر عليها الخلق .
ذلك هو الدين القيم .

وإذا أردنا أن نضرب لذلك أمثلة من القرآن الكريم اكتفينا في هذا المقام
بما يلي :

يقول الله تعالى : « إن الله فلق الحب والنوى يخرج الحى من الميت ويخرج
الميت من الحى ، ذلكم الله فأنى تؤفكون .
فالق الإصباح ، وجعل الليل سكناً والشمس والقمر حسباناً — ذلك تقدير
العزیز العليم .

وهو الذى جعل لكم النجوم لتهتدوا بها فى ظلمات البر والبحر — قد فصلنا
الآيات لقوم يعلمون .

وهو الذى أنشأكم من نفس واحدة فستقر ومستودع — قد فصلنا الآيات
لقوم يفقهون .

وهو الذى أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شىء فأخرجنا منه خضراً
تخرج منه حباً متراكماً .

ومن النخل من طلعمها قنوان دانية .

وجنات من أعناب ، والزيتون ، والرمان ، مشتبها وغير متشابه . انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه — إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون » .

ويقول الله تعالى : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين ،

وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه ، قال : من يحيي العظام وهي رميم ؟

قل : يحييها الذي أنشأها أول مرة ، وهو بكل خلق عليم .

الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون .

أو ليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم ؟

بلى ، وهو الخلاق العليم .

إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون »

ويقول : « ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في

قرار مكين .

ثم خلقنا النطفة علقة ، فخلقنا العلقة مضغة ، فخلقنا المضغة عظاماً ، فكسونا العظام لحماً .

ثم أنشأناه خلقاً آخر — فتبارك الله أحسن الخالقين .

ثم إنكم بعد ذلك لميتون .

ثم إنكم يوم القيامة تبعثون . . »

ولعل من أوضح الآيات في ذلك هذه الآيات الواردة في سورة النحل ، والتي تدعو إلى استخدام العقل في التذكر والتفكير إذ لعله أن يصل إلى الهداية وشكر الخالق على النعم التي تفضل بها على الإنسان وهي كثيرة .

يقول الله تعالى : « خلق السموات والأرض بالحق — تعالى عما يشركون .

خلق الإنسان من نطفة فإذا هو خصيم مبين .

والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ، ومنها تأكلون . ولكم فيها جمال

٣

الظواهر الاجتماعية أو التجربة التاريخية

وتسمى في القرآن الكريم بسنة الله في خلقه .

وهذه السنن قد اتخذت وسائل لتحقيق الأهداف التالية :—

الأول : — بيان أن هذا الكون يجري على سنن مضطردة لا ينالها التغير والتبدل .

وهذا البيان يوضح أن مشيئة الله تعالى مرتبطة بعلمه وحكمته وكل صفاته الإلهية .

الثاني : — تنبيه وتحذير للذين يقفون من محمد عليه السلام ودعوته موقف المعارضة ، وبيان لهم أن عاقبتهم ستكون مثل عاقبة أولئك الذين وقفوا في وجه الإصلاح من السابقين عليهم ، وهي عاقبة سيئة على كل حال .

الثالث : — التأكيد للنبي عليه السلام ومن معه بأنهم المنتصرون حتماً لأن سنة الله في خلقه أن الذين يرثون الأرض ومن عليها هم أصحاب الجديدين الذين يستهدفون المصلحة العام والخير العام ، والذين يحققون هذا الهدف عن طريق العمل الصالح .

والآيات القرآنية التي تشير إلى التجارب التاريخية التي مرت بها الإنسانية كثيرة جداً في القرآن الكريم .

والظواهر الاجتماعية التي تشير إليها ، أو التي يمكن الوقوف عليها من هذه التجارب ، كثيرة جداً هي الأخرى .

إن الموقف الذى تقفه من هذه الظواهر ، وهذه التجارب ، هو الذى جعلنا
عديعى الاستفادة منها .

إننا لم نقف من هذه الآيات موقف الدارس لها ، المستنبط منها لكثير من
الظواهر الاجتماعية ، وهذا هو الذى جعلنا نجعل كل ما فيها من علم وخبرة .
لقد درس الفقهاء آيات الفقه ، والحكماء آيات الفاسفة ، والنحويون
والبلاغيون قواعد النحو والبلاغة ، وهكذا . . . وهكذا . . . ولكن علماء
المسلمين لم ينتبه منهم إلا القليل النادر لما فى هذه الآيات من مواعظ وعبر يمكن
الاستفادة منها فى فهم الحياة ، وفى الأساليب التى تمارس بها الحياة ، وفى المواقف
التي تكون بالنسبة للتجديد وللأساليب الثورية فى عمليات التجديد .

ولقد نعى الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده على المفكرين من علماء الدين
الإسلامى هذا الموقف ،

ولقد يكون من المفيد أن نضع بين يدي القارئ نصاً من النصوص الواردة
فى تفسير المنار عن هذه القضية .

جاء فى المنار عند تفسيره للآية القرآنية الكريمة :

« قد خلت من قبلكم سنن ، فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان
عاقبة المكذبين .

هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين . . . » ما يلى : —

إن إرشاد الله إيانا إلى أن له فى خلقه سنناً ، يوجب علينا أن نجعل هذه
السنن علماً من العلوم المدونة لتستديم ما فيها من الهداية والموعظة على
أكل وجه . . .

ويجب على الأمة فى مجموعها أن يكون فيها قوم يبينون لها سنن الله فى خلقه ،
كما فعلوا فى غير هذا العلم من العلوم الشرعية التى وضعت لها الأصول والقواعد ،
وفرغت منها الفروع والمسائل . . .

وإننى لأشك أبداً فى كون الصحابة رضى الله عنهم كانوا مهتدين بهذه
السنن ، وطالين براد الله من ذكرها .

أى أنهم بما لهم من معرفة بأحوال القبائل والشعوب العربية ، ومن التجارب والأخبار فى الحرب وغيرها ، وبما منحوا من الذكاء والحذق وقوة الاستنباط ، كانوا يفهمون المراد من سنن الله تعالى ويهتدون بها فى : حروبهم وفتوحاتهم ، وسياستهم للأمم التى استولوا عليها .

وما كانوا عليه من العلم والتجربة والعمل أنفع من العلم النظرى المحض . وكذلك كانت علومهم كلها .

ولما اختلفت حال العصر اختلافاً احتاجت الأمة معه إلى تدوين علم الأحكام ، وعلم العقائد ، وغيرها ، كانت محتاجة أيضاً إلى تدوين هذا العلم . ولك أن تسميه علم السنن الإلهية ، أو علم السياسة الدينية ، أو علم الاجتماع . سم ما شئت فلا حرج فى التسمية .

ومعنى الآيات القرآنية : انظروا إلى من تقدمكم من الصالحين والمكذبين ، فإذا أنتم سلكتم سبيل الصالحين فعاقبتكم كعاقبتهم ، وإن سلكتم سبيل المكذبين فعاقبتكم كعاقبتهم . ثم يقول رحمه الله :

جاء ذكر السنن الإلهية فى مواضع من الكتاب العزيز .

يقول الله تعالى : « وأقسموا بالله جهد إيمانهم لنن جاءهم نذير ليكونن أهدى من إحدى الأمم ، فلما جاءهم نذير ما زادهم إلا نفورا .

استكباراً فى الأرض ، ومكر السيئ ، ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله . فهل ينظرون إلا سنة الأولين .

فلن تجد لسنة الله تبديلاً ، ولن تجد لسنة الله تحويلاً .

أفلم يسيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم ، وكانوا أشد منهم قوة .

وما كان الله ليمجزه من شيء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان علماً قديراً .

ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهورها من دابة ، ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى .

« فإذا جاء أجمعهم فإن الله كان بمباده بصيرا . . . »

وصرح القرآن الكريم في سور أخرى ، كما صرح هنا ، بأن سنته لا تتبدل ، ولا تهول . كسورة بنى إسرائيل ، وسورة الأحزاب ، وسورة الفتح ، وغيرها .

هذا الإرشاد الإلهي لم يعهد في كتاب سماوى — ولعله أرجى — إلى أن يبلغ الإنسان كمال استعداده الاجتماعى ، فلم يرد إلا في القرآن الكريم الذى ختم الله به الأديان .

كان المليون من جميع الأجيال يعتقدون أن أفعال الله تعالى في خلقه تشبه أفعال الحاكم المستبد في حكومته ، المطلق في سلطته ، فهو يحاجب بعض الناس فيتجاوز لهم عما يعاقب لأجله غيرهم ، ويثيبهم على العمل الذى لا يقبله من سواهم لجرد دخولهم في عنوان معين ، واثناءهم إلى نبي مرسل ، وينتقم من بعض الناس لأنهم لم يطلق عليهم ذلك العنوان ، أو لم يتفق لهم الاتناء إلى ذلك الإنسان .

هذا ما كانوا يظنون في دينهم ، ويسندونه إلى مشيئة الله تعالى المطلقة من غير تفكير في حكمته البالغة وتطبيقها على سنته العادلة .

فإن نهبهم منه إلى ما يصيبهم ، بل ما أصاب أنبياءهم ، من البلاء قالوا : إنه تعالى يفعل ما يشاء .

وذلك رفع درجات ، أو تكفير سيئات ، وأشباه هذا الكلام الذى يشتبه عليهم حقه بباطله ، ويلتبس عليهم طاليه بباطله — وقد كان وما زال علة غرور أصحابه بدينهم ، واحتقارهم لكل ما عليه غيرهم .

فجاء القرآن الكريم يبين للناس أن مشيئة الله تعالى في خلقه إنما تنفذ على سنن حكيمة ، وطرائق قويمه .

— ٢٩٣ —

فمن سار على سنته في الحرب مثلاً ظفر بمشيئة الله — وإن كان ماحداً
أو وثنياً .

ومن تسلبها خسر — وإن كان صديقاً نبياً . . .

وعلى هذا يتخرج انهزام المسلمين في وقعة أحد حتى وصل المشركون إلى
النبي صلى الله عليه وسلم فشجوا رأسه ، وكسروا سنه ، وردوه في تلك الحفرة .
ولكن المؤمنين الصادقين أجدر الناس بمعرفة سنن الله تعالى في الأمم ،
وأحق الناس بالسير على طريقها . . .

لذلك لم يلبث أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم أن تابوا إلى رشدهم . . .

وكان بعض المسلمين لم يكونوا قد حفظوا ما ورد في السور المسكية من إثبات
سنن الله في خلقه ، وكونها لا تتبدل ولا تتحول ، كسور : الحجر ، وبني إسرائيل ،
والكهف ، والملائكة أو فاطر — وهي التي ذكرنا بعضها آنفاً ، وأشرنا إلى بعض .
أو حفظوه ولم يفقهوه ولم يظهر لهم انطباقه على ما وقع لهم في أحد ، كما يعلم
من قوله تعالى : —

« أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم : أنى هذا ؟

قل : هو من عند أنفسكم . . . »

لذلك صرح لهم في بدء الآيات التي تبين لهم سنته أن لهم سنناً عامة جرى
عليها نظام الأمم من قبل ، وأن ما وقع لهم مما يقص عليهم حكمته ، هو مطابق
لتلك السنن التي لا تتحول ولا تتبدل . . .

ولما كان التعليم بالقول وحده من غير تطبيق على الواقع مما ينسى أو يقل
الاعتبار به ، نهجهم على هذا التطبيق في أنفسهم وأرشدتهم إلى تطبيقه على أحوال
الأمم الأخرى فقال تعالى : —

« فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذابين . »

فسيروا في الأرض ، واستقروا ما حل بالأمم ، ليحصل لكم العلم الصحيح التفصيلي بذلك — وهو الذي يحصل به اليقين ، ويترتب عليه العمل .

والسير في الأرض والبحث عن أحوال الماضين ، وتعرف ما حل بهم ، هو الذي يوصل إلى معرفة تلك السنن والاعتبار بها كما ينبغي .

نعم ، إن النظر في التاريخ الذي يشرح ما عرفه الذين ساروا في الأرض ، ورأوا آثار الذين خلوا ، يعطى الإنسان من المعرفة ما يهديه إلى تلك السنن ، ويفيده عظة واعتباراً — ولكن دون اعتبار الذي يسير في الأرض بنفسه ، ويرى الآثار بعينه .

ولذلك أمر سبحانه ثم اتبع ذلك بقوله تعالى : —

« هذا بيان للناس ، وهدى وموعظة للمتقين . . . »

كأنه يقول : إن كل إنسان له عقل يعتبر به ، فهو يفهم أن السير في الأرض يدل على تلك السنن — ولكن المؤمن المتق أجدر بفهمها لأن كتابه أرشده ١ . وأجدر كذلك بالاهتداء والاتعاظ بها .

وقد بينا في تفسير سورة الفاتحة أن لسير الناس في الحياة سنناً يؤدي بعضها إلى الخير والسعادة ، وبعضها إلى الهلاك والشقاء .

وأن من يتبع تلك السنن فلا بد أن ينتهى إلى غايتها -- سواء كان مؤمناً أو كافراً .

ومن هذه السنن أن اجتماع الناس وتواصلهم وتعاونهم على طلب مصلحة من مصالحهم يكون مع الثبات من أسباب نجاحهم ، ووصولهم إلى مقصدهم — سواء كان ما اجتمعوا عليه حقاً أو باطلاً .

فالقرآن يهدينا في مسائل الحرب والتنازع مع غيرنا إلى أن نعرف أنفسنا وكنه استعدادنا لنكون على بصيرة من حقنا ، ومن السير على سنن الله في طلبه وفى حفظه .

وأن نعرف كذلك حال خصمنا ، ونضع الميزان بيننا وبينه — وإلا كنا غير مهتدين ، ولا متعظين .

* * *

وقد عني الأستاذ الإمام بهذه السنن الإلهية أو هذه الظواهر الاجتماعية ، وأشار إلى بعضها عند تفسيره للآيات القرآنية الواردة فيها ذكر لهذه السنن .

ومن السنن التي أشار إليها ما يلي : —

١ — ما ثبت بالمشاهدة والاختبار من تفاوت البشر في الاستعداد للآمان والكفر وفيهما ، وفي الاستعداد للخير والشر وفيهما .

وجزاء الله تعالى على الأعمال في الدنيا والآخرة يجري على أساس من هذا التفاوت . فلا يكاف الله نفساً إلا وسعها .

٢ — ما ثبت بالاستقراء من كون الظلم في الأمم يقتضى عقابها :

في الدنيا بالضعف والانحلال الذي قد يفضى إلى فقد الاستقلال ، وكون هذا العقاب على الأمة بأسرها لا على مقترفي الظلم وحدهم .

قال تعالى : « واتقوا فتنه لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة » .

وذلك أن الفتن في الأمم ، والظلم الذي ينتشر فيها ولا يقوم من أفرادها وجماعتها من يقاومه ، يعم فسادها .

٣ — كون القوى والحذر في الأعمال من فعل وترك في الشؤون العامة والخاصة من : اجتماعية ، وشخصية — دينية أو دنيوية ، تكسب صاحبها ملكة يفرق فيها بين الحق والباطل ، والخير والشر ، والمصلحة والمفسدة ، فيجری في أعماله على مراعاة ذلك في ترجيح : الحق والخير والمصلحة على ما يقابلهن . إلا فيما عساه يعرض له من جهالة أو سهو أو نسيان لا يلبث أن يرجع عنه إذا ذكر أو تذكر .

٤ — كون تغير أحوال الأمم وتنقلها في الأطوار من نعم وتقم أثراً طبيعياً

قطرياً لتغييرها ما بأنفسها من العقائد ، والأخلاق ، والملكات التي تطبقها
في الأنفس والعادات وتترتب عليها الأعمال .

٥ - كون ولاية الأعداء من دون الأولياء من أعظم مشارات الفتنة
والفساد في الأمة ، والاختلاف والانحلال في الدولة .

كولاية المؤمنين في النصرة والقتال للكافرين الذين يوالى بعضهم بعضاً
على المؤمنين في الحروب .

* * *

هذه السنن وأمثالها هي التي أصبحت وسائل يستثمرها محمد بن عبد الله عليه
السلام في الصراعات الدائرة بينه والذين معه من جانب ، والمشركون وأهل الكتاب
من الجانب الآخر .

ودور هذه السنن في الصراع أنها تبصر الفرقاء جميعاً بالنهاية التي سينتهي إليها
هذا الصراع .

وقد يكون من المفيد أن نقف عند توجيهات القرآن الكريم لمحمد عليه السلام
في كيفية الانتفاع بهذه السنن . الانتفاع بها بالنسبة لنفسه وما يلزمها من خواطر ،
والانتفاع بها بالنسبة لموقفه من الخصوم .

وتبدأ العملية ببدء الدعوة الإسلامية . تبدأ بتحديد الغاية التي من أجلها
قامت الدعوة .

والدعوة الإسلامية بدأت كما تبدأ كل دعوة صادقة . بدأت بالعمل في سبيل
القضاء على مافي الحياة من انحرافات ، والعمل على بناء مجتمع جديد يتحقق فيه
العدالة ، وينتفى فيه الظلم .

ولقد كان الأقدمون من علماء الدين الإسلامي صادقين في نظرتهم حينما أطلقوا
على البلاد الإسلامية اسم « دار العدل » — أى البلاد التي يجب أن يتحقق فيها
العدل .

والدعوة إلى القضاء على الفساد ، وإلى قيام مجتمع جديد ، لا تقابل أبداً بالتسليم
فإنما لابد من معارضة ، ولا بد من قوى مضادة .

ولقد سبق لنا أن ذكرنا العوامل التي تؤثر في قيام المعارضة ، وفي تمسك القوى
المضادة بالقيم التي يجري عليها العمل : كما سبق لنا أن ذكرنا الوسائل التي اعتمد
عليها الخصوم في سبيل القضاء على محمد عليه السلام والذين معه من حيث أن في
ذلك قضاء على الدعوة نفسها .

إننا هنا إنما نشير فقط إلى تلك السنن التي اعتمد عليها القرآن الكريم في
تبصرة محمد عليه السلام بكل أبعاد الموقف .

لقد ذكر القرآن الكريم أن لكل نبي ، أو لكل داع إلى إحداث تغييرات
جذرية في الأساليب التي تمارس بها الحياة وفي القيم التي تستند إليها تلك الأساليب ،
أعداء يقفون في وجهه ، ويعارضونه ، ويستخدمون الأساليب المختلفة في سبيل
القضاء عليه .

يقول الله تعالى : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين وكفى بربك
هادياً ونصيراً »

ويقول : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً : شياطين الإنس والجن ، يوحى
بعضهم إلى بعض زخرف القول ، غروراً .

ولو شاء ربك ما فعلوه ، فذرهم وما يفترون .

ولتصني إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة ، وليرضوه ، وليقتروا ما هم
مقترون .

أفغير الله أبتغي حكماً ؟ وهو الذي أنزل إليكم الكتاب مفصلاً .

والذين آتيناهم الكتاب يعلمون أنه منزل من ربك بالحق ، فلا تكونن من
المترين . وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً ، لا مبدل لكلماته ، وهو السميع العليم .

وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله إن يتبعون إلا الظن ،
وإن هم إلا يخرصون .

إن ريك هو أعلم من يضل عن سبيله ، وهو أعلم بالمهتدين .. »
وهؤلاء الأعداء الذين يشير إليهم القرآن الكريم ويجعل من وجودهم ظاهرة
اجتماعية لا تتخلف كلما كانت هناك عملية تجديد وعمليات تغيير ، يتمثلون في زمن
محمد عليه السلام ، وفي مواجهته ، في نوعين من المؤسسات :

المؤسسات الدينية

والمؤسسات الرأسمالية .

وعدة النوع الأول كما سبق أن ذكرنا هم العلماء بالدين من الأجبارة والرهبان ،
والقساوسة والكهنة ، وما أشبه .

وعدة النوع الثاني كما سبق أن ذكرنا أيضاً ، هم الأغنياء الأقوياء من التجار
ومن إليهم .

ومن هذه المؤسسات كانت القوة والخشية بحيث بدأت الدعوة الإسلامية
مرية لاعلنية . فقد كان محمد بن عبد الله عليه السلام بقدر أن اصطدامه بهذه
المؤسسات قبل أن يكثر من حوله الأنصار والأعوان يعرضه لأخطار قد تفضي
عليه وعلى دعوته :

على أن الأمر لم يلبث أن عرف ، وأخذت هذه المؤسسات في مقاومة الدعوة
الجديدة .

كان من أسلحتها تكذيب الدعاة ، والاستهزاء والسخرية بهم وبأنفكارهم ،
كما سبق أن أشرنا أيضاً .

وأشار القرآن الكريم إلى هذا الموقف ، وقرره على أنه الظاهرة الاجتماعية
التي لا تتخلف . الظاهرة التي وجدت مع كل نبي ، وكل رسول ، جاء قبل محمد
عليه السلام .

يقول الله تعالى : « يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون »

ويقول : « ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين ، وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون .

كذلك نسلكه في قلوب المجرمين . لا يؤمنون به ، وقد خات سنة الأولين »
ويقول : « ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى جاءهم نصرنا ... » الخ

أخذت القوى المضادة تستخدم الأسلحة التي سبق أن أشرنا إليها على أنها من وسائل المشركين وأهل الكتاب .

كان لهذه الأسلحة أو لهذه الوسائل ردود فعل مختلفة عند محمد عليه السلام . وهذه الردود هي التي تعيننا في هذا المقام .

إن ردود الفعل هذه كانت كافية — لولا توجيهات من القرآن الكريم — على أن تفسد على محمد عليه السلام وسائله التي يعتمد عليها في التمكين للدعوة الجديدة من الأرض العربية ثم الأرض الإسلامية .

لقد أخذت المخاوف تتسرب إلى ذهنه . المخاوف من ألا يكون على الحق ، والمخاوف من أن يقضى على الدعوة قبل التمكين لها .

وكانت هذه المخاوف تخلق في نفسه خواطر معينة . من مثل أن ينصرف عن الدعوة ، أو يجيب الله طلبات المشركين من الآيات المعجزة وما أشبه .

وجاء القرآن الكريم ببيان له أن ما يلقاه من الأذى هو الأمر الذي يحدث دائماً لسكل المجددين من الأنبياء والمرسلين .

وأن الإيمان بالجديد لا بد له من فترة زمنية ، وليس للمعجزات أى شأن في خلقه ، وإنما الشأن كل الشأن لسنن الله في خلقه ، أو لفطرة الله التي فطر الناس عليها .

وأن النصر قادم لا محالة ، ولكن بعد صبر ومعاناه .
 لابد من التمسك بالجديد الذي يحقق الخير العام ، ويستهدف الحياة الأفضل .
 وكل ذلك يتحقق بعد أن يكثر عدد المؤمنين بالمبادئ الجديدة .
 والذين يلتفون حول الدعوة هم الذين يرون فيها مصلحة لهم ، وهؤلاء
 يكونون في أول الأمر من الطبقة الدنيا ثم المتوسطة .
 على هذا كله وردت الآيات التي تؤكد أن كل ما حدث لم يكن إلا من
 الظواهر الاجتماعية التي يسميها القرآن الكريم بسنة الله في خلقه .
 وقد التفت المحدثون من المفسرين إلى ذلك كله .

* * *

فمن سنة الله في خلقه المبينة في آيات كثيرة من كتابه ، أن أول أتباع خاتم
 الرسل كأتباع من تقدمه من الرسل كانوا من الضعفاء الفقراء .
 وأن أعداءه عليه السلام كأعداء من سبقه من الرسل ، كانوا من المترفين —
 أي من الأكابر والرؤساء .
 وأن هؤلاء الأعداء المستكبرين عن الإيمان كانوا يحتقرون السابقين إلى
 الإيمان ، ويذمونهم ، ويعدون أنفسهم معذورين أو محقين بعدم الرضا لأنفسهم
 بمساواتهم .

وكانوا يقترحون على الرسل في بعض الأوقات طردهم وإبعادهم .
 قال الله تعالى في سورة سبأ : « وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها :
 إنا بما أرسلتم به كافرون .

وقالوا : نحن أكثر أموالاً وأولاداً وما نحن بمعذيين . »
 وقال تعالى في سورة هود حاكياً قول الملاء من قوم نوح : « وما نراك أتبعك
 إلا الذين هم أرادنا بآدى الراى .

— ٣٠١ —

وقول نوح لهم : « وما أنا بطارد الدين آمنوا .. »
وقد حكي الله عن كفار قريش أنهم قالوا في الضعفاء : « لو كان خيراً
ما سبقونا إليه »

وقال في شأنهم في سورة مريم : « وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين
كفروا للذين آمنوا : أى الفريقين خير مقاماً وأحسن ندياً ، وكم أهلكنا قبلهم من
قرن هم أحسن أثاثاً ورثياً »

* * *

ومن سنة الله في خلقه أن الدعاة قبل أن يكثر من حولهم الأنصار والأعوان —
أى المؤمنين بالعقيدة الجديدة — يكونون في حالة من القلق ، وحالات من الإشفاق
والحذر ، تجعلهم دائماً التفكير في موقفهم وموقف الخصوم ، ويجعلهم دائماً في
الموقف الأضعف الذى تنشأ فيه الخواطر والأفكار القلقة غير الثابتة .

وهذا هو الذى وقع لمحمد عليه السلام .

كان يخشى أن يكون هذا الذى ينزل عليه ليس الحق ، فأبعد القرآن الكريم
عن ذهنه هذا الخاطر .

يقول الله تعالى : « فإن كنت في شك مما أنزلنا إليك فأسأل الذين يقرءون
الكتاب من قبلك . لقد جاءك الحق من ربك ، فلا تكونن من الممترين ... »

وكان يحزن ويضيق صدره بالأذى يقع عليه وعلى أعوانه ، وبما يقولون في
شأنه من أقوال سيئة ، فجرب في خاطره أن ينصرف عن هذه الدعوة التى تسبب له
كل هذه المتاعب .

ووقف القرآن الكريم إلى جانبه يوجهه إلى ما فيه مصلحته ، ومصلحة قومه ،
ومصلحة الأمة الإسلامية .

يقول الله تعالى : « فلعلك تارك بعض ما يوحى إليك وضائق به صدرك أن
يقولوا : لولا أنزل عليه كنز أو جاء معه ملك .

إنما أنت نذير

ويقول تعالى : « ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون —
ويعلق الأستاذ الإمام على الآية الأولى « فلعلك تارك » بقوله : —

أى أفطارك أنت أيها الرسول بعض ما يوحى إليك مما يشق سماعه على
المشركين من الأمر بالتوحيد، والنهي عن الشرك، والإنذار والوعيد الشديد لهم،
والنعي عليهم ...

وضائق به صدرك أن تبلغهم إياه كله كما أنزل — كراهة أن يقولوا : لولا
أنزل عليه كنز ... الخ

أى أن ضيق الصدر وكتمان بعض الوحي مما يخطر بالبال ، وشأنه أن تقتضيه
الحال بحسب المهود من طباع الناس ...

فهل أنت مجترح لهذا الترك ، أو مستسلم لما يعرض لك بمقتضى البشرية من
ضيق الصدر ؟

كلا ، لا تفعله ...

أى لعلك قائلها غما وإنتحاراً ؟ لا تفعل .

وحاصله ، أن عنادهم ، وجحودهم ، وإعراضهم عن الإيمان ، وشدة إهمامك
بأمرهم فيما ليس أمره بيدك ، مما من شأنه أن يفضى إلى ذلك لولا عصمتنا إياك
ونبيناك لك .

فهل تصر عليه حتى تبخع نفسك ؟

لا ، لا ، لا

ويوضح هذا المعنى في كون الإرشاد مبنياً على بيان الواقع في تلك الوقائع ،
قوله تعالى : « : « ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلاً . الخ »

— ٣٠٣ —

إنما أنت تذر فعليك أن تبلغ جميع ما أمرت أن تبلغه
وإن ساءهم وأطلق السنهم ...

والله على كل شيء وكيل ، فهو الموكل بأمر العباد ، والرقيب عليهم فيها ،
وليس عليك منها شيء . لأنها من أمور الخلق والتدبير — لامن موضوع التعليم
والتبليغ ، الذى هو وظيفة الرسل ، كما قال فى آيات أخرى .

« ليس عليك هدام ، ولكن الله يهدى من يشاء . »

« فذكر إنما أنت مذكر لست عليهم بمصيطر ... »

« نحن أعلم بما يقولون وما أنت عليهم بجبار »

* * *

وموقف القرآن الكريم من محمد عليه السلام موقف الكاشف له عن سنن
الله فى خلقه ، كما سبق أن ذكرنا .

ولذا نرى القرآن يمضى معه إلى أبعد مما تقدم فيقول له : —

« يا أيها الرسول : بلغ ما أنزل إليك من ربك ، وإن لم تفعل فما بلغت رسالته .

والله يعصمك من الناس »

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين .

إننا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله إلهاً آخر ... »

« قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون . فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين

بآيات الله يمحذون .

ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا .

ولا مبدل لكلمات الله .

ولقد جاءك من نبي المرسلين .

وإن كان كبر عليك إعراضهم ، فإن استطعت أن تبغى نفقا فى الأرض أو سماء

فى السماء فتأتىهم بآية - ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلین » .

« إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً .

ولا تسأل عن أصحاب الجحیم . . .

ويعلق الأستاذ الإمام على هذه الآية فيقول :

أى فلا يضرك تكذيب المكذبين الذين يساقون ببحودهم إلى الجحیم - لأنك لم تبعث ملزماً لهم ولا جباراً عليهم فيعد عدم إيمانهم تقصيراً منك تسأل عنه ، بل بمثت معلماً وهادياً بالبيان ، والدعوة ، وحسن الأسوة .

لا هادياً بالفعل ، ولا ملزماً بالقوة . . .

وفى الآية تسلية للنبي صلى الله عليه وسلم لثلاث يضيق صدره ، كما تدل على ذلك آيات أخرى . . .

وفى الآية من العبرة ، أن الأنبياء بعثوا معلمين لا مصيطرين ، ولا متصرفين فى الأنفس ، ولا مكرهين . فإذا جاهدوا فإنما يجاهدون دفاعاً عن الحق لا إكراها عليه . وفيها ، أن الله تعالى لا يطالب الناس بأن يأخذوا عنهم إلا العلم الذى يهديهم إلى :

معرفة حقوق الله .

ومعرفة حقوق العباد .

* * *

كان معنى التوجيهات السابقة أن يستمر محمد بن الله عليه السلام فى تأدية وظيفة النبوة من غير أن يستعجل النتائج ، لأن النتائج وهى تصديق الناس له ، وإيمانهم بالعقيدة الجديدة ، وممارستهم للحياة على أساس من العقيدة ، يجرى على أساس من سنن الله فى خلقه .

وسنن الله في خلقه تستغرق من الأزمان ما تطول مدته عن تلك المدة التي يقدرها الرسل والأنبياء في العادة .

إن الرسل والأنبياء ، وإن الدعاة للمبادئ الجديدة ، يرغبون دائماً في النجاح السريع الذي يحقق كل الأهداف التي يرغبون في تحقيقها .
وإن سنن الله في خلقه تقتضى عمليات داخلية في عقل الإنسان وعواطفه ، ومعتقداته القديمة ، تنتهى بها إلى طرح القديم والتمسك بالجديد ، أو التفاعل بينهما تفاعلاً يتم لصالح الجديد . وكل ذلك يقتضى زمناً تستمر فيه الدعوة ويستمر فيه التفاعل .

وفي هذه الفترة الزمنية التي قد تطول يتحقق أمران :

الأول منهما أشرنا إليه مراراً ، وهو الأذى ينال الدعاة ومن آمن بهم .
وفي ذلك يقول القرآن الكريم للمسلمين الأولين ، وللنبي عليه السلام .
« لتبْلُونَ في أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيراً » .
ويقول : « ولتبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلو أخباركم .
إن الذين كفروا ، وصدوا عن سبيل الله ، وشاقوا الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ، لن يضروا الله شيئاً .
وسيجبط أعمالهم . . . » .
وصدق الله فقد أحبط أعمالهم وانتصر محمد عليه السلام عليهم ، وحقق أهدافه .

والثاني منهما : انتصار الجديد . . .

وانتصار الجديد على القديم . الجديد الذي يحقق الصالح العام على المديم الذي أصبح غير صالح للحياة ، سنة أخرى من سنن الله في خلقه . ولا يكون إلا بعد جهد ومشقة ، وبأس ومعاناة .
يقول الله تعالى : « أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا

— ٣٠٦ —

من قبلكم ، مستهم البأساء والضراء ، وزلزلوا ، حتى يقول الرسول والذين آمنوا :
متى نصر الله ؟

إلا إن نصر الله قريب . . . » .

ويقول : « حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا ، جاءهم نصرنا .
فنجى من نشاء .

ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين . . »

ويقول : « إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا »

ويقول : « وكان حقاً علينا نصر المؤمنين . . . » .

ويقول : « ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر :

أن الأرض يرثها عبادى الصالحون . . » .

وإنما الصالحون في عرف المفسرين هم الذين يصلحون لإقامة الحق والعدل
وسائر شرائع الله وسننه في العمران .

ويقول الأستاذ الإمام : ومدار هذه السنة على أن العاقبة في التنازع بين الأمم
على الأرض التي تعيش فيها أو تستعمرها : للمعتقين .

أى الذين يتقون أسباب الضعف والخذلان والهلاك ...

والذين يتلبسون بسائر ما تقوى به الأمم من الأخلاق والأعمال . . .

وهذان الأمران هما أعظم ما تتفاضل به الأمم من القوى المعنوية ... » .

وصدق الله العظيم حين يقول :

« ولقد أهلكنا القرون من قبلكم لما ظلموا وجاءتهم رسلهم بالبينات -
وما كانوا يؤمنوا .

— ٣٠٧ —

كذلك نجزي القوم المحرومين .

ثم جعلناكم خلائف في الأرض من بعدهم لننظر كيف تعملون ؟ ... »

* * *

ونقف عند هذا الحد من الحديث عن السنن ، ومن أراد المزيد منها فيما يتعلق
بمحمد عليه السلام فليرجع إلى كتابنا « الفن القصصى فى القرآن الكريم »
ففيه كل ما يتصل بمحمد عليه السلام من حيث الظواهر الاجتماعية .

وكتاب الفن القصصى كتب بعد هذا ، وإن يكن قد تم طبعه قبل هذا —
طبع عدة مرات •
والطبعة المعروضة فى دور النشر الآن هى الطبعة الرابعة •

الوسائل الفنية أو الأدبية

إذا كان القرآن الكريم قد اعتمد في دفاعه أو هجومه على كثير من الآراء الشائعة في البيئة إذ ذلك فإنه أيضاً قد استثمر ما في الإنسان من قوى نفسية ، فكان يستثير كثيراً من الإنفعالات والعواطف والفراغ الإنسانية حين يجادل خصومه أو حين يحاول التأثير فيهم .

وصلة العواطف والإنفعالات بالأفكار والآراء صلة قوية لا يستطيع أحد أن ينكرها .

فالأفكار ذات تأثير لا يسعنا إنكاره في حياتنا الفردية والاجتماعية ، وهذا التأثير لا يتم إلا إذا استندت هذه الأفكار إلى دعائم عاطفية . بل نجد كثيراً من الأفكار مصدرها الشاعر والعواطف .

ونحن لا نستطيع أن نمضى في شرح تلك المسألة والتدليل عليها ، فوضوعنا في هذا الفصل إنما هو ملاحظة ما اعتمد عليه القرآن منها . ويكفي أن نقول إن القرآن بكثرة استثارته لهذه العواطف يلفت الذهن إلى أنه قد اهتم بها ، ولاحظ قدرتها على التأثير في أفكار الناس وآرائهم .

وأظننا لسنا بحاجة إلى أن ندل على أن من مثيرات العواطف والإنفعالات الفنون، والفنون بجميع ألوانها تقريباً من موسيقى ونحت وتصوير وأدب . والصورة الأدبية تستثير فينا كثيراً من الانفعالات ، ولعلها تستثيرها بما تحميه في أنفسنا من مواقف أو مثيرات طبيعية شبيهة بتلك ، أو على أقل تقدير تذكرنا بها .

وأول الأشياء التي نصورها في هذا الفصل غريزة القدين وهي غريزة مكونة من جملة غرائز ، فهي غريزة معقدة : يقول ماكدوجل (والفراغ الثلاث التي تقوم عليها الديانات هي الإعجاب والرعب والاحترام .

فالإعجاب تمجيب مع إستسلام وخضوع ، والرعب إعجاب مع خوف ، والاحترام أو التقديس رعب مع شيء من الخوف .

وتبدو مظاهر هذه الغريزة في كثير من الانفعالات ، أو إنفعال واحد معتد

أيضاً هو التقديس لذات يعتقد أنها فوق الذوات ، لها من القوة والقدرة ما تستطيع أن تحول به الأمور كيفما تشاء وأنى تشاء.

والقرآن يتحدث عن التدين على أنه فطرة الله ، هذه الفطرة التي يصرح بها في قوله :

«فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرة الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . منيبين إليه واتقوه وأقيموا الصلاة ولا تكونوا من المشركين » .

والقرآن يلحظ أن التدين لا يكون موجهاً إلى إله واحد . بل قد يسلم الإنسان نفسه إلى وثن أو إنسان أو مبدءاً فيقول :

« إنما تعبدون من دون الله أوثاناً وتخلقون أفكاً »

ويقول :

«ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبا لله.»

ويقول :

«إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين » .

وهذا الانفعال المعقد كما ذكرنا يشتمل على كثير من الانفعالات الأولية ، فهو يتضمن الإعجاب ، وهذا بدوره يتضمن العجب والشعور بالخضوع أو الاستسلام ، ثم قد يلضم إليه الخوف فتكون الروعة والإجلال .

والإجلال يلتابنا حين نشعر أن القوى التي تثير إعجابنا وخوفنا هي قوى تعنى بنا وتسهل لنا السبل ، ولذلك لا يشعر الإنسان في هذا العصر بالإجلال الصحيح إلا بالنسبة للخالق سبحانه وتعالى . فإن أجل إنسان آخر فإنما يحله لشعوره بأن هذا الإنسان يمثل له القوة الالهية .

وقد فطن إخوان الصفاء إلى هذه الغريزة . كما فطن إليها ابن رشد . وصرح ابن رشد بأن القرآن قد اعتمد في التدليل على وجود الخلق يدللين هما . دليل العناية ، ودليل الاختراع .

* * *

إذا كان هذا الانفعال من الانفعالات المعقدة كان من المستحسن أن تتناول هذه الانفعالات واحداً واحداً . فتحدث عن الخوف ، وتحدث عن الاستسلام ، وتحدث عن غيرهما من الانفعالات ، كل في حديث خاص ، ولذلك سأذكر هنا اعتماد القرآن على إثارة التقديس والإجلال في جده .

اعتمد القرآن على إثارة هذا الانفعال في كثير من المواطن فراه يقول في الدفاع عن نفسه أمام من يقولون بالبئنة :

— « وإنه تعالى جد بني نأما أنأخذ صاحبة ولاولدا » .

ويقول :

« وقالوا أنأخذ الرحمن ولدا ، لقد أأأ شأأا إذا تكاد السموات أأأطرن منه وتأنشق الأرض وتأنجر أأبال هدا أن دأوا للرحمن ولدا ، وما أأأأ للرحمن أن أأأأ ولدا . أن كل من أأ السموات والأرض إلا آأأ الرحمن عبدا . لقد أأأأهم وعدهم عدا . وكلهم آأأأأ أوم أأأأأ فرداً »

ويقول : « وأأأوا لله شركاء أأأ وأأأأهم وأأأأوا له ببن وأأأ بنأأ علم سبأأأه وأأأأ عما أأأأون . بأأأ السموات والأرض أنأ أأأأ له ولد ولم أأأأ له صاحبة وأأأ كل شأأ وهو بأأأ شأأ علم . ذلأأ الله ربأأ لا إله إلا هو أأأ كل شأأ فأأأأوه وهو على كل شأأ وأأأ . لا أأأأه الأأأأر وهو أأأأ الأأأأر وهو اللأأأ أأأأر » .

ويقول أأ سبأأ الدفاع عن الوأأأأأة :

« وربأأ أأأأ ما أأأأ وأأأأأ ما أأأ لهم أأأأأ سبأأأ الله وأأأأ عما

أأأأأون »

ويقول: « تبارك الذى نزل الفرقان على عبده ليكون للعالمين نذيراً . الذى له ملك السموات والأرض ولم يتخذ ولداً ولم يكن له شريك فى الملك وخلق كل شئ فقدره تقديراً . واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون ، ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعاً ولا يملكون موتاً ولا حياة لا نشورا » .

فهو فى آية الجن يعتمد على ذلك التقديس الذى يحوط به البشر الله فينزهه سبحانه وتعالى عن أن تكون له صاحبه أو أن يكون له ولد . وهو فى آية مريم يخبرهم بأنهم قد أتوا شيئاً خطراً حتى لشكاد السموات يتفطرن وحتى لشكاد الأرض أن تدشق والجبال أن تحمر . هذا الشئ هو إدعائهم أن للرحمن ولداً . ثم هو يعتمد على ما بالنفس من تقديس وإجلال للإله ، وما بها من خضوع وإستسلام ، فيقول ما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . ويخبرهم بأن كل ما فى السموات والأرض آتى الرحمن عبداً .

وهكذا نجد القرآن يذكرهم بما للإله من قدرة وما له من ذات يجب أن تنزهه عن كل نقص ، وأن يبعد عنها كل ما من شأنه أن يشين .

* * *

الخوف

من الأشياء التى لاحظناها فى أساليب القرآن الجدلية استثارته لعاطفة الخوف ، وهذه العاطفة تستثار بأشياء كثيرة ، فهناك استثارته بالتهديد والوعيد ، وهناك استثارته بعرض الصور الأدبية التى تقص أحوال المارقين وتصور ما نزل بهم من المصائب ، وهناك استثارته بوصف جهنم وما فيها من طعام أو شراب . ثم هناك استثارته بالعدوى النفسية وهى تمثل الإنسان للخوف ، وإشعاره النير بأنه خائف وجل ، فإنها إذ ذاك تستثار فى النير غالباً .

والقرآن يصور من الظواهر النفسية لهذه العاطفة الشئ الكثير .
فهناك صلتها بالتدين أو الإيمان . والقرآن يقصر عمل الداعى أو الرسول فى بعض الأحيان

على الذين استعدت نفوسهم وتهيات قلوبهم للاستجابة ، أولئك الذين يحشون ربهم ويخافون سوء الحساب فتراه يقول :

« وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه ولى ولا شفيع لعلمهم يتقون »

ويقول : « وكذلك أنزلناه قرآنًا عربيًّا وصرفنا فيه من الوعيد لعلمهم يتقون أو يحدث لهم ذكراً » .

والمثيرات التي تستعمل في التهديد والوعيد لا تثير الخوف إلا إذا اعتقد الإنسان أنها مصدر حقيقى للخوف ، فإذا لم يفهم لها هذه القوة لم يخف ، ونلاحظ هذا من استعمال القرآن وتسجيله لهذه الظاهرة النفسية :

يقول الله تعالى : « وما مذمنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وأتينا نمرود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفاً . وإذا قلنا لك أن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن وتخوفهم فما يزيدهم إلا طغيانا كبيرا » .

ونلاحظ أيضاً أن قوم إبراهيم خوفوه آلهتهم فلم يخف قال تعالى : « وحاجه قومه قال أتأجوني في الله وقد هدان ، ولا أخاف ما تشركون به إلا أن يشاء ربي شيئاً ، وسع ربي كل شيء علما أفلا تقذرون ؟ وكيف أخاف ما أشركتم ولا تخافون أنكم أشركتم بالله ما لم ينزل به سلطاناً ، فأى الفريقين أحق بالأمن إن كنتم تعلمون » .

وقوم محمد صلى الله عليه وسلم يهددونه فيذهب الله عن نفسه أو يبعد عن ذهنه أن يكون تهديدهم هذا أى أثر فيقول :

« أليس الله بكاف عبده ويخوفونك بالذين من دونه . ومن يضلل الله فما له من هاد » .

وكما صور القرآن ذلك من حال الأنبياء مع أممهم صوره أيضاً من حال الكفرة

أو المشركين مع الأنبياء ، فهو لاء يخوفونهم فلا يخافون ، ويذهبون إلى درجة التحدى ، قال الله تعالى :

« وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم » .

والرازي قد فطن لتلك الظاهرة ، ولذا نراه يقول عند تفسيره لقوله تعالى :

« ولا يحزنك قولهم إن العزة لله جميعاً » .

« وأعلم أن الإنسان إنما يحزن من وعيد النير وتهديده ومكره وكيد لو جوز كونه مؤثراً في حاله ، فإذا علم من جهة علام النيوب أن ذلك لا يؤثر ، خرج من أن يكون سبباً لحزنه » .

ومن هنا كان الكفرة والمشركون يخافون أحياناً من المؤمنين أكثر من خوفهم من الله .

قال تعالى : « لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله » .

أما سلطان الخوف على تبدل الآراء وتميرها فشيء واضح كل الوضوح من كثير من الآيات .

قال تعالى : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين » . بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وإنهم لكاذبون » .

وقال تعالى :

« قل أرايتكم إن آتاكم عذاب الله أو أتتكم الساعة أغير الله تدعون إن كنتم صادقين بل إياه تدعون فيكشف ما تدعون إليه إن شاء وتنسئون ما تشركون » .

والتعبير في آخر الآية السابقة يتنسئون ما تشركون يدل على أنه إلى أي حد لاحظ القرآن سلطان الخوف حتى في التعبير .

فالواقع أن الإنسان حين يخاف إنما يلجأ إلى من يعتقد منه الحماية وإن كان عدوا وينسى كل ما عداه .
يقول الزمخشري :

« وتنسون ما تتركون وتتركون آلهتكم أو لا تذكرونها في ذلك الوقت ، لأن أذهانكم في ذلك الوقت منغورة بذكر ربكم وحده إذ هو القادر على كشف الضر دون غيره » .

وقال تعالى : « ألم تر إلى الذين يجادلون في آيات الله أنى يصرفون . الذين كذبوا بالكتاب وبما أرسلنا به رسلنا فسوف يعلمون إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون ثم قيل لهم أين ما كنتم تشركون من دون الله قالوا ضلوا عنا بل لم نكن ندعو من قبل شيئا كذلك يضل الله الكافرين » .

فهذا الإنكار من دعوة الآلهة وعبادتها أثر من آثار الخوف .

وعلة هذا التبديل أن الإنسان حين يكون منفعلا يجرى عقله في مسالك ضيقة ، ويتجه ذهنه إتجاهاً يحتمه عليه هذا الانفعال ، فلا يرى من الآراء إلا ما توحيه الظروف ويحتمه الحوادث
وفي الآيات السابقة ما يؤيد هذا .

على أن القرآن يصور لنا شيئاً أبعد من هذا من أثر الخوف ، ذلك هو أن الإنسان قد ينسى نفسه إلى درجة أن يذهب إلى ما يناقض آراءه السابقة ، كما أنه قد يتحير في أمره فيتجه في الرأي اتجاهات مضادة .

يقول الزمخشري : عند تفسيره لقوله تعالى : « ويوم نحشرهم جميعاً ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون ، ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين » .

فإن قات كيف يصح أن يكذبوا حين يطمعون على حقائق الأمور ، وعلى أن الكذب والجحود لا وجه لمنفعته .

قلت الممتحن ينطق بما ينفعه وبما لا ينفعه من غير تمييز بينهما حيرة ودهشا ، أترأهم يقولون ربنا اخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون ، وقد أيقنوا بالخلود ولم يشكوا فيه ، ونادوا بامالك ليقتض علينا ربك وقد علموا أنه لا يقضى عليهم .

وقوله : « ويوم يبعثهم الله جميعاً فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ، ألا أنهم هم الكاذبون » .

والقرآن يكثر من تصوير هذه الظاهرة — ظاهرة تبديل الآراء أو تذبذبها واضطرابها وقت الخوف ، ونلاحظ من تصوير القرآن أن هذا التبدل وقتي ، فالنفوس حين تأمن تهبط وترجع إلى حالها الأولى مستقرة على ما كانت عليه .

قال الله تعالى : « ربكم الذي يزجي لكم الفلك في البحر لتبتهلوا من فضله إنه كان بكم رحياً . وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه ، فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً » .

وقال : « ولو ترى إذ وقفوا على النار فقالوا ياليتنا نرد ولا نكذب بآيات ربنا ونكون من المؤمنين ، بل بدا لهم ما كانوا يخفون من قبل ولو ردوا لعادوا لما نهوا عنه وأنهم لكانظرون » .

نستطيع الآن أن نؤكد أن القرآن استفاد من تلك الظاهرة التي صورها في الآيات السابقة وهي قدرة الخوف على ذبذبة النفوس وتبدل الآراء ، كما استفاد من ظاهرة أخرى هي محاولة المرء الهرب أو الابتعاد عما يخيف حين يربط بين الخوف وبين كثير من الآراء التي يود هدمها أو القضاء عليها .

تلك الظاهرة التي نجدتها مصورة في قوله تعالى :

« قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا ، يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحة من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون .

وقال : « الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان وما يدريك لعل الساعة قريب، يستعجل بها الذين لا يؤمنون بها ، والذين آمنوا مشفقون منها ويعلمون أنها الحق، ألا أن الذين يمارون فى الساعة لى ضلال بعيد » .

ويقول : « ترى الظالمين مشفقين مما كسبوا وهو واقع لهم » .

فالقرآن فى آية البقرة يصور لنا اليهود مع قولهم بأن الآخرة لهم ، لا يتمنون الموت ولن يتمنوه خوفا من عذاب الله ، وهم أحرص من المشركين على الحياة ولكن هذا الحرص لن يرحزهم من العذاب .

وهو فى آية الشورى يصور لنا المؤمنين لاعتقادهم بالثواب والعقاب فى الآخرة وجلين مشفقين منها ، وليس هذا إلا لخوفهم من العقاب .

* * *

كان القرآن يهددهم أيضاً بالعذاب الدنيوى وذلك بقصه ما كان يحدث للأمة السابقة ، أو بلفته الذهن إلى ما كان معروفا عندهم من ذلك النوع ، فالقرآن يخبرنا بأنهم كانوا يعتقدون أن الأمم المكذبة ينزل بها العذاب فيقول :

«ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لولا أرسلت إلينا رسولا فنتبع آياتك من قبل أن نذل ونخزى »

ولذا نراه يقول : « ألم نهلك الأولين ثم نتبعهم الآخرين ، كذلك تفعل بالجرمين ، ويل يومئذ للمكذبين »

ويقول : «أو لم يصيروا فى الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم وكانوا أشد منهم قوة ، وما كان الله ليعجزه من شىء فى السموات ولا فى الأرض إنه كان عليا قديراً . ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة ولكن يؤخرهم إلى أجل مسمى فإذا جاء أجاسهم فإن الله كان بهباده بصيراً »

ويقول : « وكذلك نجزي من أسرف ولم يؤمن بآيات ربه ولعذاب الآخرة أشد وأبقى . أفلم يهددهم كم أهلكنا قبلهم من القرون يمشون فى مساكنهم إن فى ذلك لآيات لأولى النهى . ولولا كلمة سبقت من ربك لكان لزاما وأجل مسمى »

«ويقول الطبرى عند تفسيره لقوله تعالى قد خلت من قبلكم سنن فسيروا.... أى

قد مضت منى وقائع نعمة فى أهل التكذيب لرسلى والشرك فى عاد وثمود وقوم لوط وأصحاب مدين فسيروا فى الأرض تروا مثلاً قد مضت فىهم، ولمن كان على مثل ما هم عليه مثل ذلك منى، وإن أمكنت لهم، لئلا يظنون أن نعمتى انقطعت عن عدوهم وعدوى .

* * *

هناك نوع ثالث هو التخويف بالعذاب الأخرى ، وذلك اعتمد فيه القرآن على بعض الحقائق الديرية فقد كان من القوم من يؤمن بالآخرة ويعتقد فى الثواب والعقاب .

وكان القرآن يغرب فى بعض الصور حتى ليفزع الإنسان من مجرد القراءة قال الله تعالى : « بل كذبوا بالساعة وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً . إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً . وإذا ألقوا منها مكاناً ضيقاً مقرنين دعوا هنالك ثبوراً ، لا تدعوا اليوم ثبوراً واحداً وأدعوا ثبوراً كثيراً . قل أذلك خير أم جنة الئله الئى وعد المتقون كانت لهم جزاء ومصيراً . لهم فيها ما يشاؤون خالدين كان على ربك وعداً مسئولاً » .

فانظر إلى تلك الصورة الئى تمثل جهنم ممتلئة غيظاً وحقدآ حتى لتزفر الزفرة فتسمع من بعيد ، وهى تتطلع إلى أولئك المكذبين فتقد من الغيظ وتزفر من الحنق . ثم أنظر إلى مكان هؤلاء فيها وكيف يلقون فى مكان ضيق مقرنين ، وكيف أنهم يدعون الهلاك لأنفسهم حتى يتخلصوا مما هم فيه من المتاعب فيقال لهم أدعوا على أنفسكم مراراً وتكراراً . ثم تلك الحسرة وذلك الأسف الذى يريد أن يشيعه فى أنفسهم بما صوره من مقارنة بينهم وبين المتقين ، ومن مفارقة بين ما أعد لهم وأعد لهؤلاء » .

وقال تعالى « هذان خصمان اختصموا فى ربهم . فالذين كفروا قطعت لهم ثياب من نار يصب من فوق رؤوسهم الحميم ، يصهر به ما فى بطونهم والجلود ولهم مقامع من حديد، كلما أرادا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وذوقوا عذاب الحريق . إن الله يدخل الذين آمنوا وعملوا الصالحات جنات تجري من تحتها الأنهار يحلون فيها من

أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير . وهدوا إلى الطيب من القول وهدوا إلى صراط الحميد »

فأنظر إلى تلك الصورة التي قطع فيها للكافر ثياب من نار والتي يصب فيها الحميم من فوق رأسه فيصهر به ما في بطنه ويصهر به جلده، ثم أعدله من مقام الحديد ما الله عالم به ، وهو مع كل هذا كلما أراد الخروج منها لم يمكن وأعيد إلى مكانه الأول وقيل له ذق عذاب الحريق .

وتؤثر هذه الصورة بالنفس أكثر وأكثر حين تقارن بما أعد لمن آمن فهناك جنات تجري من تحتها الأنهار ، وهناك الأساور من الذهب ، وهناك اللؤلؤ وهناك اللباس من الحرير .

وهو يعد كل هذا قد هدى إلى الطيب من القول وهدى إلى صراط الحميد . وهناك ذلك النوع من الخوف الذي يمثله النبي دائماً حين يجادل القوم ويدعوهم إلى الإشراف أو افتراء الكذب على الله ، أو اتيانهم بقرآن غير هذا أو عصيانه الخالق فيما أمره به من التبليغ ، فند كان القرآن ينصح له بقوله :

« قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم » .

وبقوله : « لئن اشركت ليحبطن عملك » ومن هنا نرى القرآن يجعل من علامات صدق النبي وأن القرآن منزل عليه حقاً ، أنه لم يصبه العذاب ولم ينزل به العقاب فيقول : « أم يقولون افتراء قل إن افتريته فلا تملكون لي من الله شيئاً هو أعلم بما تفيضون فيه ، كفى به شهيداً بيني وبينكم وهو الغفور الرحيم »

ويقول « أم يقولون افتري على الله كذباً فإن يشاء الله يختم على قلبك ويمح الله الباطل ويحق الحق بكلماته إنه عليهم بذات الصدور » ويقول : ولو تقول علينا بعض الأقاويل لأخذنا منه باليمين . ثم لقطعنا منه الوتين . فما منكم من أحد عنه حاجزين » .

على أنا نجد هذا اللون من الخوف ممثلاً على السنة كثيرين من الرسل كما نجده على لسان الشيطان نفسه حين يخاصمهم في الآخرة . ويعطينا القرآن صورة هذه الخصومة في قوله :

« كتمل الشيطان إذ قال للإنسان أكفر فلما كفر قال إني برىء منك إني أخاف الله رب العالمين » .

فالقرآن في آية الحاقة يعتمد على تلك الحقيقة النفسية التي تؤمن بها الجماعة وهي أن الله ينال بالضر من يفتري عليه الذنب ، وهو يصور هذا الضر بقوله : لأخذنا منه باليمين وبقوله لقطعنا منه الوتين ، وهذه الصورة التي يجعلها القرآن عقاباً للنبي لوتقول على الله ، صورة تبعث الخوف حين يتخيلها الإنسان ، وتبعث الإطمئنان النفسى وهو المقصود منها حين تعرف الجماعة أن الله لم يدل النبي بالعقاب .
وهنا نحب أن نلفت الذهن إلى أن القرآن كان ينهز الفرص المناسبة ليستعين بالخوف على الإيحاء بالحقائق ، فنراه يقول مثلاً بعد انتصار المسلمين على المشركين في إحدى الغزوات .

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد . قد كان لكم آية في فتنتين القتلتا : فئة قتلت في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولى الأبصار » .

فهو هنا يوحى إليهم بأن المؤمنين منتصرين لا محالة ، وأن الله يؤيد بنصره من يشاء ، وهو يلفت ذهنهم إلى أن في ذلك عبرة لمن يعتبر ، فهو يوحى إليهم بأن الإيمان خير لهم .
وهنا ملاحظة أخيرة وهي أن القرآن كان يعرض عليهم من الصور الأدبية ما يفيد أنه لو شاء لأنزل بهم من البلياء أو المصائب الشيء الكثير ، وهو بهذا يشير فيهم عاطفة الخوف بعرض الصور التي تخيف حقاً لو أصبحت أمراً واقعاً
فنراه يقول : « قل أرأيتم أن أصبح ماء كم غوراً فن يأتكم بماء معين » .
فهذه الصورة وهي صورة انعدام الماء في أرض صحراوية قاحلة ، تبعث في نفس العربي الخوف ، وتوجه ذهنه إلى الخالق من غير شك .

الوعـد :

يعرف القرآن للوعد سلطانه النفسى ويعرف أن الإنسان يطمئن إليه وإن كان أملاً كاذباً أو أمنية باطلة — ما دام قد صادف هوى في نفسه أو آثار ميلا من ميوله

أو عاطفة من عواطفه . ويعلم أيضاً أن الانسان لا يطمئن إلى ذلك الوعد وإن كان حقاً إذا لم يصادف ذلك الهوى أو هذا الميل . ومن هنا نراه يذكر لنا أن أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة تصنى لوحى الشياطين .

فيقول : « وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون . ولتصنى إليه أفئدة الذين لا يؤمنون بالآخرة وليرضوه وليقتروا ما هم مقترفون » .
ويصور موقفاً في الآخرة يبين بوضوح أن الإنسان يطمئن إلى الوعد التي تصادف هوى في نفسه ويعرض عن التي لا تصادف ذلك الهوى وإن كانت الثانية عدلاً وصدقاً .

فيقول : « وقال الشيطان لما قضي الأمر إن الله وعدكم وعد الحق ووعدتكم فأخلفتكم ، وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم فاستجبتم لي ، فلا تلوموني ولوموا أنفسكم ، ما أنا بمصرخكم وما أنتم بمصرخي ، إني كفرت بما أشركتمون من قبل إن الظالمين لهم عذاب أليم » .

وتعبر هذه الآية وهي قوله تعالى :

« والذي قال لوالديه أف لكما أتعدانني أن أخرج وقد خلت القرون من قبلي وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين » .

عن رفض الانسان للوعود الصادقة ما دامت لم تصادف هوى في نفسه . يلحظ القرآن تلك الحقائق النفسية ويلحظ حقائق أخرى أبعد من هذه أثراً وهي أن الانسان يفسر ظواهر الكون وحقائق الوجود بما يحب ويهوى ، فبعض أهل الكتاب لا يعلمون الكتاب إلا أمانى .

« ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب إلا أمانى وإن هم إلا يظنون » .
ويقول رداً على من يعتقد أن الثواب أو العقاب الأخرى كما يحب ويشتهي .
« ليس بأمانىكم ولا أمانى أهل الكتاب من يعمل سوءاً يجز به ولا يجد
له من دون الله ولياً ولا نصيراً » .

بل يعتمد القرآن إلى أكثر من هذا فيصور الانسان مفترياً على الله ، مؤمناً
بذلك المفترى ، مطمئناً إليه ، لأنه الذى يحبه ويهواه .

فيقول « ألم تر إلى الذين أتوا نصيباً من الكتاب يدعون إلى كتاب الله
ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار
إلا أياماً معدودات وغرم في دينهم ما كانوا يفترون » .

وهكذا يعضى القرآن في كثير من الآيات شارحاً لتلك الظاهرة ، مصوراً
لها ، مثلاً لها في كثير من المواقف التى نعتقد أننا لسنا بحاجة إليها الآن .

اعتمد القرآن على هذه الحقيقة النفسية في الجدل فنراه يعد المعارضين في الرأى
أو المخالفين للنبي بالعزيز والرفعة في الدنيا وبالنعيم في الآخرة ، إن آمنوا وصدقوا بما
يقول النبي عليه السلام فنراه يقول : « وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات
ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم ، وليمكن لهم دينهم الذى
ارتضى لهم ، وليبدلهم من بعد خوفهم أمناً يعبدوننى لا يشركون بى شيئاً ، ومن
كفر بعد ذلك فأوئلكم هم الفاسقون » .

ويقول « إنا للنصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم
الأشهاد » .

كما يقول واعداً أهل الكتاب لو آمنوا وأتقوا « ولو أن أهل الكتاب
آمَنوا واتَّقَوْا لَكُنَّا عَنْهُمْ سِتًّا تَهُم وَلَا دُخْلُنَا مِنْ جَنَاتِ النَّعِيمِ . وَلَوْ أَنَّهُمْ أَقَامُوا
التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِمْ مِنْ رَبِّهِمْ لَأَكَلُوا مِنْ فَوْقِهِمْ وَمِنْ تَحْتِ أَرْجُلِهِمْ ،
مِنْهُمْ أُمَّةٌ مُقْتَصِدَةٌ وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ سَاءَ مَا يَعْمَلُونَ » .

أما ما يعدم به فى الحيلة الآخرة من جزيل الثواب فشيء كثير أو هو كما يقولون ما تشبهه الأنفس وتلذه الأعين، ويكنى أن.أورد هذا المثال .

قال تعالى : «الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين يا عباد لا خوف عليكم اليوم ولا أنتم تحزنون . الذين آمنوا بآياتنا . وكانوا مسلمين . أدخلوا الجنة أنتم . وأزواجكم تحبرون . يطاف عليهم بصحاف من ذهب وأكواب وفيها ما تشبهه الأنفس وتلذ الأعين وأنتم فيها خالدون . وتلك الجنة التى أوردتموها بما كنتم تعملون . لكم فيها فاكهة كثيرة منها تأكلون » .

وهنا أمر لابد من التنبية اليه، وهو أمر يخص كلا من الوعد والوعيد ، ذلك هو التسويف أو تأخير إجابة الطلب ، وفى التسويف أو الإلتظار شيء من حماية الوعد أو الوعيد، وذلك شيء لجأ اليه القرآن أو اعتمد عليه فى جدله ، فراه حين يطلب الخصوم من الننى آية دليلا على صدقه وبرهانا على أنه مرسل من عند الله حقاً » يقول : « أما النيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين »

أو يخبرهم بأن ذلك بيد الله وأنه هو لا يستطيع أن يجيبهم الا أن يأذن الله فيقول «ولقد أرسلنا رسلا من قبلك منهم من قصصنا عليك ومنهم من لم نقصص عليك، وما كان لرسول أن يأتى بآية إلا بإذن الله فإذا جاء أمر الله قضى بالحق وخسر هنا لك المبطلون »

واذا ما استعجلوا العذاب الذى وعدهم به جادين أو هازلين رد عليهم بقوله «قل إني على بينة من ربي وكذبتهم به ما عندي ما تستعجلون به إن الحكم إلا لله يقص الحق وهو خير الفاصلين . قل لو أن عندي ما تستعجلون به لقضى الأمر بيني وبينكم والله أعلم بالظالمين »

كما أنه كان يكتفى أحيانا بتأكيد الوعد أو الوعيد وأنه واقع لا محالة فيقول « وقالوا ما هي الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر وما لهم بذلك من علم إن هم إلا يظنون . وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان

حجتهم إلا أن قالوا أتوا بأبناؤنا أن كنتم صادقين - قل الله يحييكم ثم يميتكم ثم يجمعكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه ولئن أكثر الناس لا يعلمون «

ويقول : إن ما توعدون لآت «

ويقول « إن ما توعدون لواقع «

وهكذا نجد القرآن قد استثمر هذه الظاهرة في دفاعه أو هجومه كما هو واضح من الآيات السابقة .

الاستسلام :

والإنسان يخضع عادة لكل ما يحس فيه القوة والعظمة ويستسلم له .

والاستسلام إلى سلطة الغير قد يكون أحياناً على غير إرادة منا ، فإن كان كذلك اعتبر من نوع آخر غير الذي نريد أن نتحدث عنه هنا . وذلك في الغالب قد يكون نتيجة التهديد والوعيد .

أما ذلك النوع الذي نريد أن نتحدث عنه هنا فهو ذلك الاستسلام الذي يقبله الإنسان طائعاً غثاراً فيرتاح له وقد يشعر باللذة فيه ، وذلك مثل ذلك الاستسلام الذي يشعر به الطفل أمام الشاب ويشعر به الشاب أمام بطل قوى أو زعيم من زعماء الهيئة الاجتماعية .

والإنسان عادة يخضع أمام القوى ويستسلم له ، ويثور أمام الضعيف ويتجبر عليه .

والقرآن يصور لنا هذه الظاهرة في كثير من الآيات فيقول :

« وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه أو قاعداً أو قائماً ، فلما كشفنا عنه ضره مر كأن لم يدعنا إلى ضره منه ، كذلك زين للمسرفين ما كانوا يعملون » .

ويقول :

« وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر كان
يؤوساً » .

ويقول الرازى لافتنا الذهن إلى تلك الظاهرة النفسية عند تفسيره لقوله
تعالى : وإذا أنعمنا على الانسان أعرض ونأى بجانبه وإذا مسه الشر فذو دعاء
عريض

« واعلم أنه تعالى لما ذكر الوعيد العظيم على الشرك وبين أن المشركين يرجعون
عن الشرك في يوم القيامة ويظلمون من أنفسهم الذلة والخضوع بسبب استيلاء
الخوف عليهم، بين أن الانسان جبل على التبدل فإن وجد لنفسه قوة بالغ في التكبير
والتعظيم وإن أحس بالفتور والضعف بالغ في إظهار الذلة والمسكنة » .

اعتمد القرآن على هذه الظاهرة النفسية في مجادلته الخصوم فكان يستثيرها
ليثبت في النفوس ما يريد .

والأشياء التي يثير بها القرآن هذه الغريزة لتخضع النفس أمام قوة الله وجبروته
كثيرة، منها الضخم الكبير ومنها الدقيق الذي يوحى بالقدره والنفوق —
وإن كانت الاستشارة بالنوع الأول أكثر، إذ منها خلق السماء والأرض
وما فيهما .

فيقول سبحانه وتعالى : « أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها
وما لها من فروج .

والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج -
تبصرة وذكرى لكل عبد منيب .

ونزلنا من السماء ماء مباركاً فأنبتنا به جنات وحب الحصيد .

والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقاً للعباد وأحيينا به بلدة ميتاً كذلك
الخروج » .

ومنه إرسال الرياح وسوقها السحاب .

فيقول : « وهو الذى يرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات ، كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون .

والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذى خبث لا يخرج إلا نكداً كذلك تصرف الآيات لقوم يشكرون » .

ومنه رفع السماء بغير عمد وإمساكها من أن تزول ، وخلق البحرين العذب والمالح الأجاج .

فيقول : « الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها ثم استوى على العرش وسخر الشمس والقمر كل يجرى لأجل مسمى يدبر الأمر يفصل الآيات لعلكم بلاء ربكم توقنون .

ويقول : « وهو الذى مرج البحرين هذا عذاب فرات وهذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخاً وحجراً محجوراً ، وهو الذى خلق من الماء بشراً فجعله نسباً وصهراً وكان ربك قديراً ويعبدون من دون الله مالا ينفعهم ولا يضرهم وكان الكافر على ربه ظهيراً » .

أما النوع الثانى وهو الدقيق الذى يوحى بالقدرة والتفوق فأكثر ما تكون مثيراته خلقه الإنسان نفسه

قال الله تعالى « أيعسب الإنسان أن يترك سدى . ألم يك نطفة من مئى يعنى . ثم كان علقة مخلوق فسوى . فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى . أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى » .

ويقول : « أو لم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وضرب لنا مثلاً ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم ؟

قل يحيىها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم الذى جعل لكم من

الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم . إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون . فسيبحران الذى بيده ملكوت كل شيء وإليه ترجعون .

ونلاحظ أن القرآن فى عرضه لما يثبت قدرة الخالق كان يصوره فى أشياء يحسن إليها العربى بطبعه، فكان يستثير هذه الغريزة بوصفه لكل ما يعود بالذم أو الضرر أو بكل ما يطمئن إليه الإنسان أو بكل ما يخافه ويخشاه، وإذا كنا قد عرضنا عليك هنا الصور التى تثير الإستسلام المريح فإننا قد عرضنا عند حديثنا عن استثارة عاطفة الخوف بعض ما قد يسببه الخضوع غير المريح .

السيادة أو السيطرة : —

إذا كان القرآن قد استثمر فى الخصوم غريزة الخضوع أو الإستسلام فقد استثمر أيضاً ما يضادها وهى غريزة السيادة أو محبة التسلط أو السيطرة . وأكثر ما استفاد القرآن من هذه الغريزة إنما كان فى حملهم على ترك عبادة الأصنام ببيان أنها أخط من الإنسان وأقل منه شأنًا ، وكذلك فى حملهم على ترك عبادة الملائكة والنبين أو ما يعتقدون من آلهة أخرى، ببيان أنهم عباد أمثالهم ، وأنهم لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً ولا يملكون موتاً ولا حياة ولا نشوراً . وأنهم يرجون الله ويتقنون لديه الوسيلة ، وأنهم لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن أو رضى له قولاً .

ومن الصور التى صور بها القرآن هذه الآلهة وأظهرها فى مظهر العاجز ماجاء فى قوله تعالى

« هو الذى خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما نفشاها حملت حملاً خفيفاً فرت به، فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن أتيقنا صالحاً لنكونن من الشاكرين . فلما أتاهما صالحاً جملاً جعلنا شركاء فيها أتاهما فتعالى الله عما يشركون . أيشركون ما لا يخلق شيئاً وهم يخلقون . ولا يستطعون لهم نصراً ولا أنفسهم ينصرون .

وإن تدعوهم إلى الهدى لا يتبعوكم سواء عليكم أَدْعَوْتُهم أم أنتم صامتون .
 إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم
 صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها
 أم لهم آذان يسمعون بها قل أَدْعُوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون ؛ إن ولى الله
 الذى نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون
 نصركم ولا أنفسهم ينصرون . وإن تدعوهم إلى الهدى لا يسمعون وتراهم ينظرون
 إليكم وهم لا يبصرون . »

وفى قوله تعالى :

« قل أرأيتم ما تدعون من دون الله أرونى ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك
 فى السموات أثبتونى بكتاب من قبل هذا أو أنارهم من علم أن كنتم صادقين .
 ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم
 عن دعائهم غافلون .

وإذا جسر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين »

فهو هنا وبخاصة فى الصورة الأولى يعرض عليهم الآلهة فى أشكال متنوعة
 كلها يدل على الضعف والعجز . فهم لا يخلقون شيئاً وهم يخلقون وهم لا يستطيعون لهم
 نصراً ولا أنفسهم ينصرون وهو يتحداهم ويطلب اليهم إختبار الآلهة ليقفوا بأنفسهم
 على مقدار الضعف والعجز فيخبرهم أنهم عباد أمثالهم وأنهم لا يستجيبون لهم أن
 دعوهم . ثم يصورهم بصورة تدل على أنهم أخط من الإنسان وأقل شأنًا فيقول
 ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم
 آذان يسمعون بها .

وهكذا يعتمد القرآن على بث ما يريد من أفكار . والإيماء بما يقصد من
 معتقدات حين يستبين جانب السيادة من الطبيعة البشرية .

وقد يعتمد القرآن على صور تبدو فيها الآلهة متهاقنة إلى درجة الانحطاط ، فلا
 تستطيع أن تخلق ذباباً ولا أن تدفع عن نفسها عاديتها فيقول :

« يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له أن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذباباً ولو اجتمعوا له ، وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ، ضعف الطالب والمطلوب . ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز . »

على أن القرآن كان يلفت الذهن كثيراً إلى أن هذه الآلهة لا تستطيع أن تؤدي إلى العربي ما كان يرجو منها من رزق وخير فيقول :

« ويعبدون من دون الله ما لا يملك لهم رزقاً من السموات والأرض ولا يستطيعون »

ويقول :

« وما يستوى البحران هذا عذب فرات سائغ شرابه وهذا ملح أجاج ، ومن كل تأكلون لحماً طرياً وتستخرجون حلية تلبسونها ، وترى الفلك فيه مواخر لتبتنوا من فضله ولملكن تشكرون . يولج الليل في النهار ويولج النهار في الليل وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . أن تدعوه لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير . »

وهكذا نجد القرآن يستثير هذه الغريزة كما قد يستثير ما يضادها في كل فرصة تسمح ليوحى إليهم بما يشاء ، فأحياناً يستثير فيهم غريزة السيادة وحب السيطرة . لينفروا من عبادة الآلهة الزائفة ، وأحياناً يستثير فيهم الخضوع والاستسلام ليؤمنوا بما يريدون بخضوعهم لله الواحد القهار .

التهكم :

من الأشياء التي لجأ إليها القرآن في مجادلته الخصوم أسلوب التهكم أو الاستهزاء والسخرية . وهذه فنون من القول أو ألوان من الأدب لجأ إليها الخصوم أنفسهم مع النبي ومن تابعه ، فكانوا يسخرون منهم ويستهزئون بهم ، والقرآن يصور لنا تلك المسألة على أنها ظاهرة اجتماعية تظهر في كل عصر فيقول :

« ولقد أرسلنا من قبلك في شيع الأولين وما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون » .

والأثر النفسى لذلك اللون من ألوان القول إنما هو إضعاف الروح المعنوية فى الإنسان ودفعه إلى تغيير موقفه وتكييف نفسه حسب مقتضيات البيئة، ولذا رأى القرآن الكريم كثيراً ما يحض النبى عليه السلام على التمسك بموقفه وعدم الفرار مما يريدونه عليه فكان يقول له :

« فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين إنا كفيناك المستهزئين الذين يجعلون مع الله آلهما آخر فسوف يعلمون » .

وزى القرآن يسلك مع المستهزئين أسلوب التهديد والوعيد حتى يكفوا عن الاستهزاء فيسلم النبى والمؤمنون من أثاره .

وليس من شك فى أن أعناد القرآن على التهديد والوعيد فى محاربة الاستهزاء إنما يدل على ملاحظة القرآن لسلطان السخرية والتهكم وتقديره له .

أعتمد القرآن على ذلك اللون مع الخصوم ، وقد تلبه بعض المفسرين لهذا وأن وقفوا منه على نوع ساذج بسيط هو ذلك النوع الذى يقوم على المجاز . فيرون تهكما فى قوله تعالى :

« فبشرهم بعذاب أليم »

وفى قوله : « بشر المنافقين بأن لهم عذاب إليماً »

وقوله : « ذق إنك أنت العزيز الكريم » .

وفى قوله : « بأيتها الذى نزل عليه الذكر أنك لجنون » إلى غير ذلك من آيات يقوم فيها التهكم أو تقوم فيها السخرية على المجازات والإستعارات .

ولست أريد أن أفهم عند هذه الآيات وأمثالها فإنما أكتفى بما مضى وأنتقل إلى لون آخر من ألوان التهكم لم يقطن إليه المفسرون أو علماء البلاغة فيما أعتقد ، ذلك اللون هو الذى يقوم على لفت الذهن إلى بعد ما بين المثل العليا أو صور الكمال

وبين تلك الصورة التي يصور بها القرآن القادة والزعماء . فالقرآن قد تناول هؤلاء
وصورهم بصورة تخالف ما كان معروفا في البيئة العربية من صور السكمال . فنراه
يقول عن بعض الزعماء « رأيت الذي يكذب بالدين فذلك الذي يدع اليتيم
ولا يحض على طعام المسكين » .

ويقول في حق آخر :

« فلا تطع المكذبين ودوا لو تدهن فيدهنون . ولا تطع كل حلاف مهين هاز
مشاء بنميم مناع للخير معتد أثيم عتل بعد ذلك زنيم . أن كان ذا مال وبنين إذا
تلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين . سنسمه على الخرطوم »

ويقول في حق ثالث :

« ويل لكل همزة لمزة الذي جمع مالا وعدده يحسب أن ماله أخذه كلا ليذبذبن
في الحطمة وما أدراك ما الحطمة نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة أنها عليهم
موصده في عمد ممددة » .

وهكذا نجد القرآن يصور هؤلاء القادة أو الزعماء بصورة تحذ من كبريائهم
وتذهب هيبتهم من النفوس وتسقطهم من أعين الناس ، فهو يسمهم بكل منقصة
ويصفهم ببعض الصفات التي ينفبر منها العربي بطبعه ، فيصفهم بالسمى بين الناس
بالنميمة ويصفهم بالبخل .

وأعتقد أن غرض القرآن من هذا التمسك لم يكن هجاء هؤلاء الزعماء أو
السخرية بهم فحسب ، وإنما كان يقصد إلى شيء آخر هو أن يلتقم للحق ، وأن يبرز
إلى المكان الأول ما يلقى به الناس وراء ظهورهم من المثل العليا .

التنفير

ولا نستطيع أن نتحدث على إعتاد القرآن على التنفير دون أن نبين مذهب
القرآن في علاقة الألفاظ بالانفعالات النفسية .

والقرآن يلحظ أن كثيراً من الانفعالات النفسية تظهر عند سماع الأفراد لما يحبون أو يكرهون، فإذا أثار اللفظ في الذهن معنى أو عقيدة يحبها الإنسان ويألفها فرح واستبشر، وإن أثار ما يكره الإنسان نفر واشتأز. فنراه يذكر لنا عن الذين لا يقولون بالبعث :

« وإذا ذكر الله وحده اشتأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة، وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون » .

فهو هنا يصورهم فرحين مستبشرين حين تذكر آلهتهم، وغاضبين مشمزين حين يذكر الله وحده .

كما يذكر لنا القرآن في آيات غير هذه أنهم إذا سمعوا ما يكرهون ولوا على أذبارهم نفوراً .

فيقول « وإذا قرأت القرآن جعلنا بينك وبين الذين لا يؤمنون بالآخرة حجاباً مستوراً، وجعلنا على قلوبهم أكنة أن يفقهوه وفي آذانهم وقراً، وإذا ذكرت ربك في القرآن وحده ولوا على أذبارهم نفوراً » .

بل يعطينا القرآن صورة أدل من هذه على صلة الانفعالات النفسية بالألفاظ. وهي تلك الصورة التي ينال الإنسان فيها غيره بالأذى حين يسمع منه ما يكره

فيقول « وإذا نتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يقولون عليهم آياتنا » .

فالقرآن هنا يعطينا صورة لانفعال قوى ثار عند سماع هؤلاء لما ينكبرون . على أن القرآن يلحظ شيئاً أكثر من هذا هو الصور الحسية التي تعبر عما بالنفس من انفعالات نفسية، فكان أحياناً يعمد إلى التصوير الأدبي للتعبير عن تلك الانفعالات فتراه يقول في تصوير الدهشة مثلاً

« فردوا أيديهم في أفواههم » .

وفي تصويره للندم والحسرة :

« ويوم يعض الظالم على يديه »

وفي تصويره للنفيظ والحنق :

« وإذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من النفيظ » .

فالقرآن في كل ما تقدم وفي كثير غيره يلفت الذهن إلى ملاحظته القوية لتلك الصلة القوية بين الألفاظ والاتفعالات .

والفسير النفسى لتلك المسألة هو أن الألفاظ حين تذكر تثير في النفس ماوضع إزاءها من صور. هذه الصور قد ارتبطت بتلك الألفاظ برباط من تلك الأربطة التي يصورها علماء النفس عند حديثهم عن التداعي .

وإذا كان من هذه الصور السار والمؤلم ، كان من الاتفعالات ما هو السار وما هو المؤلم أيضاً .

استثمر القرآن هذا الجانب من جوانب النفس الإنسانية في جدله ، فكان يعتمد على استثارته لبعض الاتفعالات أو لبعض الأفكار التي يكرهونها أو يخافونها ، فتراه حين يحاول التأثير عليهم ودعوتهم إلى ترك عبادة الملائكة يعتمد على فكرة شائعة في البيئة العربية إذ ذاك هي كراهية الإناث أو البنات فتراه يقول :

« وجعلوا له من عباده جزءا إن الإنسان لكفور مبين . أم اتخذ مما يخلق بنات وأصفاكم بالبنين ، وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلا ظل وجهه مسودا وهو كظيم » .

ويقول « ويجعلون لله البنات سبحانه ولهم ما يشتهون . وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم . يتوارى من القوم من سوء ما بشر به أيمسكه على هون أم يدسه في التراب ألا ساء ما يحكمون » .

كما كان يعتمد على فكرة أخرى هي فكرة الشيطان ، فكان يذكر هذا اللفظ ليستثير في نفوسهم تلك الكراهية ليعبدهم عما يريد فتراه يقول :

« إن الله لا يفر أن يشرك به ويفقر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله

فقد ضل ضللاً بعيداً. إن يدعون من دونه إلا إناثاً وأن يدعون إلا شيطاناً مريداً. لعنه الله وقال لا تأخذن من عبادك نصيباً مفروضاً. ولأضلنهم ولأمنينهم ولأمرنهم فليبتكن آذان الأنعام، ولأمرنهم فلينبين خلق الله ومن يتخذ الشيطان ولياً من دون الله فقد خسر خسراً مبيناً. يعدم ويمينهم وما يعدم الشيطان إلا غروراً أولئك مأواهم جهنم ولا يجدون عنها محيصاً .

كما يقول مؤكداً تلك العداوة بين الشيطان والانسان ومحاولا تغيير موقفهم .

« يا أيها الناس إن وعد الله حق فلا تفرنكم الحياة الدنيا ولا يفرنكم بالله النور . إن الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدواً إنما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » .

كما كان القرآن يعتمد على بعض الأوصاف التي لا يحبونها لأنفسهم ، فيصفهم بها لينفرهم مما هم فيه من مواقف .

فيقول : « فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الأنبياء بنير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا » .

ويقول : « أفرايت من اتخذ إلهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون » .

ويقول : « وقالوا قلوبنا غلف بل لعنهم الله بكفرهم فقليل ما يؤمنون » .

ويقول : « وقالوا قلوبنا في أكنة مما تدعونا إليه، وفي آذاننا وقر، ومن بيننا وبينك حجاب فاعمل إننا عاملون » .

إثارة الانفعالات السارة أو المؤلمة:

يلاحظ علماء النفس أو التربية أن الإنسان حين يكون مسرورا تقوى ذاكرته ويكون أشد تأثرا بما يلقي إليه أو بما يحسه ، وهو على العكس من هذا حين يكون متألما، إذ تضعف الذاكرة ولا يلتفت أو ينتبه نغما تاما لكل ما يلقي إليه أو لكل ما يحس به .

ونلاحظ من استعمال القرآن أنه قد اعتمد على هاتين الظاهرتين في كثير من الآيات عند دفاعه عن المبادئ التي يدعو إليها أو حين هجومه على المبادئ التي يريد القضاء عليها .

والقرآن يستثير هذه الانفعالات بعرضه لكثير من الصور التي يسر الإنسان بها ، أو التي يتألم منها ، فنراه يعرض خينا موقفا في الجنة يمثل المؤمنين أو المتبعين للنبي فرحين مستبشرين، وهو في هذا العرض يستثير في النفس كثيرا من الانفعالات السارة ، فيصف من طعام الجنة ما تشبهه النفس، ويصف من الخدم والخشم ما يصبو إليه العربي ويتمناه .

وزاه على العكس من هذا حين يستثير الانفعالات المؤلمة، فيعرض علينا من صفات جهنم ومن صفات طعامها وشرابها ما تشمئز منه النفس وينفر منه الطبع السليم ، ثم يعرض علينا من صور العقاب أو اللوم والتأنيب ما يؤلم المراضين فيما نرى .

ونستطيع أن نعرض عليك بعضا من هذه الصور الأدبية التي تثير تلك الانفعالات . وهذه صورة منها قد قارن فيها القرآن بين موقف أصحاب الجنة وأصحاب النار . قال الله تعالى « ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا فهل وجدتم ما وعد ربكم حقا ، قالوا نعم ، فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويغونها عوجا وهم بالآخرة كافرون . وبينها حجاب وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسماهم ونادوا أصحاب الجنة أن سلام

عليكم لم يدخلوها وهم يطمعون . وإذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الأعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم قالوا ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة أدخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون . ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله . قالوا أن الله حرمها على الكافرين . الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا وغرتهم الحياة الدنيا فاليوم ننسأهم كما نسأ لقاء يومهم هذا وما كانوا بآياتنا يبحدون . ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون . هل ينظرون إلا تأويله يوم يأتي تأويله يقول الذين نسوه من قبل قد جاءت رسل ربنا بالحق فهل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل قد خسروا أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون »

فهو في هذه الآيات يصور موقفين : موقف المؤمنين وموقف الكافرين . ويصور الأولين فرحين منتبطين قد وجدوا ما وعد ربهم حقاً ، ويصور الآخرين في موقف يطلبون فيه من هؤلاء ماء ورزقاً فيجيبهم هؤلاء بأن الله قد حرم ذلك عليهم .

وهو في هذه الآيات يصفهم أيضاً بما يدل على شناعة أصحاب الأعراف فيهم إذ يقولون لهم : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون . ويصورهم في موقف الحسرة والندم إذ يقولون : هل لنا من شفعاء فيشفعوا لنا أو نرد فنعمل غير الذي كنا نعمل .

وهناك صورة أخرى بصور فيها القرآن أصحاب النار وأصحاب الجنة وما عند الأولين من ندم وحسرة وما فيه الآخرون من نعيم وسعادة فيقول « وقالوا يا ويلنا هذا يوم الدين . هذا يوم الفصل الذي كنتم به تكذبون . احشروا الذين ظلموا وأزواجهم وما كانوا يعبدون من دون الله فاهدوهم إلى صراط الجحيم . وقفوهم إنهم مسئولون . ما لكم لا تناصرون . بل هم اليوم مستسلمون . وأقبل بعضهم على بعض يتسألون . قالوا إنكم كنتم تأتوننا عن اليمين . قالوا بل لم تكونوا مؤمنين . وما كان لنا عليكم من سلطان بل كنتم قوما طاغين . فحق علينا قول ربنا إنا لذائقون . فأغويناكم أنا كننا غاوين . فأنهم يومئذ في العذاب مشتركون .

إنّا كذلك نفعل بالجرمين. إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون. ويقولون
أئنا لنثاركوا آل هتينا لشاعر مجنون . بل جاء بالحق وصدق المرسلين . أنكم لذائقوا
العذاب الأليم . وما تجزون إلا ما كنتم تعملون . إلا عباد الله المخلصين . أولئك
لهم رزق معلوم . فواكه وهم مكرمون . في جنات النعيم . على سرر متقابلين .
يطاف عليهم بكأس من معين . بيضاء لذة للشاربين . لا فيها غول ولا هم عنها
ينزفون . وعندهم قاصرات الطرف عين . كأنهنبيض مكنون . فأقبل بعضهم على
بعض يتساءلون . قال قائل منهم أنى كان لى قرين . يقول أنك لمن المصدقين .
إذا متنا وكنا ترابا وعظاما أئنا لمدينون . قال هل أنتم مطعون . فاطلع فرآه في
سواء الجحيم قال تالله أن كدت لتردين . ولولا نعمة ربى لكنت من المحضرين .
أفأنا نحن بميتين إلا موتنا الأولى وما نحن بمعدين . ان هذا لهو الفوز العظيم .
لمثل هذا فليعمل العاملون . أذلك خير نزلا أم شجرة الزقوم . إنا جعلناها فتنة
للفallen . إنها شجرة تخرج فى أصل الجحيم . طلعها كأنه روس الشياطين . فأنهم
لا يكون منها فعالئون منها البطون . ثم أن لهم عليها لشوبا من حميم . ثم أن
مرجعهم لالى الجحيم . أنهم الفوا آباءهم ضالين . فهم على أنارهم يهرعون .

فالقراّن هنا يعطينا صورة عن موقف من مواقف الآخرة وما يكون فيه
الخصوم من حسرة وندم، وما يكون بين بعضهم والبعض الآخر من لوم وتأنيب،
فيرى بعضهم الآخرين بأنهم هم الذين أضلّوهم، ويتخلّى هؤلاء عن التبعة ويرمون
الأولين بأنهم كانوا طاغين، وأنه لم يكن لهم عليهم من سلطان . ثم يقارن بين
ما فيه المؤيدون للنبي من نعيم وما فيه المعارضون من جحيم، فهؤلاء لهم رزق معلوم،
ولهم فواكه وهم مكرمون فى الجنات، ويطاف عليهم بكأس من معين وعندهم
قاصرات الطرف . وهؤلاء فى الجحيم لا يموتون إلا الموتة الأولى وطعامهم من
شجرة الزقوم، وهذه الشجرة تخرج فى أصل الجحيم وشكلها من القبح والدماثة
بحيث مثل له القراّن برؤوس الشياطين، ثم هم آكلون منها فعالئون منها البطون،
فإذا ما عطشوا كان لهم من الشراب شوبا من حميم، وهم بعد كل هذا وهذا، مرجعهم
(٢٢ م — محمد والقوى الماضية)

إلى الجحيم، وليس هذا إلا جزاء تكذيبهم بيوم الفصل ورميهم محمداً بالجنون وإنكارهم
الوحدانية واتباعهم ما كان عليه آباؤهم من ضلال .

والقرآن يستثير هذه الانفعالات في بعض الأحيان بما يصف به الطبيعة البشرية
من أشياء تبعث في النفس السرور كما قد تبعث في النفس الإحساس بقوة خالق هذا
السكون وعظمته فيقول الله تعالى « ومن آياته الجوار في البحر كالأعلام . إن يشأ
يسكن الريح فيظللن رواكد على ظهره إن في ذلك لآيات لكل صبار شكور . أو
يوبقهن بما كسبوا ويعف عن كثير . ويعلم الذين يجادلون في آياتنا ما لهم من
محيص » فانظر إلى جمال هذه الصورة وانظر إلى قوة هذا التعبير ، وتخيّل تلك
الجوارى التي كالأعلام ، وتخيّل ذلك المنظر لو سكنت الريح ووقفت هذه الجوارى
في مكانها ، وما فيها من جمال ومن دلالة على القدرة ثم هذا التعبير يظللن رواكد على
ظهره وما فيه من قوة . انظر إلى كل هذا وانظر كيف استفاد منه القرآن في التأثير
على المجادلين حين يعلمهم بأنه ما لهم من محيص .

ثم انظر إلى قوله تعالى « وهو الذي يرسل الرياح بشرا بين يدي رحمته حتى
إذا أقلت سحاباً ثقالا سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات
كذلك نخرج الموتى لعلكم تذكرون . والبلد الطيب يخرج نباته بإذن ربه والذي
خبت لا يخرج إلا نكدا كذلك نصرف الآيات لقوم يشكرون » لتبين إلى أى
حد تفرح النفس العربية . فالرياح مرسلة بشرا بين يدي رحمة الله ، وهي تحمل
سن السحاب الثقيل . ثم هي مسوقة إلى بلد ميت ، فإذا أنزلت الماء أخرج الله الثمار .
والقرآن ينتقل من هذا إلى إثبات ما يريد فهو قد استثار في نفوسهم هذه الأشياء
ليوحى إليهم بأن إخراج الموتى كذلك .

وهذه سورة أخرى يعتمد فيها القرآن على ما في الطبيعة من جمال فيقول « ومن
آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذي أحياها
لحي الموتى إنه على كل شيء قدير » فالقرآن هنا يستثير في النفس ذلك الجمال
الطبيعي الذي تظهر فيه الأرض حين ينزل عليها الماء ، وحين تبدأ أو تدب فيها

— ٣٣٩ —

الحياة وهو يستثير هذا ليوحى في النفس بأن الذى أحياهذه الأرض هو الذى سيحيى الموتى لأنه على كل شىء قدير .

التوكيد :

لا أريد أن أعرض عليك كل تلك الوقفات الطويلة التى وقفها الرازى أو التى وقفها صاحب الكشف من قبل عند تفسيرهم لظاهرة الرد على الخصوم بجانب من جوانب التوكيد ولون من ألوانه هو القسم ، لأوضح لك أن المنهج العقلى أو الأصولى كان واضحاً فى تفسيرهم لتلك الظاهرة . فإنه يكفينى أن أعرض عليك صورة واحدة لكل منهم لتقف على هذا .

يقول صاحب الكشف عند تفسيره لقوله تعالى .

وقال الذين كفروا لا تأتينا الساعة قل بلى وربى . . . الخ
فإن قلت : الناس قد أنكروا إتيان الساعة وجحدوه ، فهب أنه حلف لهم بأغليظ الإيمان وأقسم عليهم جهد القسم ، فيمين من هو فى معتقدهم مفتر على الله كذباً كيف تكون مصححة لما أنكروه ؟ قلت :
هذا لو اقتصر على اليمين ولم يتبعها الحجة القاطعة والبيئة الساطعة وهى قوله ليجزى ، فقد وضع الله فى العقول وركب فى الفرائز وجوب الجزاء . وأن المحسن لا بد له من ثواب والمسيء لا بد له من عقاب .

وقوله ليجزى متصل بقوله لتأتينكم تعليلاً له

فصاحب الكشف كما ترى يذهب إلى أن القسم لا يكفى فى الإقناع .

أما الرازى فيقول عند تفسيره لقوله تعالى :

« والصافات صفاً ٥٥٥٥ الخ » .

« فإن قيل ذكر الحلف في هذا الموضوع لائق ، وبيانه من وجوه :

الأول : —

أن المقصود من هذا القسم إما إثبات هذا المطلوب عند المؤمن أو عند الكافر .
والأول باطل لأن المؤمن مقر به من غير هذا الحلف . والثاني باطل لأن الكافر لا يقر
به سواء حصل الحلف أو لم يحصل . فهذا الحلف عديم الفائدة على كل التقديرات .
الثاني أنه تعالى حلف في أول هذه السورة على أن الإله واحد ، وحلف في أول
سورة الذاريات على أن القيامة واقعة .

فقال : « والذاريات ذروا » إلى قوله إنما توعدون لصادق وإن الدين لواقع
وإثبات هذه المطالب العالية الشريفة على المخالفين من الدهرية وأمثالهم بالحلف
واليمين لا يليق بالعقلاء .

والجواب من وجوه

الأول أنه تعالى قرر التوحيد وصحة البعث والقيامة في سائر السور بالدلائل
اليقينية . فلما تقدم ذكر تلك الدلائل لم يبعد تقريرها فذكر القسم تأكيداً لما
تقدم ، لاسيما والقرآن إنما أنزل بلفظ العرب ، وإثبات المطالب بالحلف واليمين
طريقة مألوقة عند العرب .

والوجه الثاني في الجواب أنه لما أقسم بهذه الأشياء على صحة قوله تعالى :

« إن إلهمكم لواحد » .

ذكر عقبه ما هو كالل دليل اليقيني في كون الآله واحداً وهو قوله
تعالى :

« رب السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق » وذلك لأنه تعالى بين
في قوله : « لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا » أن إنتظام أحوال السموات
والأرض يدل على أن الإله واحد ، فهنا لما قال إن إلهمكم لواحد أردفه بقوله رب
السموات والأرض وما بينهما ورب المشارق . كأنه قيل قد بينا أن النظر في إنتظام

هذا العالم يدل على كون الإله واحدا فتأملوا في ذلك الدليل ليحصل لكم العلم بالتوحيد .

الوجه الثالث في الجواب أن المقصود من هذا الكلام الرد على عبدة الأصنام في قولهم بأنها آلهة ، فكأنه قيل هذا المذهب قد بلغ في السقوط والركاكة إلى حيث يكفي في إبطاله مثل هذه الحجة والله أعلم .

فأنت ترى أن الرازي لا يكاد يطمئن إلى أن القسم وحده يكفي في الإقناع ، فيحاول دائماً تلصق الفروض في نوع من ترابط الأدلة ، مما يكفي لهدم أقواله أن يعترض عليه بالقسم في أوائل ما نزل من القرآن ، وفي الرد على فرية لم يقم على كذبها أى دليل وذلك في قوله تعالى : « ن والقلم وما يسطرون ما أنت بنعمة ربك بمجنون » وكثير غيرها مما يرد هذا القول وينقضه .

أما النفسيون وعلماء الاجتماع فيرون في التوكيد رأياً غير هذا ، إذ هو عندهم أداة من أدوات الاستهواء ، ويقولون عنه أنه يعنى من المجادلة ، ويرون أن سلطانه على النفس يقوى بمقدار نفوذ قائلة وقوة إرادته ، وبرنين ألفاظ التوكيد في الأذن ، كما يرون أنه يعتمد على صفة في الجماعات والأفراد هي سرعة التصديق ، وعدم القدرة على التعقل ، والنقد ، والاندفاع وراء الخيال .

يقول جوستاف لوبون : « ما في الجماعات من الإفراط في سرعة التصديق ليس خاصاً بها ، فسرعة التصديق لاشك هي التي تلامح حالتنا الطبيعية . نعم لا ينقصنا شيء من ملكة الانتقاد في الأمور التي تتعلق بعهتنا ، ولكننا عندما نتجاوز دائرة هذه المهنة الضيقة لا يبقى فينا من ملكة الانتقاد سوى القليل . ولذا أحذر القاريء من القول بشك اللادين . فهو لاء لا يفعلون في الغالب غير تبديل سرعة تصديقهم موضعاً » .

ويقول في كتاب آخر :

« أما التوكيد فإنه من أهم العوامل لبث الفكر في نفوس الجماعات متى كان بسيطاً خالياً من التعقل والدليل ، وكلما كان التوكيد موجزاً ومجرداً عن كل ماله مسحة بالحجة والتقدير كان عظيم التأثير ، هكذا اعتمدت الكتب الدينية وقوانين جميع القرون على مجرد التوكيد

فالتوكيد قيمته يعرفها أهل السياسة الذين يريدون الدفاع عن عمل سياسي ، وأهل الصناعات الذين يروجون بضاعتهم بالشرع عنها . »

وأنت لابد قد لاحظت أن جوستاف لوبون يذهب إلى ضد ما يذهب إليه كل من الرازي وصاحب الكشف ، وأنه يرى أن التأثير في التوكيد إنما يكون بمقدار ابتعاده عن كل ماله مسحة بالحجة والدليل وأنهم هم كانوا يذهبون إلى تلمس تلك الحجج وهذه الأدلة في كل ما كتبوه عن القسم أو عن التوكيد في صورة القسم . والأساس النفسى الذى يبنى عليه التوكيد فى الغالب هو قدرة المؤكد على التأكيدي شخصية السامع ومحاولة فصله بين الآراء التى تؤيد ما يرمى إليه وإظهارها والآراء التى تخالف ما يذهب إليه وكتبها .

وأستطيع أن أضع بين يديك بعض الآيات التى اعتمد فيها القرآن أو استعمل فيها هذه الوسيلة وهى التوكيد، فى الرد على الخصوم فيقول : « فلا أقسم بالخلس . الجوار الكلس . والليل إذا عسعس . والصبح إذا تنفس . إنه لقول رسول كريم . ذى قوة عند ذى العرش مكين . مطاع ثم أمين . وما صاحبكم بمجنون . ولقد رآه بالأفق المبين . وما هو على الغيب بضنين . وما هو بقول شيطان رجيم فأين تذهبون . أن هو إلا ذكر للعالمين »

ويقول : « فلا أقسم بمواقع النجوم وأنه لقسم لو تعلمون عظيم . إنه لقرآن كريم . فى كتاب مكنون . لا يمسه إلا المطهرون . تنزيل من رب العالمين »

« ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شيء قدير . وأن الصلوة آتية لا ريب فيها وأن الله يبعث من القبور » .

وهنا يجب أن نلفت الذهن إلى أن القرآن لم يكتب بالأسلوب المؤكد في جده عن المشاكل الأصلية فحسب ، بل اعتمد عليه أيضاً في تثبيت أو محو كثير من المعتقدات والمواقف كالخوف والأمل مما لا يجد أنفسنا في حاجة إلى التمثيل له . ويمكن أن نشير إلى بعض تلك المشاكل ، فهناك مسألة الشياطين واستراق السمع ، وهناك نفي الجنون ، وهناك تأكيد الوعد والوعيد ، وهناك كران لرسول من جلس القوم ، وأنه المتحدث بلسانهم .

التكرار : —

يعد البلاغيون والنحاة التكرار نوعاً من أنواع التوكيد ، ويراه النفسيون تنمة له ، ونحب أن نقف وقفة قصيرة لنرى موقف المفسرين وموقف علماء النفس منه .

إلتفت بعض المفسرين إلى أشياء في التكرار نستطيع أن نقول أنها أقوم من تلك التي لاحظوها في التوكيد ، إذ كانوا هنا أقرب إلى الميدان النفسي والجو الأدبي ، حتى لنا حظ أحدهم وهو القرطبي قد قرب جداً من هذا الميدان .

يقول صاحب فتح البيان في التكرار ما يأتي « ولعل وجه تكرير تفسير القرآن بالذكر في هذه السورة الإشعار بأنه منة عظيمة لا ينبغي لأحد أن يففل عن شكرها ، ولأن في كل قصة أشعاراً بأن تكذيب كل رسول مقتض لنزول العذاب ، واستماع كل قصة مستدع للاذكار والإتماظ . وهذا حكم التكرير في قوله فبأى آلاء ربكما تكذبان عند كل نعمة عدها ، وقوله ويل يومئذ للكافرين عند كل آية أوردها ، وكذلك تكرير الأنبياء والقصص في أنفسها لتكون تلك العبرة حاضرة للقلوب مصورة للأذهان مذكورة غير منسية في كل آن »

ويخطو القرطبي خطوة داخل الحرم في الميدان النفسى والجو الأدبى فيقول عند تفسيره لقوله تعالى «يا أهل الكتاب، لا تغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى بن مريم رسول الله ... إلخ» اعتقاد أن عيسى عليه السلام لا أب له واجب، فإذا تكرّر ذكره منسوباً للأم استشعرت القلوب ما يجب عليها اعتقاده من نفي الأب عنه، وتنزيه الأم الطاهرة عن مقالة اليهود لعنهم الله «

ويرى النفسيون أن أثر التكرار إنما يرجع إلى حقيقة نفسية هي أن كل خاطر يمر بالذهن يترك أثراً، هذا الأثر يتحول في الحال إلى عمل أو فكره، وكلما تكرّر الأثر قوى سلطانه واشتد . يقول الأستاذ قنديل « ويحدث الأثر النفسى المكتسب في كل عملية عقلية، فتكرار عملية ما يزيد أثرها عمقاً ويحدث في المرء ميلاً إلى أن يسلك مسلكاً خاصاً مناسباً لهذا الأثر الذى تركته، وكلما ازداد تكرارها ازداد الميل تمكناً ورسوخاً » .

والقرآن يلحظ هذه الظاهرة النفسية، فنراه يفرض الرقابة على الأنصار حتى لا يكون لأحاديثهم من الأثر النفسى ما يملك عليهم عقولهم أو نفوسهم. فنراه يقول للنبي صلى الله عليه وسلم « وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره، وأما يئسنيك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين » .

ويقول المؤمنون : « وقد نزل عليكم في الكتاب أن إذا سمعتم آيات الله يكفر بها ويستهن بها فلا تقعدوا معهم حتى يخوضوا في حديث غيره أنكم إذا مثلهم أن الله جامع المنافقين والكافرين في جهنم جميعاً » :

ويتضح ملاحظة القرآن لهذه الظاهرة النفسية في حظره على المسلمين تناول آلهة المشركين بالسب أو القذف حتى لا يسب هؤلاء الله فيقول : « ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم كذلك زينا لئكل أمة عملهم ثم إلى ربهم مرجعهم فينبئهم بما كانوا يعملون » وكذلك من تسجيله لحيل

الخصوم حين يلجأون إلى نوع من التشويش يصرف عنهم أثر قراءة القرآن . يقول بعضهم لبعض «قال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون» . وقوة التكرار في تثبيت المعتقدات والآراء لا يستطيع أحد من المحدثين أن يجهلها — خاصة وقد فشت طرق الاعلانات المصورة وغير المصورة ، وهبت أثرها بالتجربة . يقول جوستاف لوبون :

«والتكرار من القوة بحيث يجعل الرجل يؤمن بالكلمات التي يكررها وبسلم بالآفكار التي يعرب عنها عادة ... ولا يلبث الرجل السياسي بعد إقباله على آراء مفيدة له أن يعتقد أنها بتأثير نضاله عنها حتى يصبح غير قادر على تبديلها عندما تقضى منفعتها ذلك التبديل » .

اعتمد القرآن على هذه الظاهرة في جدله ، ولسنا بحاجة إلى التمثيل لها ، فالقرآن مملوء بالتكرار حتى لقد اتقد من جهته ، وقام كثيرون من علماء الإسلام بالرد على هذا .

المثل

اعتمد القرآن على الأمثال في الجدل فكان يشرح في بعضها المواقف كما كان يحيل الخصوم على حال تشبه تلك التي يدافع عنها ليكون منهم التسليم ، فنراه في الدفاع عن الوحدانية يضرب المثل فيقول : ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون « و نراه في الدفاع عن رأيه في عيسى يضرب لذلك مثلاً فيقول :

« إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون » ونراه حين يقارن بين الذين يعتمدون على الله وبين الذين يعتمدون على غيره من الآلهة ، يضرب مثلاً فيقول : « مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتاً وأن أوهن البيوت لبيت المنكبوت لو كانوا يعلمون » .

كما نراه يضرب المثل أحياناً في التهم فيقول :

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفاراً بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدي القوم الظالمين » كما يقول :

« واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فأتبعه الشيطان فكان من الفاوين ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فقتله كمثل الكلب أن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فأقصص القصص لعلهم يتفكرون ساء مثلاً القوم الذين كذبوا بآياتنا وأنفسهم كانوا يظلمون »

وكانت المعارضة تضيق صدرها بهذه الأمثال يضربها القرآن الكريم في حقهم ويذهبون إلى أن هذه الأمثال من عند محمد لأن المولى سبحانه وتعالى أعظم وأجل من أن يعتمد على الأمثال في تقييم مسلك الخصوص .

ورد القرآن الكريم عليهم هذا المذهب حين قال :

« إن الله لا يستحي أن يضرب مثلاً ما ، بعوضة فما فوقها .

فأما الذين آمنوا فيعلمون أنه الحق من ربهم .

وأما الذين كفروا فيقولون : ماذا أراد الله بهذا مثلاً ؟ يضل به كثيراً ، ويهدي به كثيراً ، وما يضل به إلا الفاسقين . الذين ينفضون عهد الله من بعد ميثاقه ، ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ، ويفسدون في الأرض — أولئك هم الخاسرون . »

* * *

القصة

والقصة هي الوسيلة الفعالة بحق ، وهي التي استثمرها القرآن الكريم في كل موقف تقريباً . استثمرها في شرح الدعوة وبيان العقيدة ، واستثمرها في موقف

القوى المضادة من محمد عليه السلام واستثمارهم للكثير من الظروف في خلق المشكلات ووضع العقبات في طريقه .

وكان الاستثمار الأكبر للقصة التاريخية — وبخاصة تلك التي تدور حول موسى عليه السلام ، وذلك لوجود أهل الكتاب والاستئناس بهم في مسائل العقيدة الدينية .

استثمر القرآن القصة التاريخية في كل مجال تقريباً ، وبخاصة في مواقف الأقسام من الرسل ، وفي مواقفهم من قضية التوحيد ، وفي بيان السنن التاريخية التي تكشف خاتمة المطاف ، ونهاية القوى المضادة والمكذبين .

وأكثر قصص سورة الأعراف ، وسورة يونس ، وسورة هود ، وسورة إبراهيم ، إنما تدور حول هذه القضايا .

واستثمر القرآن الكريم أيضاً القصة الأسطورية ، وكان استثماره لها في مجال عملية البعث وإمكانية حدوثه وقيام الناس للشواب والعقاب في الحياة الآخرة . ونضرب لذلك مثلاً قصة أهل الكهف ، وقصة إبراهيم والهير ، وقصة الذي مر على قرية وهي خاوية على عروشها .

والقصتان الأخيرتان من قصص سورة البقرة .

ولن نغضى أبعد من هذا في الحديث عن هذه الوسيلة ، وذلك لأننا كما سبق أن ذكرنا ، قد أخرجنا للناس كتاباً في هذا الموضوع هو كتاب « الفن القصصي في القرآن الكريم » .

— ٣٤٨ —

ففي هذا الكتاب ، الذي أخرجناه قبل هذا وإن كنا قد ألفناه من بعده ،
فصول عن كل ما يدور حول محمد عليه السلام .

* * *

خاتمة

هذه هي قصة محمد عليه السلام مع القوى المضادة ، وهي قصة توجد في كل زمان ، وفي كل مكان .

توجد هذه القصة كلما دعا الدعاة الصادقون ، العاملون في سبيل الصالح العام ، المدركون لما في المجتمع الذي يعيشون فيه من فساد ، والعاملون بإخلاص بالسبيل الموصلة إلى التخلص من هذا الفساد ، والمحقة للحياة الأفضل في هذا المجتمع .

إنها توجد كلما كانت هناك مرحلة حضارية جديدة تستلزم تغيرات جذرية وتستهدف غايات كبرى أهمها أن يعيش الناس في يسر ورخاء ، وأن يمارسوا الحياة اليومية على أسس من قيم أخلاقية ودينية .

وهذا الذي صورناه من موقف محمد بن عبد الله عليه السلام من المعارضة ليس إلا سنة الله في خلقه . ليس إلا الظواهر الاجتماعية التي تحدث مع كل قائد روحي عظيم في كل مكان تهيأت له فيه القيادة ، وكانت التغيرات الجذرية فيه ضرورة حياة .

وما أشبه الليلة بالبارحة ، فما نحن فيه اليوم ليس إلا مرحلة تغيرات جذرية في المجتمعات العربية .

وما أعرضه اليوم من قصة لمحمد بن عبد الله عليه السلام مع المعارضة ليس إلا التراث التاريخي المقدس الذي يجب أن نستلهمه في هذا المقام .

— ٣٥٠ —

إنه الصورة الصادقة للكيفية التي تمر فيها الدعوة الجديدة منذ أن تبدأ
حركة سرية إلى أن تصبح حقيقة قائمة تشاهد بالعيان ، ويؤمن بها كل إنسان .
وإني لأرجو أن يكون ما كتبت فيه الكفاية .

وأسأل الله التوفيق .

الكتاب التالي للمؤلف

القرآن والدولة

كتب المؤلف

أولاً : الدراسات القرآنية :

- ١ - الفن القصصى فى القرآن الكريم
- ٢ - القرآن ومشكلات حياتنا المعاصرة
- ٣ - هكذا يبنى الإسلام
- ٤ - محمد والقوى المضادة

ثانياً : كتب الدراسات الأدبية واللغوية :

- ١ - احمد فارس الشدياف وآراؤه الأدبية واللغوية
- ٢ - أبو الفرج الاصبهاني الراوية
- ٣ - دراسات فى المكتبة العربية

ثالثاً : كتب التراجم :

- ١ - الكواكبى حياته وآراؤه
- ٢ - عبد الله النديم ومذكراته السياسية
- ٣ - على مبارك وآثاره

محتويات الكتاب

تمهيد	١
-------	---

القسم الأول

مشكلات ثلاث

المشكلة الأولى	١١
المشكلة الثانية التوحيد	٦٩
المشكلة الثالثة البعث ثم الحساب أو حتمية العدالة	٩٣

القسم الثاني

الفرقاء في الجدل والحوار

المنافقون والمشركون وأهل الكتاب	١١٩
الدوافع أو البواعث	١٣١

القسم الثالث

الغايات والوسائل

الغايات	١٥٩
الوسائل	١٧١

سنة

١٧٧	•	•	•	•	القسم الأول : وسائل المشركين
٢٠٥	•	•	•	•	القسم الثاني : وسائل أهل الكتاب والمشركين
٢٤٧	•	•	•	•	القسم الثالث : وسائل محمد عليه السلام
٢٥٩	•	•	•	•	الوسائل الدينية والوسائل العلمية
٣٠٩	•	•	•	•	الوسائل الدينية والأدبية

رقم الإيداع ٥٥٢٧ لسنة ١٩٧٢

الطبعة الفنية الحديثة
مستخرج من مخطوطات المؤلفين





